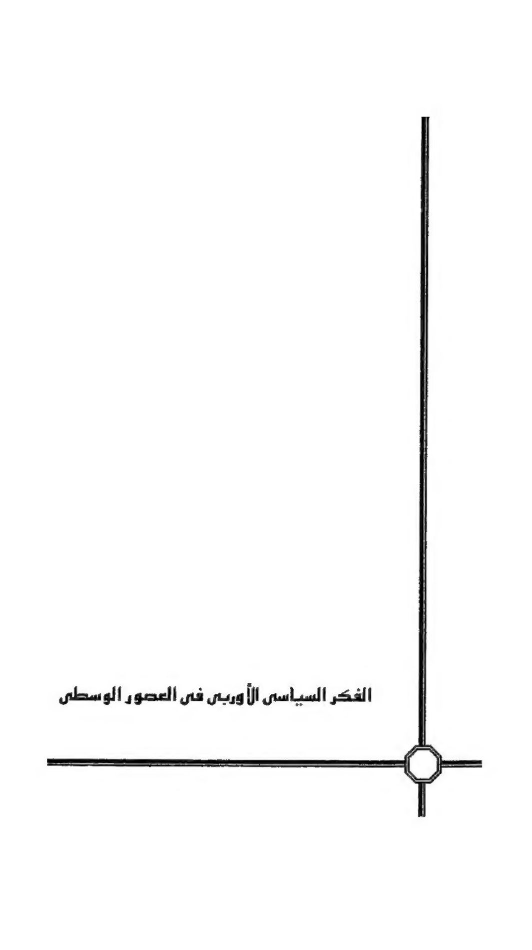
د. رأفت عبد الحميد

الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى

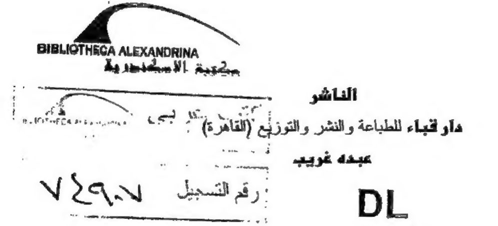




الفكر السياسى الأوربى فى العصور الوسطى

الفكر السياسى الأوربى
فى
العصور الوسطى

د/ رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة عين شمس



الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

DL

الكتـــــاب: الفكر السياسي الأوروبي في العصور الوسطى

المؤلـــف: د/ رأفت عبد الحميد

رقم الإيــداع: ٢٠٠١/١٧٨٧٧

الترقيم الدولي: ISBN

977 – 303 –398-8

تـاريخ النشـر : ٢٠٠٢

الناشـــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة

٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

☎ ٦٣٦٢٥٦٢ – فاكس/ ٦٣٧٤٠٣٨

المكتبــة :

١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

☎ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطابـــع :

مدينة العاشر من رمضان – المنطقة الصناعية (C1)

☎ ٠١٥/٣٦٢٧٧٢

www. alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

حرص الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد، طيب الله ثراه، فى السنوات الأخيرة من عمره على تجميع أعماله التاريخية المتناثرة Opera Minora ونشرها فى مجموعات تاريخية بأسلوب لغوى رصين وحس أدبى رقيق يدفع القارئ إلى الاستزادة منها بنهم شديد. ومنذ عام تقريباً كنا نتحدث عن ضرورة أن يجمع سيادته كل ما كتبه عن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ويضمنه فى مجلد واحد ليفيد منه القراء والباحثون على حد سواء؟ وأجابنى مبتسماً ابتسامته المعهودة لرفاقه وأصدقائه، قائلاً أنا فى ذهنى هذا المشروع وسأبدأ فيه إن شاء الله، وسيكون عنوانه "الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى".

ومضت الأيام كما أراد لها القدر، ورحل العالم رأفت عبد الحميد عن دنيانا فى الخامس والعشرين من شهر يونيو عام ٢٠٠١، وكاد يرحل معه هذا المشروع التاريخى المهم؛ إلى أن زرت أسرته بعد فترة الحداد !! هناك فى منزله المتواضع وقع بصرى على مكتبه لأجده يئن من عبء ما يحمله من كتب ومراجع تشير معظم عناوينها إلى مشروعه البحثى المرتقب. ونظرت إلى صورة سيادته، لأجد نفسى أقود قارب الذكريات وأمخر عباب سنوات عشر، قضيتها تلميذاً فى محرابه؛ وترتد ابتسامته إلىّ وهو يذكرنى بالمسئولية! لقد كان يذكرنى دائماً بأننى سأحمل العبء عنه، وسأكمل ما بدأه من أساس لمدرسة متميزة فى تاريخ العصور الوسطى؛ ولم أشعر بنفسى إلا وأنا أحدث السيدة الفاضلة حرمه عن مشروع أستاذى، وأستأذنها فى لم شتات هذا المشروع وإخراجه إلى النور !! وأجابتنى بالدعاء. وها هى بعض أفكار أ. د. رأفت عبد الحميد عن مرحلة مهمة من مراحل تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، حاولت قدر جهدى، وبحكم معرفتى بمنهج أستاذى، أن أقدمها للقارئ والباحث فى صورة أقرب ما تكون لتلك التى كان سيقدمها هو بنفسه لقراءه الأعزاء.

والكــتاب الذى بين أيدينا الآن يحاول فيه المؤلف أن يؤكد على أن البابوية كانــت المحرك الرئيسى لدفة الحكام والملوك فى أوروبا فى العصور الوسطى؛ فقد طرقت أبواب فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، تارة برفق، وتارة أخرى بقبضة من حديد؛ والأخيرة كانت سمة البابوية فى العصور الوسطى! ولم لا! فالسلطة الروحية التى منحها بطرس الرسول للبابا جعلت منه لا كبيراً للكهنة فحسب، بل سيداً للعالم؛ فمـا كـان يحلـه بطرس فى السماء كان يحله البابا على الأرض؛ وما يربطه فى السـماء كـان يربطه البابا على الأرض. وقد ترجم هذا المفهوم البابوى إلى واقع عملى، عندما كان يشهر سلاح الحرمان فى وجه هذا الإمبراطور أو ذاك.

وإذا كانت العلاقات بين البابا والفرنجة من الميروفنجين أو من الكارولنجيين قـد بلغـت ذروتها الطيبة بحادثة التتويج الشهيرة لشارلمان على أيدى البابا، فإنها على العكس سارت مع أباطرة ألمانيا معظم العصور الوسطى.

ففـى الأيـام الفاصـلة بيـن عامى ٧٩٩ و ٨٠٠، وبالتحديد يوم الخامس والعشـرين مـن ديسمبر عام ٧٩٩، قام البابا، ليو III كنوع من العرفان بالجميل، بتتويج شارلمان، خالعاً عليه لقب إمبراطور الرومان، وهو اللقب الذى كان يحمله الإمـبراطور البيزنطى، القائم فى القسطنطينية، وريثة روما القديمة. فى هذا العام بالذات يمكن القول أن ناقوس الخطر بدأ يدق فى سماء أوروبا، لينذر الإمبراطورية البيزنطـية، التى رفضت الإعتراف بشارلمان إمبراطوراً رومانيا، بخطورة ما أقدم علـيه الـبابا، الـذى كـان يعمـد إلى سحب البساط من تحت قدمى الإمبراطور البيزنطى، حامل اللقب وصاحب الحق التاريخى فيه.

وعلى الرغم من اعتراف الإمبراطور البيزنطى نقفور الأول ٨٠٢ – ٨١١م بعد ذلك بلقب شارلمان، إلاّ أن اعترافه لم يكن ليغير الكثير من فكر وعزم البابوية، الـتى أوحـت للعالم الأوروبى أنها غدت الوصية على هذا اللقب، لتمنحه لم تشاء وتحجبه عمن تشاء أيضاً.

ويـبدو أن فـاه البابوية أفتر عن ابتسامة عريضة، تكشف عن زهوها لهذا النصر، الذى شقيت به أيضاً. فها هى تحاول ترويض ملوك ألمانيا الفتيان، وتبسط

سيادتها الروحية عليهم، لتجعل منهم ظهيراً عسكرياً يقضى لها مآربها؛ ولهذا لم يتردد البابا فى منح الإمبراطور الألمان فى لقب "إمبراطور الرومان" Rex Romanorum فى عام ٩٦٢م، الذى أفاد منه ملوك ألمانيا أيما إفادة فاقت كل تقديرات البابوية، ليتعكر الصفو بين الأخيرة والإمبراطورية الرومانية المقدسة، ويتحول الود بينهما إلى عداء سافر عرفه التاريخ باسم "الصراع بين البابوية والإمبراطورية". وقد استعرت نار العداء بين ألمانيا والبابوية عندما أدرك الأباطرة الألمان أن أمن ألمانيا وصولجانها يقبع فى إيطاليا، ومن ثم خرجت الجيوش الألمانية مراراً إلى هناك لتبسط السيادة الألمانية عليه، الأمر الذى أصاب البابوية بخيبة أمل، لم تعرف لها مثيلاً، فى علاقتها مع ألمانيا؛ فبدأت البابوية فى استخدام الأسلحة الروحية لصد هذه الجحافل، فكان قرار الحرمان الكنسى خير وسيلة لحماية البابوية من بطش الألمان القادمين صوب الجنوب الإيطالى عازمين على البقاء والاستقرار. وهكذا يأتى الفصل الثالث من الكتاب ليؤكد على الدور السياسى للبابوية فى أوروبا العصور الوسطى.

أما الفصل الثانى من الكتاب فيتعرض المؤلف فيه إلى قضية مهمة للغاية، وهى الدور الذى لعبته البابوية فى قيام الحركة الصليبية؛ والذى يأتى استكمالاً للفكرة التى يطرحها المؤلف فى الفصل الأول عن السمو البابوى فى أوروبا آنذاك.

يكشف المؤلف فى هذا الفصل الممتع النقاب عن وجه جديد من أوجه الدور السياسى للبابوية، وكيف كانت تتلاعب بالملوك والأمراء فى سبيل إتمام أهدافها التى كانت ترمى إلى السيطرة والسيادة، بل وتوكيد سمو سلطانها على كل سلطان.

ويأتى الفصل الرابع فى هذا الكتاب ليكشف النقاب عن نموذج من نماذج الحكم فى أوروبا فى العصور الوسطى، أعنى الأنموذج الألمانى، الذى كان يتأرجح بين الانتخاب والوراثة؛ والذى لم يكن بمنأى عن أيدى البابوية أيضاً.

على هذا النحو مضى مؤلف الكتاب فى رحلة تزيد على ثلاثة قرون من عمر الزمان، محاولاً أن يكشف الحقيقة بحلوها ومرها، وأن يثبت من خلال هذا

السفر الجليل أن البابوية، بوجهها المليح أو القبيح، قد ساهمت إلى حد كبير فى تشكيل الفكر السياسى الأوروبى فى العصور الوسطى.

وفى الخاتمة لا يسعنى إلا أن أذكر حديث رسول الله (ﷺ) القائل فيه "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". ونأمل من الله تعالى أن يصبح هذا السفر الجليل علم تنتفع به الأمة العربية.

وعلى الله قصد السبيل

د. طارق منصور

م. نصر – القاهرة

٢٠٠١/١/٢

الفصل الأول

السمو البابوى بين النظرية والتطبيق

ذات يــوم .. رســم بعض زعماء يهود على وجوههم ابتسامة، ظاهرها فيه المــودة وباطــنها مــن قبلها الغيظ، وقدموا على المسيح يحملون بين أيديهم تحية، وقلوبهم بخبث الأفاعى ملآنة، وسألوه: "يا معلم .. نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بـالحق، ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن نعطــى الجــزية لقيصــر أم لا؟ لعلــم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربوننى يا مراءون[1]؟!"

فقــد أدرك المســيح يقينا أن الإجابة بإحدى الكلمتين .. نعم .. أو .. لا، تحقق مأربى اليهود، فإن كانت الأولى، ضيقوا عليه الخناق، واتهموه بالادعاء، وصــاحوا فــى وجهه، كيف تكون ملكنا وتأمرنا بالمذلة لغيرنا؟ فاليهود كانوا يــريدون مسيحا دنيويا، يعيد إليهم مملكة داود وسليمان، أو مسيحا ملكا .. لما جــاءهم مسيح يزين لهم ملكوت السماوات، ويعدهم بالآخرة وعدا حسنا، آذوه وناسه، ونالوا منه ومن دعوته. وإن كانت الثانية، أعنى الإجابة بلا أسلموه بها للرومان، الذين سوف يعدونه محرضا لبنى قومه على عدم دفع الجزية، وتحدى سلطان الحكومة الرومانية.

لذا راح المسيح يتفحص وجوه الحيات وأولاد الأفاعى – كما كان يدعوهم – وقــال: "أرونــى معاملــة الجــزية .. فقدموا له دينارا. فسألهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر. قال: إذن أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"[2].

---

(1) متى ٢٢/١٥–٢١

(2) نفس المصدر والصفحة.

ومــر على هذا القول ثلاثمائة سنين وينيف، وإذا بالأسقف القرطبى العجوز هوسيوس Hosious يكتب إلى الإمبراطور الرومانـــى قسطنطيوس Constantius (٣٣٧-٣٦١) قـــائلا :"الله وضـــع فى يدك هذه المملكة، وإلينا سلم أمور الكنيسة. مكـــتوب : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. إذن .. ليس من حقنا أن نمارس أمور الدنيا .. وليس من حقك أيها الأمير أن تحرق البخور"!![3].

ولمـــا آذنت شمس القرن الرابع بالمغيب، تضمنت رسائل وعظات أمبروز Ambrosius أســـقف ميلانو، عن علاقته بالإمبراطور فالنتينيان Valentinianus نفـــس العـــبارات، وأضـــاف : "الجزية لقيصر .. ذلك شئ لا ننكره، والكنيسة لله .. ومن ثم فلا تخضع لقيصر .. الإمبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها"[4].

Imperator intra ecclesiam, non supra ecclesiam est.

ويشـــد الأسقف الميلانى أوتار دعواه، فتعلو نغمة الخطاب إلى الإمبراطور ثيودوســـيوس Theodosius (٣٧٩-٣٩٥) صـــاحب الفضـــل الأول فـــى جعـــل المســـيحية، العقيدة الرسمية للإمبراطورية الرومانية؛ "أيها الإمبراطور .. عليك أن تصـــغى إلى فى قصرك طائعا، حتى لا تصغى إلى فى الكنيسة كارها .. لست إلا بشرا استولت عليك الضلالة، فامحها .. فالخطيئة لا يمحوها إلا الدموع والتوبة"[5].

فندع ذلك الآن .. ولنعد أدراجنا ثانية إلى المسيح ...

لقـــد سأل يوما حوارييه .. تروا من أكون أنا عند الناس؟ فأجابوه يقولون : يوحـــنا المعمـــدان، وإيلـــيا، وإرميا .. أو واحد من الأنبياء. فسألهم المسيح "وأنتم؟ فأجـــاب سمعان .. أنت هو المسيح ابن الله الحى! فرد عليه .. طوبى لك يا سمعان بن يونا .. أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى، وأبواب الجحيم لن تقوى

---

(3) HOS. Ep. Ad. Const. (ATHANAS. Hist. Arian 44).

(4) AMB. Ep. Ad Theodosium. 33.

(5) AMB. Sermo contra Auxentium, 36.

علـيها، وأعطـيك مفاتـيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات"[٦].

وتمضى القرون على أثر القرون، ويجئ عام ١٠٧٦، فإذا بالبابا جريجورى السـابع Gregory VII (١٠٧٣-١٠٨٥) يصدر ضد الملك الألمانى هنرى الرابع Henry IV (١٠٥٦-١١٠٦) قـرار الحرمان الكنسى، فى رسالة أشاح فيها بوجهه عـن الملـك المحـروم، ورفعها مباشرة إلى بطرس أمير الرسل، وقال بالحرف الواحد: "بمقتضى السلطة المخولة لك من الله ، بحق الربط والحل فى السماء وعلى الأرض، وباعتـبارى ممثلا لك .. أجرد هنرى الملك بن هنرى الإمبراطور، من سـيادته على مملكة الألمان، والأراضى الإيطالية، وأحل رعيته المسيحية من كل إيمـان الـولاء التى قدموها، أو سوف يقدمونها له، وأحرم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك، وبسلطانك أوثقه بوثاق اللعنة، وما ذلك إلا ليعلم الجميع ويوقنوا، أنـك بطرس، وعلى صخرتك بنى ابن الله الحى كنيسته، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها"[٧].

وفـى عام ١٢٣٩، استخدم البابا جريجورى التاسع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) نفـس العـبارات، بل إن شئنا الدقة نفس السلطة، وهو يحرم الإمبراطور فـردريك الـثانى Frederick II (١٢١٢-١٢٥٠) ولكنه أضاف قوله: "وبمقتضى سلطانى"[٨]، مما زاد القضية بعدا جديدا، سوف نعود إليه فى حينه.

تلك رحلة فى الزمان .. طويلة طويلة .. قطعتها البابوية عبر تسعة قرون، واصـطرعت فيها على السلطة الزمنية، وتداولت وإياها جولات من النصر، ومن الهـزيمة جولات، وراحت تستبق والإمبراطورية، تاركة وراءها مهمتها الأساسية، ورسـالتها الروحـية، حتى أضحت فى القرن الثالث عشر تمثل البعد البؤرى فى

---

(٦) متى ١٦/١٣-٢٠

(7) GREG. VII First dep. and ban. Of Henry IV, Feb.22, 1076

(8) GREG. IX, excommunication of Frederick II, 1239.

السياســة الأوروبيــة[9]، متناســية تماما أن المسيح لم يأت ملكا، ولم يكن صاحب نظرية سياسية، وأن ما ورد على لسانه عن حق لله، وحق لقيصر، لا يعدو الموقف فقــط الــذى قيل فيه، والفريسيون يحاورونه حول الجزية، أو ضريبة الرأس، التى كانــت تحمــل فى جوهرها المذلة لليهود فى الإمبراطورية الرومانية. وأن ما قاله لــبطرس وهو يحاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس وهو يحــاوره، لم يذهب أبعد من معناه الروحى الذى تصوره بطرس .. فإذا أضفنا إلى ذلــك، أن الجــزء الأخير من الحوار، أعنى السلطة المخولة لبطرس من المسيح، بمقتضــى إعطائــه مفاتيح ملكوت السماوات، لم ترد إلا فى إنجيل متى فقط، دون بقــية الأناجــيل[10] وأن يوحــنا لم يضمن إنجيله الرواية بالمرة .. أضاف هذا إلى قضية السمو البابوى علامات استفهام لها دلالاتها الكثيرة!!

والآن .. فلنرتد على آثار البابوية والإمبراطورية قصصا، لنعلم أى الحزبين كان أوسع خطوا، وأوفر على طريق السيادة والسمو قدرا.

فالفكــر السياسى الرومانى لم يكن يقبل مطلقا بوجود كيان مستقل عن سلطة الإمــبراطور، أو بتعبــير آخر دولة داخل الدولة، فالإمبراطور هو الكاهن الأعظم Pontifex Maximus وهــو صاحب السلطة المطلقة فى دولته[11]، والكنيسة تنأى بنفســها عــن هــذا الســلطان، وشعب الكنيسة يجل أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم، ويزدرى عبادة الإمبراطور المؤله والربة روما، ويستبدلها بالمسيح والعذراء، ولما كانت العبادة الإمبراطورية تمثل رمز الولاء للدولة والحاكم، كان اضطهاد الأباطرة الــرومان للمســيحيين، اضــطهادا سياسيا فى جوهره، سواء عندما كان اضطهادا

---

(9) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 208

(١٠) متى ١٦/١٣-٢٠ وقارن مرقس ٢٧/٨-٣٠ ولوقا ١٨/٩-٢٢

(١١) ســباين، تطور الفكر السياسى، الجزء الثانى، ص٢٤٠-٢٥٣ وأيضا، تشارلز وورث، الإمبراطورية الرومانــية، ص١٨-٢٦ وكذلــك، محمــد معروف الدواليبى: الوجيز فى الحقوق الرومانية وتاريخها الجزء الأول، ص٢٧١-٢٧٥

محليا، حتى منتصف القرن الثالث، أو بعدما أصبح عاما بمقتضى أول مرسوم إمبراطورى، زمن الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩-٢٥١) ومن أتوا بعده[١٢].

حتى إذا جاء قسطنطين Costantinus (٣٠٦-٣٣٧) وأعلن عن سياسته التسامحية مع المسيحية، وبسط للكنيسة راحتيه لتعلو بهما لا عليهما، رفعته هذه مكانا عليا، وجعلته الحوارى الثالث عشر للمسيح[١٣] ولم يكن قسطنطين فى سياسته هذه إلا مطبقا للفكر السياسى الرومانى، فيما يتعلق بسلطة الإمبراطور، وإن كان بأسلوب يختلف عما أنتهجه أسلافه، تشهد بذلك رسالته إلى إسكندر أسقف الإسكندرية وآريوس قسيسها، فى أولى مراحل النزاع العقيدى بين الرجلين حول المسيح[١٤]، وإلى شعب أنطاكية عقب عزل أسقفها يوستاثيوس Eustathius النيقى المتحمس، وإلى أساقفة مجمع صور عام ٣٣٥ بعد تلكؤ أثناسيوس Athanasius الأسقف السكندرى فى الحضور[١٥]. ووجد فى النظرية التى حاك خيوطها مؤرخه ومداحه، يوسابيوس Eusebius أسقف قيسارية فلسطين، وشيخ مؤرخى الكنيسة، ما يتفق وسيادته؛ إذ أعلن الأسقف القيسارى ابتهاجه بهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة، وراح يحيط شخص الإمبراطور بهالة سماوية من السلطان، على غرار الهالة التى أحاطت الملكيات الثيوقراطية القديمة فى الشرق. ويخاطبه على أنه مخلوق مقدس يعلو أحكام البشر. وإذا كان من الصعب أن يظل الإمبراطور حتى الآن .. "الكاهن الأعظم"[١٦]، وأن يبيت مؤلها، فلا ضير أن يصبح "الأسقف الأعلى"، وأن يغدو إنسانا مقدسا، لختير من الله، ليكون ممثلا له على الأرض.

---

(١٢) رأفت عبد الحميد، الدولة والكنيسة، الجزء الثانى، ص٣٨-٥٣.

(١٣) وضع شيخ مؤرخى الكنيسة يوسابيوس القيسارى كتابا أسماه "حياة قسطنطين" Vita Constantini بعد قصيدة مدح نظمها فى فضائل قسطنطين على الكنيسة بالإضافة إلى الكتاب العاشر من مؤلفه تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica والتى بسط فيها نظرية التزاوج بين الدولة والكنيسة.

(14) EVSEB., Vita Const., II, 65-72

(15) Ibid, III, 60; IV 42,

(١٦) ظل قسطنطين وخلفاؤه يحملون اللقب الوثنى الكاهن الأعظم حتى إلغاء الإمبراطور جراتيان.

وكما أن الإله واحد، فلابد أن يكون هناك إمبراطور واحد، يصبح له بمرور الزمن السيادة على العالم، وحكما عالميا[١٧].

وهكذا وضع قسطنطين لخلفائه، سنة "القيصرية البابوية" Caesaropapism، وجرى بها لسان ابنه قسطنطيوس فى مواجهة أساقفة مجمع ميلانو عام ٣٥٥، عندما راح النيقيون يحاجون بأنه ليس من حق الإمبراطور أن يتهم أحدا فى غيبته، يعنون بذلك أثناسيوس السكندرى، فقطع قسطنطيوس كل حديث ليعلن فى صراحة: "إرادتى هى القانون"[١٨]، oper ego boulomai outo kanon وثبت دعائمها فى القرن السادس الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧-٥٦٥) فى تشريعاته، حيث كانت حكومته تمثل الأنموذج الكلاسيكى للحاكم المسيحى فى مجتمع مسيحى، والذى يرى من واجبه ليس فقط إقرار الإيمان الحق لرعاياه، بل أيضا التشريع والتنظيم الأساسى للكنيسة، وعبر عن ذلك فى إحدى تشريعاته بقوله : "حيث أن الإمبراطورية Imperium والكهانة Sacerdotium تنبعان من مصدر واحد، فليس هناك ما يهم الإمبراطور فى المقام الأول، إلا خيرية الكنيسة وسمعتها"[١٩].

وفى القرن الثامن الميلادى، بلغت "القيصرية البابوية" مداها على يد أباطرة الأسرة الأيزورية؛ فقد جاء فى ديباجة الأكلوجا Ecloga (المختارات) التى صدرت باسم الإمبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤١) وابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥) تشبيه المسئوليات الإمبراطورية، بتلك التى تتعلق بالقديس بطرس؛ تشبيه

---

(١٧) هسى : العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، ص٢٣٠

(18) ATHANAS Hist, Arian 33.

(١٩) Novella VI prae. وقد تمثلت هذه الناحية فى سياسة جوستنيان العقيدية، التى كانت تسير فى ركاب العلم، أعنى الجيش، أى محاولة إظهار نفسه مواليا للمنافزة عند محاربته للفرس فى الشرق، ومناصرا لأصحاب الطبيعتين عند حربه مع الجرمان فى الغرب. ولعل موقفه من البابا فيجيليوس Vigilius (٥٣٨-٥٥٥) يتفق والقيصرية البابوية تماما، إذ قبض سنين، ليقر ما أرتآه جوستنيان. راجع :

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 296-298

Holmes, The Age of Justinian and Theodora, II, pp. 681-686, 702

المسئوليات الإمبراطورية، بتلك التى تتعلق بالقديس بطرس؛ "حيث أن الله قد عهد إلينا بحكم الإمبراطورية، كما قضت بذلك مشيئته، فقد أمرنا أيضا – كما أمر بطرس – أن نطعم شعبه المؤمن" ثم أفصحت عنها دون مواربة، تلك الرسالة التى بعث بها ليو الثالث هذا إلى البابا جريجورى الثانى، أثناء العداء السافر بينهما بسبب إعلان أباطرة القسطنطينية الحرب ضد الإيقونات، ووصف فيها ليو نفسه بأنه "إمبراطور وقس"[٢٠]. على هذا النحو أمست الكنيسة فى الإمبراطورية، دائرة من دوائرها الحكومية، وغدا أسقفها موظفا كبيرا لدى الإمبراطور، الذى يعين الأساقفة ويعزلهم، ويدعو إلى عقد المجامع الدينية، وهو وحده المسئول عن الدعوة لعقد المجامع المسكونية، بل رفضها[٢١]. وهو الذى يترأس جلسات هذه المجامع المسكونية، حتى وإن لم يكن قد تلقى المعمودية، شأن قسطنطين فى مجمع نيقية عام ٣٢٥، ويدير دفة مناقشاتها، ويصدق على قراراتها، ويتدخل فى أمر العقيدة، ويضيف إلى قوانين الإيمان فيها، بوازع من نفسه، أو بوحى من غيره، علم من أمر اللاهوت شيئا أو لا يعلم، ومعظمهم لم يكن يعلم!.

وطوال ألف ومائة من السنين، عمر الإمبراطورية الرومانية فى ثيابها البيزنطية، لم ترفع الكنيسة رأسها معارضة الإمبراطور وإذا كانت قد آنست من نفسها قوة، حينا أو بعض حين، فقد كان لها الإمبراطور بالمرصاد؛ ذلك أن أباطرة

---

(٢٠) هذا اللقب نفسه كان التحية التى يقابل بها الإمبراطور فى المجامع الكنسية، وتثبت مضبطة جلسات مجمع خلقيدونية، المجمع المسكونى الرابع سنة ٤٥١ ذلك، بكلمة Pontifex أو Sacerdos وقد استخدم ليو الثالث هذا اللقب فى رسالته، لكن البابوية رفضت أن تخلعه عليه لحربه ضد الأيقونات.

(٢١) تدلنا الرسالة التى بعث بها أساقفة مجمع ريمينى Ariminuim المنعقد سنة ٣٥٩، إلى الإمبراطور قسطنطيوس، وهم أساقفة النيقية، على أن الإمبراطور لم يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم رغم انتهاء أعمال المجمع، وذلك ليطوعهم لإرادته وعقيدته الأريوسية. راجع :

ATHANAS., De Syn,. 55.

القسطنطينية لم يفرقوا مطلقا بين ما هو لله وما هو لقيصر، فالإمبراطور كان يعتبر نائب المسيح على الأرض[٢٢].

غـير أن هـذا لم يكن حال الكنيسة فى النصف الغربى من الإمبراطورية، أوبتعبير أدق، ما غدا أوروبا العصور الوسطى، وذلك بعد أن ولاه الأباطرة دبرهم منحرفيـن إلـى الشـرق، وهجـروا روما القديمة على ضفاف التيبر، ليقيموا فى رومـاهم الجديـدة علـى شطآن البسفور، منذ أسس قسطنطين مدينته، التى حملت اسمه، على أطلال المدينة الإغريقية القديمة .. بيزنطة.

وكانـت هـذه الخطـوة ذات أثر بعيد فى قيام عالمين متباعدين تماما، فقد أضـحت القسطنطينية البوتقة التى انصهرت فيها عوامل عدة، فى مقدمتها التراث اليونانى الرومانى وتراث حضارات الشرق القديم، والمسيحية، لتخلق عالما جديدا عـرف بالعـالم البـيزنطى[٢٣]، بينما اختلط الغرب الإمبراطورى بتراثه اللاتينى، وبالغـزوات الجرمانـية ثم غزوات الشماليين من بعد، طريقا آخر متباعدا به فى فكره وثقافته وحضارته واتجاهه العقيدى، عن العالم البيزنطى.

فبانـتقال العاصمة الإمبراطورية والأباطرة إلى النصف الشرقى، نيقوميديا Nicomedia أولا علـى عهـد دقلديـانوسDiocletianus (٢٨٤-٣٠٥) ثم روما الجديـدة أو القسـطنطينية، ابتداء بمؤسسها قسطنطين فى عام ٣٣٠، بهذا الانتقال احـتل الغـرب الرومانى، المرتبة الثانية من اهتمام الأباطرة، بينما حظى الشرق

---

(٢٢) مـن أهـم الأدلـة علـى ذلك الفسيفساء الموجودة من القرن السادس فى كنيسة سان فيتالى فى رافنا Ravenna وهـى تمـثل جوسـتنيان فى صورة نائب المسيح، الأوتوقراطور، امتدادا لشخصية ملكى صادق، ملك أورشليم، الملك الكاهن. راجع: أرنولد هاوزر، الفن والمجتمع عبر التاريخ، الجزء الأول. ص١٥٥ ونضـيف إلـى ذلك أن قاعة العرش الإمبراطورى، كان يقوم إلى جوار كرسى العرش عن يسـار، كرسى يظل شاغرا باعتباره خاصا بالمسيح، ويحتل الإمبراطور الكرسى الأيمن باعتباره نائبا عن المسيح.

(٢٣) للمـزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع - راجع : التقديم الذى كتبه المؤلف فى ترجمته لكتاب العالم البيزنطى، تأليف ج.م. هسى، ص٢٧-٤٤

بالمكانة الأولى لاعتبارات سياسية وعسكرية واقتصادية وبشرية[24]. نتيجة لذلك، خلت الساحة فى الغرب من شخصية سياسية قوية قادرة على ضبط الأمور هناك، خاصة إبان الفوضى التى منيت بها الإمبراطورية عند أدريانوبل Adrianople عام ٣٧٨ على يد قبيلة القوط الغربيين الجرمان. وخلال ثلاثة وعشرين عاما بعد وفاة الإمبراطور فالنتينيان الأول (٣٧٥)، لم يعرف النصف الغربى الخضوع لحاكم واحد إلا خلال تسعة شهور فقط، وعلى فترتين، ما بين ٩ أغسطس ٣٧٨ و ١٩ يناير ٣٧٩ تحت سيادة جراتيان و ٦ سبتمبر ٣٩٤ حتى ٧ يناير ٣٩٥ تحت زعامة ثيودوسيوس Theodosius.

بل حتى فى ثلاثينيات القرن الرابع نفسه، عندما أقدم قسطنطين قبيل وفاته على تقسيم إدارة الحكم فى الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة، مما أعطى الفرصة للكنيسة، كى تستأثر بهذا الإمبراطور أو ذاك، إلى الحد الذى دفع قنسطانز Constanse عاهل الغرب (٣٣٧-٣٥٠) إلى أن يهدده أخاه قسطنطيوس، حاكم الشرق، من أجل الأسقف السكندرى أثناسيوس[25].

وفى عام ٣٩٥ تكرر نفس التقسيم لإدارة الحكم فى الإمبراطورية بين ولدى ثيودوسيوس أركاديوس Arcdius وهونوريوس Honorius . ولا شك أن وجود عاهلين أو ثلاثة عواهل على عرش الإمبراطورية، يختلف كثيرا عن وجود شخصية واحدة مقتدرة على العرش.

---

(٢٤) فى الحكومة الرباعية Tetrachia التى أقامها دقلديانوس، ليتغلب بها على أزمة القرن الثالث الميلادى، والفوضى السياسية فى الإمبراطورية، لحتل هو مكانة السيد الأول فى النصف الشرقى، يليه ماكسيميانوس Maximianus أوغسطس الغرب، ثم جاليريوس Galerius قيصر الشرق فى المرتبة الثالثة، وقسطنطيوس قيصر الغرب فى المرتبة الرابعة. وكان مجئ الشرق فى المرتبة الأولى واضحا لأعين المعاصرين، حتى أن لاكتانتيوس، البلاغى الأفريقى الشهير آنذاك، كتب يقول بعد أن كبل قسطنطين ابن قسطنطيوس، نصيحة جاليريوس بالتخلى عن لقب الأوغسطس وقبول لقب القيصر، أنه هبط من الدرجة الثانية إلى الرابعة. انظر : LACT., De mort pers., 25 كما أن الإمبراطور زينون Zeno أهدى روما وإيطاليا إلى ثيوديريوس ملك القوط الشرقيين، ليبعد أذاه عن القسطنطينية.

(25) SOCRAT, Hist. Eccl., II, 22

وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، فقد ابتلى الغرب خلال ثمانين عاما (٣٩٥-٤٧٦) بأباطرة على قدر كبير من ضعف الشخصية، اتفقوا جميعا على شئ واحد، هو أنهم خلقوا فقط للتاريخ أسماءهم، وارتبطت في صفحاته ذكراهم بأنهم كانوا ألعوبة في أيدي قادة الجرمان حتى أن ريكيمار Ricimer الجرماني راح يعين خلال ستة عشر عاما (٤٥٦-٤٧٢) أربعة أباطرة، ويقوم على شنق أحدهم! بل كانت هناك سنوات بعينها قبل عام ٤٧٦، حين سقطت روما في يد أدواكر Odovacar، خلا فيها عرش الغرب من وجود امبراطور[٣٦].

وقد أدرك أباطرة النصف الغربي لنفسهم، أن روما لم تعد العاصمة الساحرة القديمة، مدينة الخلود، ومن ثم انصرفوا عنها إلى ميلانو أو رافنا المدينة المحصنة في الشمال الإيطالي. وأصبحت الأخيرة بالذات مستقرا لهم ومقاما، بينما أمست روما عندهم مدينة من الدرجة الثانية، استباحها القوط الغربيون عام ٤١٠، والوندال سنة ٤٥٥، والإمبراطور قابع في قصره في رافنا، وكان الأمر لا يعنيه في شئ، مما أتاح الفرصة للبابوية في روما، أن تساهم بنصيب ما في التفاوض مع زعماء هذه القبائل الجرمانية للجلاء عن روما، وإن كانت الروايات الأسطورية قد أضفت على هذا الدور الشئ الكثير.

لكن الشئ الذي لا يمكن انكاره، أن الزحوف الجرمانية التي هطلت على الإمبراطورية عقب أدريانوبل، ورلحت الولايات الغربية تساقط في أيديها، تساقط أوراق الشجر في مهب رياح الخريف، كانت قد تحولت إلى المسيحية، لكنها المسيحية الآريوسية، القائلة بخلق المسيح، عدا الفرنجة الذين اعتنقوا الكاثوليكية، والانجلوسكسون الذين ظلوا على وثنيتهم. هؤلاء الجرمان كانوا يحملون قدرا معينا من الاحترام لرجال الدين، حتى أن ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين وملكهم في إيطاليا، أرسل وفدا إلى الإمبراطور الروماني في القسطنطينية، جوستين Justinus (٥١٨-٥٢٧) يطلب إليه أن يرفع يد الاضطهاد عن الآريوسيين في بلاده، حتى لا يضطر إلى

(36) Strayer & Munro, The Middle Ages, 395-1500, pp. 39-40

معاملـة الكاثولـيك فى إيطاليا بالأسلوب نفسه، وكان على رأس هذا الوفد، البابا، زعيم الكنيسـة الكاثوليكـية فـى الغرب، بل أن ثيودوريك رفض أكثر من مرة التدخل فى الخلافات الحادثة بين المتنازعين على العرش البطرسى فى روما.

هنا .. لابد لنا من وقفة قصيرة، نتابع بعدها المسير ..

فرغم كل هذه الظروف، إلا أن التحدى الكنسى فى الغرب لسلطان الأباطرة، لم يأت من أساقفة روما، بل من كنائس أخرى، وعلى وجه التحديد قرطبة وميلانو وبواتيـيه زمـن أسـاقفتها .. هوسيوس وأمبروز وهيلارى على التوالى؛ ذلك أن الصـراع طالمـا فـى هذه الفترة من حول كرسى القديس بطرس بين المتنافسين، بهـدف الحصول على لقب خليفة أمير الرسل. على أن السبب الجوهرى يتمثل فى أن كنيسة روما كانت مشغولة تماما قرابة قرن ونصف من الزمان، بقضية خطيرة هـى إثـبات علـو كعبها على بقية الأسقفيات الأخرى، فى الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم .. والقسطنطينية.

وتشـهد بذلك قوانين المجامع المسكونية الثلاثة فى نيقة ٣٢٥، والقسطنطينية ٣٨١ وخلقيدونية ٤٥١. وتلك كانت الخطوة الأولى فى سبيل الزعامة[٢٧].

هذا إلى أن إيطاليا حظيت فى أخريات القرن الخامس وأوائل السادس (٤٩٣ -٥٢٦) بحكومة مركزية قوية، متمثلة فى مملكة القوط الشرقيين، فلما قضت عليها جيوش جوستنيان بعد حرب دامت ثلاثة وعشرين عاما (٥٣٣-٥٥٥) ولم يعد يمثل السلطة الإمبراطورية فى الغرب إلا النائب الإمبراطورى فى رافنا؛ راحت البابوية ترقى درج السمو غير هيابة، يساعدها على ذلك عوامل عدة.

فالصـراع بين روما والقسطنطينية من أجل زعامة الكنيسة، أكسب البابوية عطـف الحزب الرومانى فى العاصمة القديمة بصفة خاصة، والغرب بشكل عام؛

---

(٢٧) للوقـوف علـى تفاصيل هذا الصراع حول الزعامة الكنسية، راجع للمؤلف، الدولة والكنيسة، الجزء الخامس (تحت الطبع).

فقـد وجـدت إيطاليا نفسها تهبط إلى المرتبة الثانية، وروما فقدت مكانتها السياسية كعاصمة للإمبراطورية، وأمست مجرد عاصمة ولاية رومانية، بل حتى هذه تخلت عـنها كارهـة لرافنا. ومن ثم راحت تعوض فى الزعامة الكنسية وتحدى سلطان الأباطرة من بعد – خسارتها السياسية.

ووسـط الخـراب الاقتصـادى والتفسـخ السياسـى، الذى أمسى عليه الغرب الإمـبراطورى، بعد سقوطه فى يد الجرمان، لم يجد الناس بين هذا الحطام ملاذا يلتفون حوله إلا الكنيسة، فهى الشئ الوحيد الذى بقى له نظامه فى هذه الفوضى. بل لقد تولت فـى كثـير من الأحيان، عن الدولة عبء إقامة العديد من المشروعات الزراعية، لما توفر لها من الثروة الطائلة التى أغدقت عليها من جانب الأباطرة من قبل.

وبيـنما كانت روما فى القرن الخامس تمثل جزيرة الكاثوليكية وسط محيط الأريوسـية فى الغرب، وقد دان بها القوط الشرقيون فى إيطاليا، والقوط الغربيون فـى أسبانيا، والوندال فى أفريقيا، شهد القرن السادس انحسارا لهذا المد وعلو شأن لـروما، عـندما تهـاوت معـاقل الأريوسـية هذه، بتحول الفرنجة فى غالة إلى الكاثوليكـية مباشـرة، وتحـول القوط الغربيين لها فى عام ٥٨٩، وسقوط كل من مملكتى الوندال والقوط الشرقيين على يد جوستنيان.

وكـان وجود عناصر آفارية وصقلبية وتركية فى البلقان، كلها على الوثنية، مـيدانا فسيحا ألقت البابوية فيه بكل ثقلها، متحدية سلطان كنيسة القسطنطينية التى تعتـبر هذه المنطقة امتيازا خاصا لها، باعتبارها جزءا من ممتلكات الإمبراطورية وكان هذا يحمل فى طياته أيضا تحديا للسلطة الإمبراطورية فى القسطنطينية.

ونتـيجة لإطـراد العداء بين البابوية والقسطنطينية، كنيسة وحكومة، ولمصالح دنـيوية خاصـة بالـبابوية، متمثلة فى الخوف من الزحف اللومباردى السائر قدما من شـمال إيطالـيا إلى وسطها، مهددا الممتلكات البابوية، وعداء نبلاء روما للبابا، ورغبة الـبابوية فى التخلص من السيادة القانونية لأباطرة القسطنطينية – باعتبار البابا مواطنا

رومانيا[٢٨]، والكنيسة الرومانية باعتبارها واقعة ضمن مناطق سيادة الإمبراطور، نتيجة لهـذا كله أقدم البابا ليو الثالث، فى ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠، أعنى ٢٥ديسمبر ٧٩٩، على تتويج ملك الفرنجة شارل العظيم .. إمبراطورا فى الغرب!

وكانـت الكنيسـة آنئذ، كما عبرت عن ذلك الوثائق الرسمية الموجودة بين أيدينا، والتى وضعها آباء الكنيسة فى الغرب وزعماؤها، لا تطلب من الإمبراطور أكثر من الوقوف عند سلطانه الدنيوى، دون التدخل فى الشئون الكنسية، حملت ذلك كـتابات هوسـيوس القرطبى، وأمبروز الميلانى – كما أشرنا من قبل – والقديس أوغسـطين[٢٩] والـبابا ليو الأول الكبير (٤٤٠ – ٤٦١)، وإن كان البابا جلازيوس Gelasius I (٤٩٢–٤٩٦) يعـد صـاحب الفضل الأول، فى وضع أسس نظرية السـمو الـبابوى فى مرحلتها الأولى، أى الفصل بين ما لقيصر وما لله؛ فقد كتب يقول : "ميز المسيح بمقدمه بين وظيفة كل من السلطتين، بطبيعة نشاط كل منهما، ومكانتـيهما المتمايزتين .. يعتمد الأباطرة المسيحيون على رجال الدين فى خلاص أرواحهـم، بيـنما يسـتخدم رجال الاكليروس، الامكانيات الإمبراطورية لممارسة أمورهـم الزمنية .. من هنا يجب أن يظل العمل الروحى بعيدا عن الدنيوى، وأن يظـل "رجال الله" بعيدين عن المسائل الدنيوية، وبالمقابل، فإن من ينخرط فى سلك العمل الزمنى، لا يحق له أن يمارس نشاطا روحيا"[٣٠].

ويـزيد جلازيـوس المسـألة وضوحا، وهو يخاطب الإمبراطور البيزنطى انسطاسيوس الأول AnastasiusI (٤٩١–٥١٨) بقوله: "أيها الإمبراطور المعظم– هـناك حقيقـتان هامتان يسير عالمنا هذا بمقتضاهما: السلطة المقدسة للاكليروس،

(٢٨) حتى القرن الثامن كان البابوات رعايا الإمبراطور فى القسطنطينية. راجع :
Barry, The Papal Monarchy, P. 5

(٢٩) للمزيد من التفاصيل عن آراء القديس أوغسطس، راجع كتابه "مدينة الله" Civitas Dei وقد نقلها إلى الإنجليزية فى جزءين Marcus Dods وراجع أيضا فى ذلك:
The Political writings of St. Augustine, edited by, H. paolucci.

(٣٠) GELAS. Letter to Anastasius. وينكـر جلازيـوس أن الأباطـرة حملوا لقب الكاهن الأعظم، ولكن بمجئ المسيح لم يعد الإمبراطور يستخدم هذا اللقب وهذه مغالطة تاريخية راجع حاشية رقم ١٦، ٢٠.

والسلطة الملكية، أكثرهما عبئا وثقلا في الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يسألون يوم الدينونة، حتى عن الميزان .. الاكليروس. فرجاله سوف يسألون يوم الدينونة، حتى عن الملوك أنفسهم ولتعلم أيها الابن الرحيم .. أنك رغم علو سلطانك على الناس، فإنك يجب أن تخلى هامتك اجلالا لرجال الدين، وأن تنظر إليهم باعتبارهم وسيلة خلاصك. عندما تقدم على تناول الأسرار المقدسة، ليكن معلوما لديك، أن من واجبك الطاعة للقائمين بها، لا السيادة عليهم.. والرجوع إليهم، لا محاولة اخضاعهم لرغباتك".

ثم يعلنها صراحة بنيابة البابا عن بطرس أمير الرسل وسمو مكانته على الحاكم الزمني، بقوله: "... ومع أن مكانتك مرموقة أيها الإمبراطور، فإن أحدا لا يمكن أن يعلو بنفسه، بأساليب بشرية، ليقارب تلك المكانة السامية لذلك الذى خاطبة صوت المسيح، وفضله على الآخرين، والكنيسة الموقرة باعتباره مؤسسها.

إن الأمور التي أقرتها الإدارة السماوية، لا يمكن أن تنتهك بعجرفة بنى البشر، ولا يمكن أن تمحى بأية سلطة(٣١).

وعلى نفس الدرب سار البابا جريجورى الأول العظيم (٥٩٠-٦٠٤)، فكتب إلى الإمبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢-٦٠٢) يقول: "أجب سيدك أيها الإمبراطور، فالمسيح على لسانى يسألك .. لقد أخذت بيدك وأنت بعد جندى، وجعلت منك قائدا للحرس الإمبراطورى، ثم ارتقيت بك فصنعتك قيصرا، ثم رفعتك مكانا عليا فغدوت إمبراطورا وأتممت عليك نعمتى فرزقتك بنين أباطرة، وأمنتك على رجالى .. عجبا .. أتأتى الآن لتمنع جندك أن يعملوا فى خدمتى؟! بالله كيف ستجيب سيدك إذا جاء فى مجده ليدين الأحياء والأموات؟"(٣٢).

وفى عام ٧٢٩، كتب البابا جريجورى الثانى (٧١٥-٧٣١) إلى الإمبراطور ليو الثالث الأيزورى يقول: "نحن نستمد سلطتنا وسلطاننا من أمير الرسل بطرس،

---

(٣١) نفس المصدر.

(32) GREG. I, Letter to Maurice.

ونحن قادرون – إذا شئنا – أن نصدر حكمنا ضدك .. اصغ إلينا أيها الإمبراطور، فلـتكف عن القيام بأعمال الكهانة ... إن القوانين الكنسية شئ وإدارة الإمبراطورية شئ آخر .. وكما أنه ليس من حق البابا أن يتدخل فى أمور القصر الإمبراطورى، أو يعتدى على الامتيازات الملكية، فليس من حق الإمبراطور بالتالى أن يتدخل فى شـئون الكنيسة .. مكتوب "الدعوة التى دعى فيها كل واحد فليلبث فيها" (اكورنث ٧/٢٠) (٣٣). غير أن هذه الرسائل إلى الأباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية، لم يكن لهـا أدنـى تأثير على سياسة "القيصرية البابوية" التى اتبعوها، ولا على التمثل ب "الملـك الكاهن" ملكى صادق، إلى الحد الذى دفع البابا جلازيوس أن يشير إلى هذه الناحـية فـى رسـالته الـتى عرضنا لجانب منها، بل إن الإمبراطور ليو الثالث الأيزورى أقدم ردا على رسالة جريجورى الثانى، على فصل مناطق جنوب إيطاليا وصـقلية عـن السـيادة الـبابوية، وجعلهمـا تحـت الرعاية الأسقفية لبطريرك القسطنطينية.

والكنيسـة الرومانـية نفسها كانت تدرك حقيقة هذا الأمر، وأنه لا غنى عن السـيادة الإمبراطورية لحماية مركزها فى روما ضد أعدائها من اللومبارد والنبلاء الرومان وبعض العائلات الأرستقراطية فى روما، التى كانت تسعى للحصول على كرسـى القديس بطرس. وليس أدل على ذلك من الرسالة التى بعث بها الأكليروس الـرومانى، إلـى الإمـبراطور فى القرن السابع، حول الموافقة على اختيار البابا، وجـاء فيها : "... من أجل هذا، فإننا معشر أتباعك أيها الإمبراطور، نتوسل إليك بكـل الدموع، أن تتفضل بقبول التماسنا، وتحقيق رغبتنا، بتقليد ... الذى اخترناه، ولمجـد المملكـة نـرجو أن تتعطف بالموافقة. فما أن تقرون ذلك، حتى نبدأ على الفور فى الصلاة من أجل سيدنا الإمبراطور" (٣٤).

---

(33) GREG. II, Letter to Leo III. .

(34) A Letter from the Church at Rome to the Emperor at Constantinople, asking him to Confirm the election of their Bishop .

ولقد ذهب الأباطرة خطوة أبعد من ذلك، عندما فوضوا أرخون رافنا فى القيام بدور الإمبراطور، فى التصديق على اختيار البابا، نظرا لما قد يستغرقه عرض الأمر على الإمبراطور من زمن طويل، وما قد يحدث إبان ذلك فى روما من جانب النبلاء الرومان، المتحفزين للوثوب على العرش البابوى، الذى أمسى نهبا لهم خلال القرن السابع الميلادى. ولدينا رسالة بعث بها الأكليروس الرومانى إلى أرخون رافنا حول هذه المسألة[٢٥].

بهذه الخلفية، وباطراد حدة العداء بين روما والقسطنطينية، والتباعد الواسع بينهما فكرا وثقافة، ومن بعد بقليل فى الناحية العقيدية، والذى بلغ مداه فى الصراع حول مشكلة الأيقونات، ورغبة من البابوية فى التحرر من السلطان السياسى لأباطرة القسطنطينية، وتعويضا عن فقدان المكانة السياسية الموموقة – كما قدمنا – كل هذا دفع البابا ليو الثالث إلى تتويج شارلمان إمبراطورا فى الغرب.

كانت حادثة التتويج هذه نقطة فاصلة على طريق السمو البابوى، فقد اعتبرت من أهم العمد الرئيسية التى بنيت عليها النظرية تطبيقا فيما بعد، بل ومحور الارتكاز فى هذا التطبيق. ورغم أن هذه الحادثة أثارت الكثير من المشكلات فى زمانها بين أباطرة القسطنطينية وملوك الفرنجة، وحيرت فقهاء القانون فى حينها ومن بعد، وحول شرعية ما أقدمت عليه البابوية[٣٦]، إلا أن هذه تمسكت بما قدمته يداها، واعتبرته انتصارا كبيرا لها، ولم تتخل عنه مطلقا، وراحت تؤكده ثانية عام ٩٦٢ عندما أقدم البابا الغر العابث، يوحنا الثانى عشر،

---

(25) A Letter from the Church at Rome to the Exarch at Ravenna asking him to confirm the election of their Bishop. .

(٣٦) ناقش Barraclough هذه القضية باستفاضة فى بحثه الممتع The Mediaevel Empire, Idea and Reality وقد قام الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف بنقله إلى العربية ضمن كتابه "الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى" وقدم له تقديما وافيا .. راجع الكتاب المذكور ص٢٨-٤٤ و١٦٩-١٨٩

على تتويج الملك الألماني أوتو الأول، امبراطورا، بسبب الدوافع نفسها التي حدث بسلفه ليو الثالث إلى تتويج شارلمان، قبل ذلك بمائة واثنتين وستين سنة.

ولا شك أن البابوية كانت تدرك تماما خطورة العمل الذي أقدمت عليه، فمن يملك حق منح التاج، يملك بالتالي حق سحبه. بتعبير آخر، من يملك سلطة اختيار الإمبراطور، يملك سلطة عزله وكان شارلمان نفسه يدرك أبعاد هذا العمل، ولذا فإنه رغم اغتباطه المعتدل بحمل اللقب الإمبراطوري، إلا أنه اغتم للأسلوب الذي جرى به، فقد كان يأمل لو أنه هو الذي وضع التاج بيديه على مفرقه، ولهذا ولأسباب أخرى .. كتب مادحه اينهارد Einhard يقول، لو أن شارل كان يعلم ذلك، لما ذهب إلى كنيسة القديس بطرس!! [٣٧].

وإذا كانت البابوية قد وجدت في شارلمان الحماية السياسية ضد أعدائها البيزنطيين واللومبارد ونبلاء الرومان على السواء، فإنها افتقدت فيه الأداة الطبيعية التي كانت تؤلمها عندما خلعت عليه تاج أباطرة الرومان. بل غدا شارلمان القاضي الذي راح يفصل في النزاع بين البابا وخصومه في روما[٣٨] ووقف ليو الثالث في حضرة الإمبراطور ليعلن: "... أنا ليو، أسقف الكنيسة الرومانية المقدسة، والذي لم يقاضني من قبل أحد ولم يقهر إرادتي، أبرئ نفسي في حضرتك، من أجل الله، من كل هذه الاتهامات"[٣٩]. وكتب شارل العظيم إليه، محددا عمل البابا في الواجبات الروحية فقط .. قال: "من واجبنا أن ندفع عن كنيسة المسيح أعداءها، وعليك أيها الأب العظيم أن تقدم لنا يد العون في نضالنا الصادق، بأن ترفع إلى السماء أكف الضراعة، كما كان موسى من قبل يفعل"[٤٠].

وفي عام ٨٩٨، أقر المجمع المنعقد في روما تحت رئاسة البابا يوحنا التاسع (٨٩٨-٩٠٠) عدم شرعية اختيار البابا إلا بحضور الإمبراطور أو ممثله[٤١]، وفي

---

(37) EINHARD, vita Caroli, III, 28
(38) EINHARD, vita Caroli, III, 28.
(39) LEO III, The oath before Karl the Great.
(40) KARL. MAGN., Letter to Leo III.
(41) JOHN IX, Enactment of a Roman Synod, 898.

عام ٩٦٣، وعن المجمع الذى التأم فى روما عقده، صدرت الوثيقة التالية: "... اتباعا للسنة التى وضعها البابا مبارك الذكر، الذى أعطى شارل ملك الفرنجة واللومبارد، مرتبة البطريق، والحق فى اختيار البابا وتعيين الأساقفة، أمنح أنا الأسقف ليو (الثامن) خادم خدام الرب، وكل أكليروس وشعب روما – بمقتضى السلطة الرسولية، أوتو الأول ملك الألمان، وخلفاءه، إلى الأبد، الحق فى اختيار خليفة البابا ورسمه، وكذا رؤساء الأساقفة والأساقفة. وليس من حق أحد مهما كانت مرتبته الكنسية أو مكانته، أن يمتلك سلطة اختيار أو رسم البابا أو أى أسقف، دون موافقة الإمبراطور. ويمارس الإمبراطور ذلك باعتباره ملكا (لإيطاليا) وبطريقا (لروما). وإذا ما تم اختيار أسقف من جانب الأكليروس والجموع، فلن تتم رسامته حتى يوافق الملك على ذلك، ويتسلم منه تقليده"(٤٢).

وقد وردت نفس العبارات فى الوثيقة التى تصور مقدم هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) الملك الألمانى وإمبراطور الرومان، فى النصف الأول من القرن الحادى عشر إلى روما، وعزله لثلاثة بابوات، وتعيينه لخمسة متتابعين(٤٣).

وقد يبدو الأمر على هذا النحو غريبا، ونتيجة مخالفة تماما للمقدمة التى ذكرناها، والقائلة أن سلطة التعيين والعزل أصبحت فى يد البابوية، منذ حادثة شارلمان، فكيف تصبح المسألة على العكس تماما، حتى منتصف القرن الحادى عشر، إذ أن الذى لا مراء فيه، أنه خلال حكم الأسرتين السكسونية (٩١٨-١٠٢٤) والفرنكونية (١٠٢٤-١١٢٥) فى ألمانيا، كان اختيار الباب مسألة إمبراطورية بحتة، هذا باستثناء الفترة التى بدأت بعهد هنرى الرابع منذ عام ١٠٥٦. وبلغت السلطة الزمنية قمة شأنها وعلوها، عندما أقدم هنرى الثالث (١٠٣٩-١٠٥٦) على إجبار ثلاثة من مدعى العرش البطرسى على الاعتزال فى سوترى Sutri وروما،

(42) LEO VIII, Grants the Emperor the right to choose the pope and invest all bishops, 963

(43) HENRY III., The Emperor deposes and Creates Popes, 1048

وتلقــى الــتاج على يد البابا الألماني، الذى عينه من قبل وهو سويدجار Suidger أسقف بابمبرج Bamberg(٤٤).

الحقــيقة أن البابوية دخلت منذ القرن التاسع، وعلى امتداد قرنين تاليين، فى حالــة من انعدام الوزن، وفقدت مكانتها التى كانت لها من قبل، وابتليت بمرضين خبيثيــن همــا السيمونية، أى بيع الوظائف الكنسية، وزواج رجال الدين، خلافا لما استقر عليه الرأى فى مجمع نيقية سنة٣٢٥ وأصبح منصب البابوية ألعوبة فى أيدى بعــض العائلات الأرستقراطية في روما، وحكرا عليها، ولعبت بعض الشخصيات النســائية دورا كبيرا فى تعيين عدد من البابوات، واعتلى كرسى بطرس صبية فى سن اللهو والعبث، بل وبيع منصب البابوية فى كثير من الأحيان(٤٥).

وغرقــت الكنيسة الرومانية في الثراء، نتيجة للهبات التى أغدقت عليها من جانــب ملــوك أوروبا منذ أيام شارلمان، وحرص رجال الدين، وقد تزوجوا الآن وكونــوا لهم عائلات، على توريث أبنائهم مناصبهم، ليرثوا بالتالي ثرواتهم، حتى غدا رجال الأكليروس "أمراء" يشكلون طبقة أرستقراطية ضخمة، تعادل أن لم تكن تفــوق الأمــراء العلمانيين، واشتغلوا بكل الأعمال المدنية والحياة العامة، إلى الحد الــذى وصــف فيه أحد المعاصرين، الإكليروس الألمانى فى القرن العاشر، بقوله: "إذا كانت هناك حقيقة واحدة فى ألمانيا، فهى أنه ليس هناك رجل دين تقى!!" (٤٦).

غــير أن موجــة من الإفاقة بدأت تدب فى أوصالها وهى كارهة! ! وسرت حركة الإصلاح الداخلى فيها، بتأثير رهبان دير كلونى، الذى ارتبطت به محاولات إخراج الكنيسة من التردى الذى انحدرت إليه.

---

(44) Joachimsen, Investiture Contest, p. 103

(٤٥) للوقوف على المزيد من تفصيلات هذه الفترة راجع:

Barry, The Papal Monarchy, pp. 144-162

(46) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 360

وكـان بمقـدور هؤلاء الرهبان، الذين وصل نفر منهم إلى كرسى القديس بطـرس، أن يـنتزعوا الحركة الإصلاحية للقضاء على السيمونية وزواج رجال الديـن، وذلك عن طريق عقد المجامع الكنسية، وإصدار المراسيم التى تحرم على شعب الكنيسة التعامل مع مثل هؤلاء الأساقفة المرتشين أو المارقين.

ولكن إذا كان من السهل نسبيا نجاح البابوية فى هذا السبيل، باعتباره مسألة داخلية، رغم المقاومة العنيفة التى أبداها عدد ليس بالقليل من الأكليروس المنتفعين بمـثل هـذه الأوضـاع المتردية، وبعض ملوك أوروبا وفى مقدمتهم فيليب الأول Philip I ملـك فرنسـا (١٠٦٠-١١٠٨)، فـإن داء عضالا كان قد استشرى فى الكنيسـة، لـم يكـن من الميسور أبدا معالجته على هذا النحو، أعنى مشكلة التقليد العلمـانى، وهـى قيام العلمانيين من الأمراء والملوك بتعيين رجال الدين. وهنا .. ولأن الأمـر لا يخـص الكنيسـة وحدهـا، كان لابد أن تصطدم البابوية بالسلطة الزمنـية. ومـن ثم أضحى التقليد العلمانى يمثل حجر الزاوية فى حركة الإصلاح الكنسـى فـى العصور الوسطى، أو بتعبير أدق، بصفة مرحلية، حتى القرن الثانى عشـر. عـندما كـان يمـثل القـناع الذى غطت به البابوية وجهها، حيث كانت الإمـبراطورية فى الغرب صاحبة اليد الطولى فى شئون الكنيسة، فلما انتهى الأمر بين الطرفين إلى الاتفاق على حل وسط، تمثل فى اتفاقية وورمز[٤٧] Worms عام ١١٢٢، بيـن الإمبراطور هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٤) والبابا كالكستس الثانى CalixtusII (١١١٨-١١٢٤)، وآنسـت الكنيسـة مـن نفسـها قـوة، ورأت فى الإمـبراطورية ضعفا[٤٨]، أسقطت قناعها، وكشفت عن وجهها سافرة، وأعلنت أنها صاحبة الحق فى السيادة على العالم دنيا ودينا!!

---

(٤٧) راجع نص الاتفاقية Concordat of Worms فى :

Historical Documents of the Middle Ages, trans and ed. by Ernest Henderson. PP. 408-409

(٤٨) كـان ذلـك واضحا على عهدى لوثر (١١٢٥-١١٣٧) وكونراد الثالث (١١٣٧-١١٥٢) ورغم أن خلفاء كونراد كانوا على قدر كبير من القوة، إلا أن البابوية كانت قد صممت على تحقيق السمو كاملا.

وقـد يتبادر إلى الذهن، أن الإمبراطورية كانت تتحدى حركة الإصلاح هذه أو تعارضـها، ومن هنا جاء عداء البابوية لها. لكن الحقيقة أن الإمبراطورية كانت هى الأخرى تبغى الإصلاح الكنسى، وإن كان من وجهة نظر مخالفة، بمعنى أنه لا مانع من أن يتولى أمر البابوية والكنيسة أساقفة مصلحون، شريطة أن يتم اختيارهم عن طريق الأباطرة، ولقد مارس كل من أوتو الأول وحفيده الثالث، وهنرى الثالث هذه الناحية إلى أقصى حد، بهدف الارتقاء بالبابوية من التردى الذى هوت إليه فى القـرن التاسـع وأنه لمن سخرية الأقدار حقا، أن يكون الأباطرة الألمان هم الذين جعلوا الإصلاح الكنسى حقيقة واقعة، ولكنهم فى النهاية كانوا أكثر الناس خسرانا من برنامج هذا الإصلاح.

كان الإصلاح من وجهة نظر البابوية هو إقرار العدالة فوق رؤوس الخطاة والعدالـة أو الإصلاح تعنى الطاعة الكاملة للرب، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد الـتام للـبابا، والخروج عليه يعد ضربا من الشرك، ووثنية(٤٩). لأن البابا ليس فقط مجـرد خليفة للقديس بطرس، أول البابوات ورأس الكنيسة المسيحية على الأرض، ولكـنه خليفة بطرس، تلميذ المسيح، باعتباره أداة الرب الذى اختارته السماء، ليقر العدالة فوق رؤوس الخطاة(٥٠).

وأى شـئ أكـبر شـهادة ممـا تضمنته المراسيم البابوية، التى تنسب إلى جـريجورى السـابع، الذى يعد مع إنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) وبونيفاس الثامن Boniface VII (١٢٩٤-١٣٠٣) أشهر بابوات العصور الوسطى علـى الإطلاق؛ فقد تضمنت سبعة وعشرين مرسوما، تسمو بالبابوية على عليين، جـاء فيها، أن الكنيسة الرومانية رفع القواعد منها الله وحده، وأنها لم تقارف البتة الخطـأ، ولن تخطئ طيلة عمرها الآتى، وأن البابا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون،

---

(٤٩) عـبر جريجورى السابع عن ذلك بقوله قبيل وفاته: "أحببت العدل وكرهت الظلم، من أجل ذلك أموت فى المنفى".

Delexi Justiciam et odivi iniquitatem, propterea quod morior in exilio.

(50) Thompson & Johnson, op. cit., p. 378

وأنــه لا راد لقضــائه، وأن أى مجمــع لا يمكــن أن يحوز الصفة المسكونية ألا برضـــائه، وأن مندوبيه فى أى مجمع عام، مهما صغرت مرتبتهم الكهنوتية، فوق كــل الأســاقفة، وبمقدورهم أن يصدروا ضد هؤلاء قرار العزل، وأن من حقه أن يعزل من الأساقفة من يشاء، ويولى من يشاء، دون الحاجة إلى رأى مجمع.

إلــى هــذا يــبدو الأمــر معقولا ما دام فى دائرة اختصاص الكنيسة، لكن المراســيم أفصحت عما راحت البابوية تسعى الآن إليه وتدعمه، فتضمنت أن البابا يمكــن أن يســمح للأمراء بتقبيل قدمه، ثم ازدادت النغمة علوا فأضافت أنه يمكن للــبابا عزل الأباطرة، وأن يحل الرعية من يمين الولاء لمن يعصاه وكانت خاتمة المطاف أن من حق البابا وحده استخدام الأشعرة الإمبراطورية[٥١].

هكــذا جاءت المراسيم البابوية، وكان من الطبيعى نتيجة لذلك أن يغدو حكم العــالم ثيوقراطــيا محضا، وأن تبتلع الكنيسة الدولة، وأن تصبح الأرض كلها ولا شــئ غير "مدينة الله" عند القديس أوغسطين، وقديما تصور شارلمان إمبراطوريته دولــة ثيوقراطــية، الإمــبراطور فيها يمثل الله على الأرض، والكنيسة فيها إحدى دوائر الدولة، شأن أباطرة القسطنطينية.

لقــد كــان مفهوم البابوية عن الحكومة العالمية اقطاعيا، الله فيها هو السيد الأعظم للجميع، وهذا الذى يحكم العالم من خلال المسيح، الذى يحكم هو الآخر عن طريق بطرس، الذى يمارس سلطانه بواسطة البابا. أما الأباطرة والملوك والأمراء فليسوا إلا أفصالا تابعين للبابا ويمتلكون أراضيهم إقطاعا منه[٥٢].

تجسدت هذه الأفكار بصورة واضحة فى ذهن البابا جريجورى السابع، الذى كان يصور نفسه – كما تدل على ذلك رسائله إلى الإمبراطور هنرى الرابع، على أنــه القناة التى من خلالها تنفذ إرادة بطرس أمير الرسل إلى بنى البشر، فكل كلمة تكتــب أو تقــال للبابا، فالذى يتلقاها هو بطرس نفسه، وإذا كان البابا يقرأ فقط أو

(51) Dictatus papae.

(52) C. M. H. Vol. V, p. 56. Thompson & Johnsonm, op. cit., p. 379.

يسمع ظاهر الكلمة المكتوبة أو المسموعة، فإن بطرس يطلع على خبئ نوايا كاتبها أو قائلهـا، وكـل ضرر يقع بالبابوية، حتى ولو كان حبيس الفكر، فإنه موجه إلى أمـير الرسل مباشرة، فالبابا هو الناطق بلسان القديس بطرس، ومنه يستمد سلطانه الفـائق بالـربط والحل فى السماء وعلى الأرض. ولقد خاطب جريجورى السابع إكليروسـه فى مجمع عقد سنة ١٠٨٠ بقوله: "ألا فليدرك العالم أجمع، أنه إذا كان بمقدوركـم الـربط والحل فى السماء، فإنكم على الأرض قادرون على أن تعطوا الملـك مـن تشاءون، وتنزعونه ممن تشاؤون، فى الإمبراطوريات والممالك، فى الإمـارات والدوقيات، فى الماركيات والكونتيات، بل إن شئتم فى كل ما يمتلكه بنو البشـر". وكتـب إلـى ملـك المجر عام ١٠٧٤ يقول : "نما إلى علمنا أنكم تلقيتم مملكـتكم كإقطـاع مـن الملك الألمانى، وهذا يعد انتهاكا لحقوق وكرامة القديس بطـرس، ويعد تصرفا لا يليق بملك فإن ما أردت أن تنعم برعاية القديس بطرس، ورضائنا، فعليك أن تصحح على الفور خطيئتك؛ فلعلك تعلم يقينا أنه لا أمل لك فى الخـلاص، ولـن تحظى بعهد طويل على العرش، ما لم تبادر إلى الإعتراف أنك تلقيت صولجان مملكتك من البابا وليس من الملك"(٥٣).

على خيوط هذه النظرية البطرسية(٥٤) باعتبار بطرس أمير الرسل، وصاحب الـربط والحـل فـى السـماء وعلى الأرض، نسجت البابوية خيوط سموها وعلو مكانـتها– فى النواحى الروحية والزمنية سواء. دعمتها بنظرية السيفين، الروحى والزمنى، وتفوق الأول على الثانى، وهى النظرية التى تعود فى جذورها إلى البابا جلازيوس الأول، فى القرن الخامس؛ على النحو الذى أسلفنا من قبل(٥٥).

---

(٥٣) GREG. VII, Letter to Solomon, King of Hungary, 1074 والعديد من رسائل جريجورى السـابع كلهـا تدور حول هذا المعنى، الذى ورد فى رسالته إلى ملك المجر، من ذلك مثلا رسائله إلى فرانسـلاف ودوق بوهيميا Bohemia (١٠٧٣) وسانشو Sancho ملك أرغونه Aragon (١٠٧٤) والأمير الروسى ديمتريوس Demetrius (١٠٧٥).

(٥٤) وللمزيد من التفاصيل عن هذه النظرية، راجع :

Ozment, The Age of Reform, pp. 138-140

(٥٥) راجع قبله وانظر أيضا :

Brackmann, The national state, p. 282

ولم تجد البابوية حرجا في أن تزيف بعض الأمور أيضا، وصولا إلى تدعيم موقفها، وكانت هبة قسطنطين[٥٦] Donatio Constantini التي زيفت في البلاط البابوي حوالي عام ٧٦٠ للميلاد، أوضح الأمثلة على الوسائل التي لجأت إليها البابوية في هذا السبيل[٥٧]. وإن كان البابا جريجوري السابع، والكاردينال همبرت Humbert قد رأوا في الهبه شيئا ينتقص من قيمة البابوية، إذ تبين أن الإمبراطور هو الذي وضع على رأس البابا، التاج الإمبراطوري وهذا بالطبع عكس ما كان يراه جريجوري السابع تماما، فبالنسبة له ولخلفائه، كانت الأولوية لهبة المسيح نفسه، وأن السيادة البابوية على الملوك والأباطرة، لم تأت من السلطة الإمبراطورية بل من الله وحده. ومع ذلك فقد استمرت النظرية لعدة قرون، ثم راحت في القرن الحادي عشر تتوارى بالحجاب[٥٨].

اعتمادا على هذا كله، راح الباباوات يروجون لسلطانهم، ويتصرفون باعتبارهم كهنة وقضاة، ويكتبون إلى الحكام، كما لو كانوا يكتبون إلى من هم أدنى شأنا منهم مرتبة. ويتلمس ذلك من الصيغة المفضلة لدى الباباوات، لتهنئة ملك ألماني جديد، فقد كانت تقول: "إن الأمم لتنتشي بمحادثتها الغامرة من امتياز وإبداعه، ولا شئ يسعد الأبويين أكثر من أن يروا حكمة البنين وأمانتهم"[٥٩]. وتوجت كلمات الكاردينال همبرت، راهب اللورين الكلوني، وعضد جريجوري السابع، جبهة نظرية السمو البابوي، حين قال: "مثل البابوية والإمبراطورية كمثل الروح والجسد، كالسماء بالنسبة للأرض".

---

(٥٦) انظر نص الهبة :

Historical Documents of the Middle Ages, pp. 319-329

(٥٧) عن الآراء التي ناقشت زيف الهبة راجع :

Barry, The papal Monarch., p.27.

وأيضا Ullmann The Growth of papal Government, pp. 74-86

وكذلك Ozment, op. Cit., p. 140

(58) Southern, Western Society and the church in the Middle Ages, p. 101.

وأيضا : Bryce. Holy Roman Empire, p. 157

(59) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 322-323.

ولم يكن من السهل على ملوك أوروبا عامة، وألمانيا بصفة خاصة، بعد أن حملوا لقب "أباطرة الرومان" وارتبطت مصالحهم بإيطاليا والبابوية ارتباطا وثيقا، أن يقبلوا بسهولة هذا التعالي. ومن ثم كان ملوك ألمانيا، هم أكثر الحكام تأثرا بنظرية السمو البابوي، وأكثرهم معاناة من ناحية التطبيق.

ولقد قدمنا أن الإمبراطورية كانت هي الأخرى راغبة في الإصلاح الكنسي، وإن كان من وجهة نظرها، أي أن يتم اختيار البابوات المصلحين على أيدي الأباطرة. وهنا تكمن نقطة الخلاف الرئيسية من يعين من؟! ومن يعزل صاحبه؟!

وكان لابد أن ينشط فقهاء القانون، المؤيدون للحق الإمبراطوري بصورة لا تقل عما ذهب إليه الحزب البابوي. ومن الطريف ان الحزب الإمبراطوري أقام دعواه على نفس القواعد – تقريبا – التي بنت عليها البابوية حججها، وفند بعض دعواها، وأضاف إليها أسانيد جوهرية؛ فالفصل بين ما لقيصر وما لله، يعني سلطة زمنية مستقلة، لها حقوقها الكاملة على رعايا بما فيهم البابا، باعتباره مواطنا رومانيا. والنظرية البطرسية القائمة على تفويض السماء لبطرس في الربط والحل على الأرض، لا تتعدى في مفهوم السلطة الزمنية – المسائل الروحية فقط ونظرية السيفين تعطي للإمبراطور نفس الحق الذي تعطيه للبابا، ويقدم الحزب الإمبراطوري دليلا من الكتاب المقدس على ذلك، ويتساءل – ألم يقل بولس في رسالته إلى أهل روما: "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة، لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله حتى أن من يقاوم السلطان، يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة، فإن الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل للشريرة ... لأنه خادم الله للصلاح ... لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل أيضا بسبب الضمير، فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا.. فاعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية" (١٣/١–٧) ومن ثم يضع المؤيدون للحق الإمبراطوري في السيادة علامة استفهام كبيرة.. إذا كان هذا قول بولس، فبأي حق تدعى البابوية السيادة؟!.

أمـــا عن "هبة قسطنطين" فبغض النظر عن ثبوت زيفها – كما أشرنا – فإن الواقع والمنطق لم يكن يقرها حتى فى حينها. فالرجل أمضى ثمانــــية عشر عاما (٣٠٦-٣٢٣) يناضـــل من أجل توحيد الإمبراطورية، والفكر السياسى الرومانى لم يكـن يقــبل بالتنازل طواعية أو غصبا عن جزء من الإمبراطورية. وحتى عندما ضـــاع النصف الغربى من الإمبراطورية حقيقة على يد الجرمان، ظل الرومان – علـــى الأقل – من الناحية النظرية، يعتبرون الإمبراطورية الواحدة قائمة. وإلا فبم تفسر جهود جوستنيان وحروبه الاستردادية فى القرن السادس، وسياسة الأيزوريين فـــى القرن الثامن، واتجاهات المقدونيين فى القرن العاشر، وطموحات آل كومنين، خاصـــة مـــانويل، فـــى القـــرن الثانى عشر؟ وهؤلاء هم أنصار جمهورية أرنولد البريشى Arnold of Brescia الذين أعلنوا الثورة فى روما فى القرن الثانى عشر، وتحـــدوا ســـلطان البابا، مما دفعه إلى الاستنجاد بالملك الألمانى فردريك بربـاروسا Frederick Barbarossa (١١٥٢-١١٩٠)، يعلـــنون "هـــذه الأســـطورة الـــزائفة والمضللة، والتى تدعى أن قسطنطين قد أعطى الإمبراطورية إلى سيلفستر، قد ساد زيفها فى روما، حتى ألجم أفواه رجل الشارع، والنسوة، وصفوة المثقفين.

ولم يجرؤ البابا وكرادلته على الظهور فى المدينة خشية الفضيحة"[٦٠]. ورغم أن البابوية قد غضت الطرف عن هذه "الهبة" المزعومة، منذ القرن الحادى عشر، إلا أن كـــتاب الإمـــبراطورية ومؤيديها، راحوا يناقشونها إلى وقت متأخر، بهدف التشـــهير بالـــبابوية، لتزييفها مثل هذه الأسانيد؛ فقد لاحظ أكورسيوس Accursius أحد رجال القانون فى القرن الثالث عشر، إنه إذا كان قد حدث فعلا، فإنه يعد أمرا باطلا، لأن الإمبراطور قد أعطى شيئا لا يملكه. لقد كان حاكما للإمبراطورية، ولم يكن مالكا لها[٦١].

ومـــا لـــنا نذهـــب بعيدا، والملك الألمانى هنرى الرابع يحسم القضية بعبارة واضحة جاءت فى رسالة إلى البابا جريجورى السابع، عام ١٠٧٦ يقول فيها: "من

(60) Mundy, op. cit. P.321
(61) Id.

هنرى الملك، ليس عن طريق الاغتصاب، بل برسامة مقدسة بيد الله، إلى هليدبراند الراهب الزائف، وليس البابا .. أخطأت إذ تصورت أن تواضعنا يعد ضعفا، وتجاسرت على مهاجمة السلطة الملكية والإمبراطورية التى تسلمناها من الله .. وهددت بتجريدنا منها، كما لو كنا قد تسلمناها منك، وكما لو كانت الإمبراطورية والمملكة معقودة بإرادتك وليس بإرادة الله .. ألا فلتعلم .. أن الرب يسوع المسيح قد دعانا لحكم الإمبراطورية، لكنه لم يدعك أبدا لتتسلط على الكنيسة"[٦٢].

هذان خصمان اختصموا فى مصدر سلطانهم، والتقوا على طرفى نقيض، وكان لابد أن يبدأ النزال.

فى عام ١٠٥٩ كان هنرى الرابع ملك ألمانيا، يعانى غض العمر وسن القصور، ويقاسى ويلات وصاية فرضها عليه الداهية أنو Anno رئيس أساقفة كولونى Cologne طمعا فى دخل أراضى التاج، بعد أن اختطفه وأكليروسه من بين أحضان أمه الوصية الشرعية. فى هذا العام، وبعد مضى ثلاث سنوات فقط على وفاة هنرى الثالث، الذى مارس – بهدف الإصلاح – مهمة عزل ثلاثة من البابوات وتعيين خمسة آخرين. تم عقد مجمع فى روما تحت رعاية البابا نيقولا الثانى Nicholas II (١٠٥٩-١٠٦١)، كان القرار الرئيسى الذى صدر عنه، هو أن يتم اختيار البابا عن طريق كرادلة روما السبعة، دون تدخل من السلطة العلمانية، ممثلة فى الإمبراطور[٦٣]. ويتم تطبيق ذلك فعلا عند اختيار البابا اسكندر الثانى Alexander (١٠٦١-١٠٧٣). وكان هذا يعنى إغفال تعهدات البابوية من قبل فى هذا السبيل، والتى صدرت عن البابا ليو الثالث إلى شارلمان، والبابا ليو الثامن إلى أوتو الأول، والمجمع المنعقد فى روما عام ٨٩٨[٦٤]. وكان ذلك أيضا يمثل أول تطبيق عملى لنظرية السمو البابوى، أحرزت به البابوية نقطة فى حلبة

---

(62) HENRY IV, The deposition of Gregory VII, 1076
(63) NICHOLAS II, The papal election decree, 1059

(٦٤) راجع قبله.

الصـــراع الدامى الآتى، وعرفت البابوية كيف تستغل الظروف السياسية المهيأة لها تماما آنذاك.

فعلى الساحة الدولية، كانت الإمبراطورية البيزنطية تعانى أوجاع الانحلال، فى الفترة التى أعقبت وفاة باسيل الثانى Basil II سنة ١٠٢٥ فالسلاجقة يجرحون كـبرياءها فـى آسـيا الصـغرى، والنورمان يوارون التراب جسدها المسجى فى إيطالـيا. والملكية الفرنسية على عرشها ملك هو فيليب الأول، سرى تهتكه مسرى الفضـيحة، يمارس السيمونية علنا، ويستجلب على نفسه بكل الرضى، سخط الناس والـبابويه. وفى إنجلترا، كان جدار آخر ملوك السكسون يريد أن ينقض، فلما أقام وليم النورمانى الفاتح، بديلا، كان عليه حتما مقضيا أن يشغل نفسه ويصرف جهده أيضـا لبناء دولة جديدة. أما ألمانيا، بيت القصيد، فحالها كما علمنا، لا يخفى على أحد، وملكها لا حول له ولا قوة إلا بالاكليروس!!

والبابوية تمكن لنفسها فى الأرض، فتعقد المحالفات السياسية هنا وهناك، بعد أن أصـبحت هى الأخرى ضمن عداد القوى السياسية فى أوروبا، سعيا لأن تعلوها جميعا. فها هى تمد يد الصداقة للكونتيسة ماتيلدا Matilda دوقة تسكانيا Tuscany، وتوقـع معـاهدة مع زعماء النورمان جنوبى إيطاليا وصقلية، التزم فيها هؤلاء بيميـن الولاء للبابوية باعتبارهم أفصالا إقطاعيين، فغدت الأراضى التى يسيطرون علـيها إقطاعا بابويا[٦٥]. هذه النقطة الأخيرة بالذات، عدت خطوة أوسع من البابوية نحـو السـيادة الزمنـية، وفى الوقت ذاته إهانة بالغة وجهت إلى الملكية الألمانية، وذلـك لأن الـبابوية نقلت إدعاءات الأباطرة الألمان فى جنوبى إيطاليا، باعتبارها جزءا من الإمبراطورية، إلى سادة جدد هم النورمان، وإن كانت حقيقة الأمر تعنى السيادة البابوية نفسها باعتبار البابا الآن (١٠٥٩) قد غدا سيدا إقطاعيا!

(65) R. GUISCARD, The oaths of R. Guiscard to Nicholas II. 1059

بهذه التحالفات السياسية والعسكرية، وبقوة الارتكاز إلى النظرية البطرسية، والحجج والأسانيد التى سقناها، أعلنت البابوية صراحة تحديها للسلطة الزمنية، ممثلة فى ملوك أوروبا، فعقد جريجورى السابع عام ١٠٧٤، ١٠٧٥ عدداً من المجامع[٦٦]، أعلن فيها الحرب على السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى، وأرسل مندوبيه ورجاله إلى كل أنحاء أوروبا، ليمارسوا سياسة التطهر الجديدة التى أعلنها جريجورى السابع، أو "الشيطان المقدس" Holy Satan كما وصفه الراهب بطرس الدميانى Peter Damian[٦٧]. وكتب إلى هنرى الرابع، الملك الألمانى، رسالة فى ديسمبر ١٠٧٥، تنبه إلى ضرورة مراعاة ما جاء بقرارات المجامع التى عقدها البابا، خاصة فيما يتعلق بالتقليد العلمانى. والتى قوبلت بعاصفة هوجاء من الاحتجاج، بين الاكليروس الألمانى، الذى كان قد بلغ حدا من الثراء والنفوذ، خشى معه من قرارات الإصلاح البابوية، وهذا ما يفسر لنا وقوف نفر ليس بالقليل من رجال الدين فى ألمانيا إلى جانب السلطة الزمنية ضد البابوية فى أول الأمر. وكان ما أثار غيظ هنرى الرابع في هذه الرسالة، ما طلبه إليه جريجورى من عزل خمسة من المستشارين كان جريجورى السابع قد أصدر قرارا بحرمانهم من رحمة الكنيسة. ومن الطبيعى أن يرفض الملك الألمانى ما عده تدخلا سافرا من البابا فى الشئون الداخلية لدولته، وتطاولا على حقوق السلطة الزمنية. ولما كان هنرى هو الآخر، يعتمد على وجهة نظر الأباطرة فى السيادة، ويعتقد بخطئ أيمعتقد رابح يمارس حقيه فى تعيين الأساقفة فى الأسقفيات الشاغرة، على أن ما أثار حنق جريجورى السابع، إقدام هنرى على تقليد أساقفة ثلاثة لأسقفيات ميلانو وفيرمو Fermo وسبوليتو Spolito، والأخيرتان تابعتان مباشرة لسلطان كنيسة روما.

---

(66) Thatcher & McNeal, A source book for Mediaeval History, pp. 134-135.

(٦٧) Thompson & Johnson, op. cit., p. 377، ولمزيد من التفاصيل عن الراهب بطرس الدميانى، انظر: كانتور: التاريخ الوسيط القسم الثانى ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم، ص ص ٤١٨-٤٢٢.

ولمـــا أبلـــغ مندوبو البابا، الملك، الجانب الشفهى من الرسالة، والذى يعنى الـــتهديد بوضـــع هـــنرى تحـــت طائلة الحرمان الكنسى، فى حالة رفضه الامتثال لمطالب البابا، أقدم هنرى بكل الغضب على دعوة الاكليروس الألمانى ومستشاريه، إلـــى عقـــد مجمـــع فى الرابع والعشرين من يناير سنة ١٠٧٦، فى مدينة وورمز Worms، انـــتهى إلى إصدار قرار بعزل جريجورى السابع من منصبه، وتضمنت ذلـــك رســـالة هنرى الرابع إلى البابا، مخاطبا إياه فيها باسمه الرهبانى "هليدبراند"، والتى أشرنا إلى طرف منها، وجاء فيها.

".. خـــبرنى .. مـــن من الناس لم تعقد لسانه لدهشة ويتميز من الغيظ، وهو يـــراك تدعـــى الانفراد بالسلطة؟! .. إن من يعرف الكتب المقدسة يدرك يقينا مدى جـــنون هذا الإدعاء وحيث إن كنيسة الله، بسبب فعالك، قد بات يتهددها الخطر من جـــراء عجرفـــتك، .. فقـــد قررنا أن نخرج عن صمتنا الذى التزمناه، وأن نكشف للجميع عن الأسباب التى تجعلك غير أهل للبابوية"[٦٨].

ويمضـــى هـــنرى الرابع فى رسالته مبينا الأسباب التى دفعت المجمع إلى اتخـــاذ قـــراره، إلى أن يصل فى النهاية إلى قوله: ".. لكل هذا صدر قرار بإدانتك علـــى يد أساقفتنا وبموافقتنا، فلتتنح إذن عن الكرسى الرسولى الذى اغتصبته، لتدع غيرك يعتلى عرش القديس بطرس، فلن يمارس العنف تحت رداء الدين، بل سوف يعلم العقيدة الحقة للقديس بطرس. أنا هنرى .. الملك بإرادة الرب أقول لك، ومعى كل أساقفتى: تنح .. تنح .. ولتكن ملعونا على مر الدهور"[٦٩].

وتلقـــف جـــريجورى السابع الكرة بدوره، وكتب رسالة وجهها إلى القديس بطـــرس[٧٠]، أبلغه فيها أنه بناءً على السلطة المخولة له منه، فقد حرم هنرى الرابع مـــن رحمـــة الكنيســـة، ووضـــعه تحت قيود اللعنة، وجرده من مملكته فى ألمانيا

---

(68) HENRY IV, The deposition of Gregory VII. 1076

(٦٩) نفس المرجع السابق.

(٧٠) جـــاء فى المراسيم البابوية، "إذا ما تم رسم بابا على نحو شرعى، فإنه يغدو دون ريب قديسا .. ببركة القديس بطرس. ومن هذا المنطلق وجه البابا رسالته هذه إلى القديس بطرس انظر Dictatus papae وراجع أيضا Southfern, WesternnSociety, p. 1045

وسيادته على إيطاليا، وأحل رعاياه من إيمان الولاء التى قدموها أو سوف يقدمونها له، وحرم على أى إنسان أن يقوم على خدمته كملك(٧١).

هكـــذا خلـــع كل من الرجلين صاحبه، وبقيت مرحلة التنفيذ، وتساءل الناس ساعتها، من تراه أقوى باعا وأطول ذراعا؟!.

وبـــنظرة فاحصــــة علــــى الساحة الدولية كما عرضنا لها منذ قليل كانت الـــبابوية هى الأقوى، لكن العامل الحاسم فى صالحها جاء من داخل ألمانيا نفسها؛ فالـــنظام السياسى الألمانى القائم على الملكية الانتخابية(٧٢)، والسمات البارزة لنظام حكـــم إقطـــاعى بمفهـــوم العصور الوسطى، جعل الأمراء الألمان أصحاب الحول والطـــول فـــى شـــئون ألمانيا، ولما كانوا يحملون كل العداء لمليكهم، فقد انتهزوا الفرصـــة وأعلـــنوا عزلـــه، إلى أن يحصل على الغفران. وليس هنا مجال الحديث تفصـــيلا عـــن الصراع بين الملك والأمراء(٧٣)، لكن الذى يعنينا أنه فى سبيل هذا الغفران، سعى هنرى الرابع متجردا من أشعرته الملكية، متوجها تلقاء روما. ولما كـــان الـــبابا قـــد اتخذ سبيله هو الآخر، موليا وجهه شطر ألمانيا، بناء على دعوة الأمـــراء الألمـــان، لـــيقف قاضيا بينهم وبين مليكهم، فإنه قد آوى إلى تسكانيا عند حليفته ماتيلدا، حالة سماعه بنبأ خروج هنرى فى طريقه إلى روما، مخافة أن يكون الملـــك قد أعد كمينا يتصيد به البابا واحتمى البابا بقلعة كانوسا Canossa فى أعلى جـــبال تســـكانيا. وتقطعت أنفاس هنرى، وتصبب عرقه كأنما يصعد السماء، رغم الشـــتاء القـــارص وهو يحاول وزوجته المخلصة، الوصول إلى القلعة وهناك على أبوابهـــا وقـــف ثلاث ليال سويا، يطرق باب رحمة البابا، الذى كان قلبه كحجارة جبال تسكانيا أو أشد قسوة!! حتى إذا سمح له بالدخول، خر الملك على قدمى البابا

---

(٧١) راجع قبله.

(٧٢) راجع فى هذا المجال الفصل الرابع.

(٧٣) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع : Z. Brook, A hsitory of Europe, pp. 177-202

سـجدا وبكـيا، يغسـلها بدمـوع التوبة والندامة! وتعطف خليفة بطرس، وزعيم المسيحية الكاثوليكية، وأعلن أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، دون ما تأخر! [٧٤].

هكـذا تسـنمت البابوية قمة الجبل .. وتدنت الإمبراطورية ..وذهب إذلال كانوسـا فـى الـتاريخ مـثلا[٧٥]. وكانت سابقة لم تتدخل عنه البابوية. ولا نسيتها الإمـبراطورية، وراحت البابوية بعدها تدس أنفها وأصابعها كلها فى شئون ألمانيا، بـل وأوروبـا كلها إلى حد بعيد .. وكيف لا وقد جاءتها أوروبا طائعة، تلبى نداء الخروج لحمل الصليب، الذى أذاعه البابا الثانى Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩) مرددة جموعها إنها إرادة الله!!

وأملت البابوية فى هنرى الخامس (١١٠٥-١١٢٥)، الذى سعت لرفعه إلى عرش ألمانيا، خيرا كى يصبح فى يدها أداة طيعة، لكن هنرى الخامس لم يكن أقل مـن أبيه وأسلافه الفرنكونيين والسكسون، حرصا على حقوق السيادة الملكية، فيما يـتعلق بمشكلة التقليد العلمانى، التى دار من حولها الصراع على النحو الذى رأينا، ومـن ثـم دارت المفاوضات بينه وبين البابا باسكال الثانى Paschal II (١٠٩٩-١١١٨)، ولكـنها لـم تؤد إلى نتيجة حاسمة[٧٦]، غير أن هذه المفاوضات استمرت حـتى عهـد البابا كالكستس الثانى Calixtus II (١١١٩-١١٢٤) ليتم الاتفاق بين الطرفيـن فى معاهدة وورمز Worms سنة ١١٢٢[٧٧] والتى بمقتضاها تم التوصل إلـى حـل وسط يرضى الطرفين مؤقتا، وقبل كل منهما اقتسام الرغيف. على أن الحقـيقة الـتى لا يمكن إنكارها، أن البابوية خرجت من هذا الصراع قوية الجانب مـرهوبة السـلطان، وعلـى الرغم من أنه لا يمكن القول إنها قد نجحت تماما فى فـرض بـرنامجها الإصلاحى، فيما يتعلق بالسيمونية وزواج رجال الدين، إلا أنها

(٧٤) راجع تفاصيل "إذلال كانوسا" فى : GREG. VII, Letter to the German princes 1077

(٧٥) اتخـذت الأجـيال التالية فى ألمانيا، من حادثة كانوسا رمزا لخضوع الدولة للكنيسة، وأوضح الأمثلة علـى ذلك ما قاله المستشار الألمانى بسمارك فى القرن التاسع عشر، فى معرض نزاعه مع الكنيسة الكاثوليكية، "أننا لن نذهب إلى كانوسا".

(76) PASCHAL. II, The first and second privileges to Henry V, 1111.

(77) Concordat of Worms, 1122.

خطـت فـي ذلك السبيل خطوات بعيدة، على حين نجدها أنها قد أفلحت نسبيا فى التوصـل إلـى حل لمشكلة التقليد العلمانى. وإذا كانت البابوية لم تستطع أن تحرر الكنيسـة من سلطان الدولة، فإنها من ناحية أخرى قد حققت سيادتها على الكنيسة. علـى أنه لا يزال هناك أمامها طريق طويل وشاق من أجل تحقيق سموها بصورة فعالة، بعد أن أعلنت الآن بكل الإصرار، ادعاءاتها بالسيادة الزمنية(٧٨).

ومـن هـنا كانت اتفاقية وورمز تمثل نهاية مرحلة وبداية طريق .. مرحلة اصـطرعت فـيها الـبابوية والسلطة الزمنية حول مشكلة التقليد العلمانى، وحققت خلالها ليس بالقليل، بعد إذلالها للإمبراطورية فى كانوسا. حتى إذا كانت الاتفاقية، تحـول الصـراع وجهـة أبعـد، ليدور حول السيادة العالمية. لمن تكون؟ للبابا أم للإمبراطور؟

ولـم يكـن ملـوك ألمانيا، الأباطرة، هم الآخرون، خاصة على زمن أسرة الهوهنشـتاوفن Hihenstaufen ، أقـل طموحا إلى هذه السيادة من البابوات، ولم يذهـب من مخيلتهم أبدا صورة إذلال كانوسا، ولا غاب عن ذهنهم – رغم ما فى هـذا الـزعم من مغالطة تاريخية – أنهم خلفاء الأباطرة الرومان، وما ارتبط بهذا الادعـاء مـن مفهـوم السـيادة العالمية، والسيطرة على البحر المتوسط، البحيرة الرومانـية قديمـا جـدا .. وغـذى هـذا المفهوم لديهم أساتذة وفقهاء فى جامعة بولونـيا(٧٩). كانـت خطـة الأباطـرة لتحقيق ذلك محاولة إخضاع القسطنطينية لسـيادتهم، والسـيادة على إيطاليا وصقلية. وهذه الأخيرة بالذات كانت تعنى العداء لملوك النورمان، وازدياد حمى الصراع مع البابوية، باعتبار البابا السيد الإقطاعى لهذه المنطقة، منذ توقيع معاهدة ١٠٥٩، وتجديدها بعد ذلك فى عام ١١٥٦.

كانـت الـنقطة الجوهـرية تـدور حـول مـا قر فى أذهان أباطرة أسرة الهوهنشـتاوفن بصـفة خاصة، من أنهم الورثة الحقيقيون للقياصرة الرومان، وما وعـته – أو بتعبـير أدق – مـا أرادته البابوية ل "مهمة" الإمبراطور، الذى منحه

---

(78) Thompson & Johnson, op. cit., p. 390
(79) Tout, The Empire and the Papacy, p. 247

البابا التاج منذ ميلاد القرن التاسع، والتى لا تزيد عن كونه مجرد قائد، عمله الأساسى أن يستل سيفه من غمده ليدفع به عن البابوية[٨٠] غير أن هذا المفهوم كان يتعارض تماما مع ما يراه وما يؤمن به ملوك الهوهنشتاوفن، خاصة فردريك بربار وسا، الذى لم تعد الإمبراطورية بالنسبة له، هى الإمبراطورية المسيحية التى ولدت بيدى خليفة القديس بطرس عام ٨٠٠، تدين بالولاء الكامل للكنيسة البطرسية، بل غدت الإمبراطورية فى مفهومه، بكل ما تعنيه الكلمة، هى الإمبراطورية الرومانية، إمبراطورية أوغسطس. من هنا استخدم حقه فى حكم العالم، واستمد أقدميتها من وجودها قبل المسيح. فكيف يمكن إذن أن تكون متوافقة مع البابوية؟! إنها أقدم منها، مستقلة عنها .. الإمبراطورية ليست داخل الكنيسة، بل هذه داخل تلك، والبابا ليس إلا أحد رعايا الإمبراطور.

وهكذا ما كان شيئا غامضا فى خيال أوتو الثالث (٩٨٣-١٠٠٢) أصبح نظرية محددة المعالم فى فكر فردريك بربار وسا[٨١]. لقد راح يخاطب يوما نبلاء الرومان بقوله : "فلنقلب أذهاننا جيدا فى أعمال أباطرة هذا الزمان، واضعين فى اعتبارنا بكل العناية، ما أقدم عليه أسلافنا المقدسون، شارل وأوتو، اللذان انتزعا مدينتكم والأراضى الإيطالية من يد اليونان (البيزنطيين)، واللومبارد، وجعلوها ضمن حدود المملكة الفرنجية، ليس هبة من يد أجنبى، بل عنوة وكسبا بانتصاراتهما.. أنا إذن الملك الشرعى[٨٢]".

بل لقد ذهب الأمر بفردريك أبعد من ذلك، عندما آمن أنه ليس فقط خليفة شارلمان وأوتو، بل قسطنطين وثيودسيوس وجوستنيان. وعندما أصدر قرار تنظيم جامعة بولونيا، أصر على أن يوضع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوستنيان[٨٣]. ووجد ضالته فى القانون الرومانى، باعتباره إمبراطورا رومانيا

---

(٨٠) ناقش W. Ullmann هذه الرسالة باستفاضة وبتحليل رائع فى كتاب :

A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 185-188

(81) Pirenne, A history of Europe, p. 275

(82) Barraclough, The origins of Modern Germany, pp. 170-171 n. 1.

(83) Davis, Medieval Europe., p.322; Bryce, op. cit. p. 169

ووجد فى الديجستا Digesta الإجابة الفلسفية التى ترد على مراسيم السيادة البابوية، فهى تعطى القانون السيادة الكاملة، وليس للكهانة أو الروح، جاء فيها: "القانون هو الملك لكل شئ - لما هو سماوى ولما هو إنسانى .. إنه يجب أن يكون الضابط، والحاكم، والقائد للخير والشر" وتاه عجبا بمركزه الإمبراطورى، بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة ميلانو، أن إرادته هى القانون(٨٤). بكل هذا لم يكن غريبا أن يوصف فردريك برباروسا بأنه هليدبراند الإمبراطورية(٨٥).

ومن واقع إيمانه بأنه الإمبراطور الرومانى حقا، دون أن يلقى بالا لأباطرة الرومان الشرعيين فى القسطنطينية، كتب إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل (١١٤٣-١١٨٠) على أثر هزيمة الأخير أمام سلطان قونية السلجوقى عام ١١٧٦، رسالة تقطر ازدراء وسخرية، تتضمن خضوع ملك اليونان Rex Grecorum للإمبراطور الرومانى، وانتهز الفرصة ليعلن له أنه وريث الأباطرة الرومان، وأن ذلك يتضمن السيادة على "المملكة اليونانية(٨٦)" Regnum Greciae ولما جاء مشاركا فى الحملة الصليبية الثالثة، ولم يلقه الإمبراطور البيزنطى قبولا حسنا، بعث إلى ابنه هنرى السادس رسالة يأمره فيها بتجهيز حملة ضخمة جديدة، هدفها القسطنطينية.

أما بالنسبة لإيطاليا، فقد اقتضاه الأمر القدوم إليها فى ست حملات عسكرية(٨٧)، استنفذت جهود ألمانيا وطاقاتها وخزانتها وأضعفت بصفة رئيسية سلطة التاج فيها أمام ازدياد نفوذ أمراء الإقطاع(٨٨) فى الوقت الذى تلاحقت فيه انتصارات البابوية واحدا فى أثر الآخر؛ ففى عام ١١٥٥ كان عليه أن يأخذ بعنان فرس البابا حتى يمنحه هذا قبلة السلام ويعلنه إمبراطورا، ورغم امتعاضه فقد جرت المراسيم بذلك باعتباره مسألة تقليدية(٨٩). وفى عام ١١٥٦ وجهت إليه

(84) Davis, op. cit., p.325

(85) Tout., op.cit., p. 247

(٨٦) هسى، العالم البيزنطى، ١٩٦

(٨٧) للوقوف على تفاصيل هذه الحملات، راجع :

Strayer & Munro, The Middle Ages, pp. 219-225

(٨٨) انظر الفصل الثالث.

(89) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 189

البابوية صفعة قوية عندما وقعت معاهدة أمالفى Amalfi مع النورمان في صقلية، منحـتهم بمقتضاها الحقوق التى رفضت الاعتراف بها لملوك ألمانيا، أعنى مسألة التقلـيد العلمانى، فى مقابل أن يتسلم ملوك النورمان مملكتهم إقطاعا من البابوية(٩٠) وكـان هـذا يعـنى وأد اتفاقية كونستانس(٩١) Constance التى وقعت بين البابوية والإمـبراطورية سـنة ١١٥٣، والـتى كانـت موجهـة أصلا ضد الإمبراطور البـيزنطى، وتقضـى بعدم التنازل عن أى أرض فى إيطاليا، وطرده منها إذا ما حاول القدوم إليها(٩٢).

وفـى العام التالى ١١٥٧ وقف المندوب البابوى فى بيزانسون Besancon يقـرأ للإمـبراطور رسالة البابا(٩٣)، والتى ورد ضمنها كلمة Beneficium والتى نقلـت إلـى فـردريك بمـا يعـنى أنه تلقى مملكته "إقطاعا" من البابا فلما احتج الحضـور على ذلك، وكاد المندوب البابوى يفقد حياته، لولا أن تدخل فردريك نفسه فـى الوقـت المناسـب، راح ممـثل الـبابا هذا يتساءل في جرأة .. ممن يتسلم الإمـبراطور إذن إمبراطوريـته، إذا لـم يتسـلمها مـن البابا؟ وجاء رد فردريك برباروسـا علـى المندوب البابوى فى رسالة شديدة اللهجة(٩٤)، بعث بها إلى البابا هادريـان الرابع Adrian IV (١١٤٥-١١٥٩) جاء فيها: "إن الله، الذى منه يستمد كـل سلطان فى السماء وعلى الأرض، قد عهد إلينا بحكم المملكة، وللإمبراطورية اصـطفانا، أن سلام الكنيسة تحفظه الجيوش الإمبراطورية. وإنه لمن المؤسف أن نضـطر إلى أن نشكو لرأس الكنيسة، طالبين أن يبقى على روح الخيرية والمحبة والسـلام؛ ذلـك أن أعمـال البابا تهدد بإظهار الشرور والشقاق الذى سوف يفسد الكنيسة كلها، ويدمر وحدتها، ويعود إلى الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ما لم يـتدخل الله .. لقـد تملكنا هذه المملكة والإمبراطورية من الله، عن طريق اختيار

(90) ADRIAN IV & WILLIAM of Sicily, Treaty of Amalfi, 1156

(91) FRED. BARB., Treaty of Constance., 1153

(92) C.M.H. Vol. V, p. 396

(93) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 157

(94) FRED. BARB., Manifesto of Frederick I, 1157

الأمــراء، فالله وحده هو الذى من خلال آلام ابنه، وضع العالم تحت رعاية سيفين، وفــوق هــذا فــإن بطرس الرسول قال: "أكرموا الجميع، أحبوا الإخوة، خافوا الله أكرموا الملك" (رسالة بطرس الأولى ١٧/٢) - ومن ثم فإن من يقول، بأننا قد تلقينا التاج الإمبراطورى إقطاعا من البابا، يتحدى القانون الإلهى، ويدعى على بطرس، ولا يعدو أن يكون كذابا".

وكانــت رسالة هادريان قد أدت إلى توحيد أمراء ألمانيا خلف ملكهم، وجاء ذلــك نتيجة طبيعية للسياسة المرنة التى اتبعها فردريك فى بداية عهده، من التقرب إلــى الأمــراء، والتودد إلى خصوم الهوهنشتاوفن التقليديين، أعنى عائلة الولفيين. ومــن ثم لم يعد الأمر كما كان عليه من قبل زمن هنرى الرابع، الذى أثار حفيظة الأمــراء ضــده بسياسته العنيفة تجاههم بعد بلوغه سن الرشد مباشرة، خاصة فيما يــتعلق بمحاولاته لاسترداد أراضى التاج، التى كان الأمراء أنفسهم قد اغتصبوها وهــو تحت الوصاية. لذلك أدرك هادريان الرابع أن سهمه جاء طائشا، وأن الوقت لــم يكن ملائما، بالإضافة إلى أن شخصية البابا نفسه، لم تكن لها جوانب شخصية ســلفه جــريجورى الســابع ولا خلفه إسكندر الثالث، الذى لم يكن سوى المندوب رولان Roland إلــى الإمبراطور فى بيزانسون. لهذا كتب هادريان الرابع رسالة ثانية إلى الإمبراطور، تعد فى حد ذاتها اعتذارا رقيقا عما جاء فى رسالته الأولى، وقــدم له تفســيرا حــول مــا يعنيه فى رسالته الأولى، قال : "علمنا أنك غضبت لاستخدام كلمة beneficium، غير أننا استخدمنا هذه الكلمة فى معنى يختلف تماما عــن مفهومهــا السائد، بل بما تعنيه فى مفهومها الأساسى، إذ تتكون من مقطعين، bonum & factum بمعــنى، شئ طيب أو جميل أو معروف (bonum factum) ولــم نســتخدمها على أنها تعنى feudum (fief) إقطاعا. فإذا ما قلنا beneficium مــن الله لا تعــنى إقطاعا، بل نعنى عطفا من الله. ولعلك تعلم يقينا أن وضع التاج على رأسك، يجب أن ينظر إليه باعتباره "عملا طيبا"[٩٥].

---

(95) ADRIAN IV, Letter to Frederick I, 1158

ومـــرت الأزمة بسلام .. أو هكذا بدا. لكن فردريك خرج منها باستنتاج له أهميــته، إذ أيقــن أنـــه مـــا دام قد تلقى الإمبراطورية من الله، فلابد أن تكون لها قداســتها، ومـــن هـــنا خلع عليها لقب "الإمبراطورية الرومانية المقدسة Sacrum imperium في مقابل الكنيسة المقدسة، Sancta ecclesia (٩٦). ولا شك أن هذا قد لقـــى الامتعاض من جانب البابا الجديد إسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١) الذى تمثل علـــى الفور فى استنتاج عهده بإصدار قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور عام ١١٥٩، وأحـــل رعيته من يمين الولاء له، وجدد ذلك ثانية سنة ١١٦٣ من مهربه فـــى فرنسا. ولم يكن غريبا أن تلقى سياسة الهوهنشتاوفن الرفض من جانب ملوك أوروبـــا، وكلمـــا ازداد ضـــغط وعداء الأباطرة للبابا، كلما وجد هذا عند الملوك الآخريـــن عونا له(٩٧)؛ ذلك أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هى أوروبا القرن الحـــادى عشر، فالبابوية ازداد سلطانها بسبب زعامتها للعالم المسيحى الغربى فى الحـــروب الصليبية، وملوك إنجلترا الأنجويين، وفرنسا. والأخيرون بالذات لم يكن مـــن الســـهل عليهم أن يقبلوا الأفكار الهوهنشتاوفنية عن الإمبراطورية "الرومانية" ومـــا يستتبعها من فكرة السيادة العالمية. هذا بالإضافة إلى أن الأحداث الداخلية فى ألمانـــيا، وازديـــاد نفوذ أمراء الإقطاع، وتحالفهم مع البابوية فى كثير من الأحيان ضـــد الســـلطة الشرعية فى ألمانيا، كل هذا جعل الصراع بين البابا والإمبراطور يسير فى صالح الأول.

وقـــد راحـــت البابوية تضع العراقيل فى وجه الإمبراطور الألمانى، وتثير ضـــده مـــدن العصبة اللومباردية فى شمال إيطاليا، وتحرك فى داخل ألمانيا ذاتها كوامن البغضاء والتمرد من جانب الأمراء ضد التاج، ووجدت فرصتها سانحة بين عائلـــة الولفيين، الأعداء التقليديين للهوهنشتاوفن، ووصلت حبال تآمرها مع هنرى الأســـد زعـــيم البيت الولفى، الذى رفض الالتزام بواجبات الفصل الإقطاعى تجاه ســـيده، وأبى مشاركة فردريك فى حملته الخامسة إلى إيطاليا عام ١١٧٤، مما أدى

(96) Barraclough, The origins of Modern Germany. P. 170
(97) Pirenne, op. cit. P. 273

إلـــى هــزيمة مـــروعة فـــى عـــام ١١٧٦ عند ليناتو Legnano على يدَ العصبة اللومباردية، وراح ذليلا يطلب الصفح والغفران من البابا الذى أملى شروطه وحقق الآن ســيادته كاملة[٩٨] .. ففى البندقية، وفى كنيسة القديس مرقص عام ١١٧٧، جاء الإمبراطور إلى البابا منكس الرأس، تائبا، خر راكعا وأناب، وسجلت لوحة السمو البابوى كانوسا جديدة!!

وتمــثل انتصار البابوية وسموها فى مجمع اللاتيران الثالث الذى عقد تحت رئاســة إســكندر الثالــث عــام ١١٧٩، ووضع لأول مرة فى العصور الوسطى، الأغلبــية العدديــة فى الصورة، فقد اعتبر الكرادلة جميعا مهما اختلفت درجاتهم ناخبيــن، لهــم حق الإدلاء بصوتهم إذا ما حدث اختلاف حول اختيار البابا الجديد، واشترط أغلبية الثلثين كضرورة لصحة الاختيار، واستبعد الإمبراطور والاكليروس الرومانى والجموع من عملية الانتخاب[٩٩]. ومن ثم عوض هذا القانون النقص الذى كــان يعــتور قانون اختيار البابا، الصادر عن مجمع روما عام ١٠٥٩ على عهد الــبابا نيقولا الثانى، الذى كان يقيم لموافقة الإمبراطور قدرا من الاحترام، وأن لم يكن بصورة عملية[١٠٠].

غير أن الإمبراطور العجوز الذى قبل كارها، عاد إلى ألمانيا ليصفى حسابه مــع غريمه هنرى الأسد، فلما تم له ما أراد، دخل فى مفاوضات مع ملك صقلية، أسفرت فى النهاية عن زواج ولى العهد الألمانى هنرى السادس، من وريثه عرش الــنورمان فـــى صـــقلية، الأمـــيرة كونســـتانس[١٠١]، وكان هذا فى حد ذاته نصرا دبلوماســيا رائعـــا، حققـــته الإمبراطورية فى مواجهة الحصار البابوى. وما لبثت الــبابوية أن لقيت صفعة أخرى، أشد وأنكى، بعد ذلك بعام واحد (١١٨٧)، عندما استرد المسلمون تحت زعامة صلاح الدين الأيوبى، بيت المقدس من يد الصليبيين.

---

(98) Z. Brooke, op. cit. pp. 453-457
(99) ALEX. III., Papal election decree, 1170
(100) NICHOLAS II, Papal election decree, 1059
(101) FRED. BARB., Peace of Constance, 1183

والواقع أن تلك الزيجة عوضت جميع ما لقى فردريك من مذلة على أيدى أهل روما ولمبارديا والبندقية، فضلا عن البابوية، وكيف لا، وقد أصبحت ألمانيا وصقلية بغناها دولة واحدة، وفكى كماشة حول روما والبابوية، مما سيجعل الجالس على عرش ألمانيا، يملى إرادته على البابوات والقومونات الإيطالية.

لكن البواعث التى جعلت من اجتماع هذه النعم صورا زاهية الألوان فى أعين الهوهنشتاوفن كانت هى بعينها البواعث التى حملت البابوية أخيرا على إبادة تلك الأسرة، حتى إذا بدأ الصراع بينهما مرة أخرى، لم يستطع ذلك الصراع إلا أن يكون طويلا ومريرا.

فقد كان هنرى السادس أشد عنفا من أبيه فى تطبيق السياسة الهوهنشتاوفنية، فبعد أن توج إمبراطورا بيد البابا كلستين الثالث Celestine (١١٩١-١١٩٨) فى عيد القيامة، الخامس عشر من إبريل عام ١١٩١، رفض البابا تتويجه ملكا على صقلية، ولم تفلح الجهود التى بذلها هنرى فى ذلك، أو المفاوضات التى دارت فى هذا الشأن، لأن ذلك كان يتعارض معارضة تامة مع السياسة البابوية، ولكن هنرى لم يقف عاجزا أمام عناد البابوية، فتوج ملكا على صقلية – رغم أنف البابا – على يد رئيس أساقفة مسينا Messina فى ليلة عيد الميلاد لعام ١١٩٤، أعنى ٢٥ ديسمبر ١١٩٣. وفى اليوم التالى ولد له ولده من زوجه النورمانية، فردريك الثانى، الذى أصبح فيما بعد أعجوبة الدنيا Stupor Mundi وفى الدايت الذى عقد فى فيرتزبرج Wurzburg سنة ١١٩٦، وافق الأمراء الألمان على اقتراح هنرى السادس بتتويج ابنه فردريك ملكا، وله من العمر عامان. وكان هذا يعنى أن ملك الرومان rex Romanorum من وجهة النظر الألمانية، كان له حق ممارسة سيادته تلقائيا على الأقاليم الإيطالية، حتى قبل أن يتوج إمبراطورا بيد البابا(١٠٢).

غير أن الموت المفاجئ لهنرى السادس عام ١١٩٧، قلب خطط الهوهنشتاوفن كلها رأسا على عقب، وكانت فرصة العمر التى لن تجد البابوية لها مثيلا، لتطبيق نظرية السمو بكل ما تعنيه. أما فى الداخل فكان يعنى إشارة البدء للخصمين اللدودين،

---

(102) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 205

الوفيين والهوهنشتاوفن، ليشعلا من جديد نيران الصراع العنيف بينهما، فتجاهل الفريقان مسألة اختيار فردريك الثانى ملكا، ونادوا بملكين جديدين متنافسين، أوتو الرابع Otto IV دوق برنسويك Brunswick ابن هنرى الأسد، الولفى وفيليب السوابى Philip of Swabia، أخ الملك الراحل، الهوهنشتاوفنى. بينما جاهدت كونستانس للاحتفاظ بصقلية لابنها الطفل. غير أنها لم تلبث أن ماتت فى نوفمبر ١١٩٨، وتركت طفلها تحت وصاية البابا الجديد أنوسنت Innocent III، الذى أصبح بمقتضى هذه الوصية والوصاية، السيد الإقطاعى للمملكة الصقلية فى الجنوب، والذى وجد فى الحرب الأهلية الألمانية سعادته وسمو البابوية، فراح ينفخ فيها من روحه، ليزيدها ضراما، وأهمل شأن الطفل الذى ترك لينمو دون رعاية، شأن أى غلام يتخبط فى شوارع بالرمو وأسواقها العامة.

وإذا كان هناك سبب رئيسى يعزى إليه استمرار الحرب الأهلية هذه، قرابة ثمانية عشر عاما (١١٩٨-١٢١٤)، فهو أنوسنت الثالث، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ما بدأ فيه فى القرن الحادى عشر جريجورى السابع، أعنى ترجمة الأيديولوجية البابوية عن السمو، إلى حقيقة واقعة. فخلال عهده أوضحت البابوية بؤرة السياسة الدولية فى أوروبا، وخارجها، لقد عهد الآن بإدارة حكومة المجتمع المسيحى لواحد من أكفأ خلفاء القديس بطرس وأكثرهم اقتدارا، والذى استخدم سلطانه الموروث باعتباره "نائب المسيح" على الأرض(١٠٣).

وهذا المصطلح الأخير يعد نقطة الارتكاز الرئيسية فى الأيديولوجية البابوية خلال هذه المرحلة. ففى القرون الأولى كان المصطلح الشائع عن البابا – كما علمنا – والذى خلعه البابوات على أنفسهم، هو "نائب بطرس" Vicarius Petri، لكن هذا المصطلح بدأ يختفى تدريجيا مع ازدياد السلطة البابوية، ليحل محله لقب آخر، يواجه "قداسة" الإمبراطورية الرومانية، التى خلعها فردريك بربروسا على إمبراطوريته، ويعبر عن سمو السلطة البابوية وفعالية تأثيرها، وذلك ابتداء من منتصف القرن الثانى عشر فأصبح البابا "نائب المسيح" Vicarius Christi.

(103) Kantorowicz., Frederick the Socend,.pp. 39-40.

وكـــان انوســـنت الثالث خير من يعبر عن هذه المرحلة الجديدة من مراحل الســـمو، فقـــد كتب يقول: "نحن خلفاء أمير الرسل إلينا ولسنا نوابا عنه، بل ولسنا نوابـــا لأحـــد من بني البشر .. حتى الرسل .. ولكنا نواب يسوع المسيح نفسه"(١٠٤) وخاطـــب مندوبى فيليب السوابى الذين جاءوه عام ١١٩٩ أو ١٢٠٠ بقوله، تعبيرا عن فكره "أن ملكى صادق Melchisedech باعتباره ملكا لأورشليم، وكاهنا أعلى، إنمـــا كـــان يمثل الكهانة فى علاقتها بالعالم، وتفوق السلطة الروحية على الزمنية Praeminentiam quam Sacerdotium habet ad rgenum لأن الاثنتيـــن كانـــتا متحدتين فى شخص الملك الكاهن. وكان ملكى صادق هو الشخصية التى استخدمها فى أولى رسائله إلى الأمراء الألمان الاكليروس والعلمانيين حوالى الثالث من مايو عـــام ١١٩٨، ليوضـــح سمو المسيح باعتباره ملك الملوك وسيد السادات(١٠٥). لقد كان الكاهن الملكى الأعلى للكنيســـة المسيحيـــة، والإمبراطوريـــة الحـــق Verus Imperator للإمـــبراطورية المسيحية، والقاضى الأول فى عالم المسيحية، الثلاثة فى واحد، والواحد هنا هو البابا(١٠٦).

وفى رسالة بعث بها إلى رئيس أساقفة رافنا فى عام ١١٩٨، قال : "الحرية الكنســـية لا يمكـــن أن ترعى إلا إذا تملكت الكنيسة الرومانية السيادة الكاملة على الشـــئون الزمنـــية والروحية على السواء"(١٠٧). وكتب إلى ملك أرمينيا سنة ١١٩٩ يقـــول: "..يجب أن تكون بمجامع قلبك وفيا للكرسى الرسولى، وأن تلجأ إلى عون الكنيسة الرومانية، ليس فقط فى الأمور الروحية، بل فى المسائل الدنيوية"(١٠٨).

ويـــدون أنوسنت الثالث فكره عن السمو البابوى فى عبارات صريحة، بعث بهـــا إلـــى حاكم تسكانيا ونبلائها، فى أول سنى اعتلائه عرش البابوية، جاء فيها: "حيـــث أن مبدع الكون قد حباه فى القبة الزرقاء بمصدرين أحدهما للضياء والآخر

---

(104) Souyhrtn, op. cit. pp. 104-105

(١٠٥) انظر Kantorowicz, op. cit,. p. 40

(106) Ibid., pp. 40-41

(107) INNOCENT III, Letter to the Archbishop of Ravenna.

(108) INNOCENT III, Letter to the King of Armenia, 1199.

للنور، الأول للنهار والثانى فى الليل – فإنه فى سماء الكنيسة الجامعة، وضع مرتبتين .. العظمى لرعاية الأرواح كالشمس للنهار، والدنيا لرعاية الأجساد كالقمر فى الليل .. هاتان هما السيادة الكنسية والسلطة الملكية.

والآن فكما أن القمر يستمد نوره من الشمس، وهو دونها فى الحكم والكيفية، فى المكانة والسيادة، السلطة الملكية بالمثل تستمد بها مجدها من السيادة الأسقفية"(١٠٩). وحتى يدعم أيديولوجيته بأسانيد لا تجد تحديا لدى مؤيدى الحق الأمبراطورى فى السيادة، لجأ إلى الكتاب المقدس، وراح فى إحدى عظاته عن التكريس يقول: لقد قيل لى فى شخص النبى: "قد وكلتك على الشعوب وعلى الملك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس" (ارميا ١/١٠) وقيل لى أيضا فى شخص الرسول. "وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات"، وهكذا عهد للبعض بشئ من الأمر، بينما خول بطرس السلطة كاملة.. أنا بحق إذن نائب يسوع المسيح، خليفة بطرس، المصطفى من قبل الرب، والقائم بين الله والناس. أدنى من الله .. وأعلى من بنى البشر، يدين ولا يدان!!" (١١٠).

ولم تكن فكرة "ملك الرومان" أو مجرد المصطلح نفسه، أو حتى ال"مهمة" التى أرادتها له البابوية، واردة على الإطلاق فى البناء الأساسى للبرنامج البابوى عند انوسنت، ولم يستخدم هذا المصطلح. لقد كان هناك فقد بالنسبة له ملك ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا، وليس "ملك الرومان" الذى أصبح من حقه ممارسة سلطة شرعية على الأقاليم الإيطالية، وفوق هذا الادعاء ب"حق" فى أن يصبح إمبراطورا رومانيا ومن ثم ارتبطت هذه السياسة الخاصة بتحقيق السمو البابوى، بصورة قاطعة بالرفض الأنوسنتى لفكرة "ملك الرومان"(١١١). وكان هذا بالطبع يتعارض مع إصرار الهوهنشتاوفن على أن اختيار ملك ألمانى، يعطى الحق فى التاج الإمبراطورى باعتباره "ملك الرومان"؛ ولذا كان من الطبيعى أن يرفض أنوسنت الثالث ذلك، وأن يعلن صراحة أن تمام التصديق على المنصب الإمبراطورى،

---

(109) INNOCENT III, Letter to the Prefect Acerbus and the nobles of Tuscany, 1198.
(110) INNOCENT III, Sermon on the Consercration
(111) Ullmann., A short history of the Papacy, p. 209

مسألة رسولية بحتة. وأن التاريخ يدعم رأيه هذا(١١٢).

لقــد كان دائما يصر على أن يصبح "صانع الأباطرة" فالبابا باعتباره "نائب المســيح"، له وحده الحق فى خلق "المدافع" عن العالم المسيحى، الذى لا يعدو كونه مجــرد "مســاعد" للبابوية فى تحقيق أغراضها وأهدافها(١١٣). وهكذا أضحت كلمة beneficium الــتى أثــارت ثائــرة فردريك بربروسا فى بيزانسون عام ١١٥٧، واعــتذر عنها هادريان الرابع، حقيقة واقعة على يد أنوسنت الثالث، إذ الأمير عنده يتسلم مملكته كـ"إقطاع" beneficium(١١٤).

وقــد وجدت البابوية لها مؤيدين كثيرين من رجال الفكر، وإن كان معظمهم ينــتمى إلــى الرهبان المتحمسين لحركة الإصلاح، أو الاكليروسيين المدافعين عن الســيادة الــبابوية، فهذا سوجر Suger (+١١٥٠) رئيس رهبان دير سانت دونى St.Denis، والوزير الفرنسى الأشهر لملكى فرنسا لويس السادس (١١٠٨-١١٣٧) ولويــس السابع (١١٣٧-١١٨٠)، يعلن عن تأييده للسياسة البابوية وسمو سلطانها، برغبته فى أن يضع ملوك فرنسا وإنجلترا أنفسهم عند قدمى الحبر الأعظم، ويحث الإمــبراطور على التفانى فى الخدمة كسائس Strator من أجل أمير الأمراء، يعنى الــبابا ويشاركه الرأى جون السالزبورى John of Salisbury (+١١٨٠) الأسقف الإنجلــيزى المتضــلع مــن الــثقافة الكلاســيكيـــة فـــى أصــولها اللاتينيـــة، وشــريــك ورفيــق تــوماس بيكيت Thomas Becket (+١١٧١) رئيس أساقفة كانــتربورى Canterbury، فــى تحديه ومنفاه، حين يعتبر الأمراء مجرد وزراء للكنيســة، وأن كل قانون لا يحمل طابع القانون السماوى، يصبح خواء لا غنى فيه ولا نفــع، وكــل نظــام علمــانى لا يــتفق والــنظام الكنسى يجب اعتباره شرا مستطيرا(١١٥). كما أن توماس بيكيت نفسه يعتبر الملوك أفصالا للكنيسة(١١٦).

(١١٢) يشير بذلك إلى تتويج شارلمان على يد البابا ليو الثالث، وتتويج أوتو الأول على يد يوحنا الثانى عشر.

(113) Ullmann, The growth of Papal Geverment, pp. 28-31 وأيضا Ch. Brooke, the structure of Medieval Society, p.60.

(114) Kantorowicz, op. cit., p. 44.

(115) Mundy, op. cit., p. 320.

(116) Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 290-303.

وهـذا هو بونكامبانو Buncompagno من Signa، الذى كان يعلم أن البابا يحب أن يخاطب بـ"أمير الأمراء"، اقترح على رجال القانون أن يجعلوا الالتماسات المقدمة في المجامع الكنسية تأتى ديباجتها على هذا النحو: "إني لأقف بين يدى أب الآباء الذى نال السلطان الكامل على الأرض، خلفا لسمعان بطرس"، أو "إني لأقف بيـن يديـه .. ذلـك الذى دانت له أعناق الملوك والأباطرة، الذى يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء". بل إن أعداء البابوات أنفسهم، قبلوا عظمتهم، فها هو إسكندر الروى Alexander of Roes أحد رجال القانون الشهيرين، والمعروف بولائـه للإمـبراطورية، يعـترف أنه في مجمع ليون Lyons الثاني المنعقد سنة ١٢٧٤، "لـم تكـن الجمـوع المسيحية والاكليروس وحدهم عند موطئ قدم الحبر الـرومانى، بـل ملـوك الدنيا بأسرها، واليهود واليونان والتتار .. سواء يعترفون جمـيعا أن ملك العالم يتعلق بقوائم عرش الأسقف الرومانى"[١١٧]. ويرى بطليموس اللوقـى Ptolemy of Lucca تلميذ توماس الأكوينى Tnomas Aquinas فيلسوف المسـيحية الشهير في القرن الثالث عشر، أن الإمبراطور خادم الكنيسة، وأنه تسلم الإمـبراطورية مـن الكنيسـة بمقتضى يمين يشبه يمين الولاء، من أحد أفصال الكنيسـة وهو يحصل على إقطاع. وهذا هو السبب الذى يجعل الكنيسة قادرة على عزل الإمبراطور[١١٨].

لقـد كانت البابوية تصر دائما على أنها الوحيدة القادرة على معرفة "قانون الحـياة المسيحية"، على اعتبار أن البابا يمتلك قوة "الإبداع" auctoritas التي تمنحه سـلطة الربط والحل والتوجيه. والبابا في ممارسته لسلطانه هذا باعتباره حاكما، لا يقـف داخل الكنيسة، بل خارجها وفوقها .. وفي هذا الإطار فليس من حق أحد أن يقاضيه[١١٩].

---

(117) Mundy, op. cit., p.323

(118) Ibid., p. 324

(119) Ullmann, Law and politics in the Middle Ages. pp.121-123, 141.

ولم تعدم الإمبرطورية من يتصدى للرد على الادعاءات البابوية، فقد كتب هوجوشيو Huguccio البيزى يقول: لا أعتقد أن الإمبراطور قد تلقى سيفه الزمنى وبالتالى السلطة الإمبراطورية من البابا وحده، ولكن بالمثل أيضا من اختيار الأمراء والرعية[١٢٠]. وعلى نهجه نهج جون الباريزى John of Paris ليقوض الأسس التى بنى عليها البابا ادعاءه، فيما يتعلق بمسألة "تتويج" الإمبراطور، فذكر أن هذا العمل قد تم أيضا بمساعدة الشعب الرومانى، ذلك لأن الأباطرة تولوا حماية الكنيسة ضد الوثنيين والمارقين، وهذا العمل فى حد ذاته كفيل بأن يفضى الدور الرئيسى على الناس، فهم الذين يصنعون الملوك، ويكونون الجيوش، ويقيمون الإمبراطور[١٢١] أما كينو من بستويا Cino of Pistoia فيتعجب فى دهشة .. ليس مما ينافى العقل أن تكون الإمبراطورية قد وجدت من الله والناس.. لكن الذى لا شك فيه، أن الإمبراطور قد اختير من قبل الناس، والإمبراطورية دعيت "مقدسة من الله"[١٢٢].

وقد تبدو المسألة على هذا النحو متكافئة، لكن الأحداث الداخلية فى ألمانيا، وقد أعقبت وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ - كما بينا - هى التى أدت إلى أن تضرب البابوية ضربتها والحديدة محماة فى هذه القصبة المرضوضة، أعنى ألمانيا. وبنفس الأسلوب الذى اتبعه البابا جريجورى السابع فى سبعينات القرن الحادى عشر، عندما ظل يراوغ ثلاث سنوات تباعا (١٠٧٧-١٠٨٠) فى إصدار قراره بأحقية أى من الملكين المتنافسين، هنرى الرابع، الملك الشرعى، والذى عفا عنه البابا منذ أيام قلائل، ورودلف السوابى Rudolph of Swabia الذى اختاره الأمراء ملكا منافسا، اكتوت خلالها ألمانيا بنيران الحرب الأهلية، سار أيضا أنوسنت الثالث، وراح يماطل خمس سنوات (١١٩٧-١٢٠١) فى إصدار قراره بشرعية اختيار أى الملكين، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، أو أوتو الرابع الولفى. وأخذ ينفخ فى آتون الصراع لتعلو ناره. ودفعت ألمانيا الثمن فادحا فى حرب أهلية

(120) Mundy, op. cit., p. 332
(121) Ibid, p. 332
(122) Ibid, p.331

طاحنة، بينما كانت خسارة السلطة الإمبراطورية أكثر فداحة؛ تمثلت في تلك التنازلات المهينة التي قدمها المرشح الولفي، أوتو الرابع؛ لأنه لم يكن صاحب الحق الشرعي في العرش. فاعترف باستقلال الدولة البابوية في إيطاليا، وتحرير الكنيسة الألمانية من السيادة الملكية(١٢٣). وهكذا خسرت الإمبراطورية كل ما جاهد أباطرتها في سبيله قرابة قرنين ونصف من الزمان .. وكانت سعادة البابوية غامرة لانفصال صقلية عن ألمانيا، وفوق هذا وذاك، تربع البابا على عرش السيادة الروحية والزمنية، باعتباره الحكم الفصل والقاضي الأول. وخلال السنوات التالية عمل أنوسنت بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، على تحويل أنظار الاكليروس الألماني تجاه روما ما لم يحدث من قبل أبدا.

وما أن تحقق لانوسنت ما أراد، أصدر على الفور في عام ١٢٠١ وثيقة على جانب كبير من الأهمية، تلخص في وضوح كامل فكرة السمو البابوي بأجلى معانيها، وتجسد بما لا يدع مجالا للشك، التطبيق العملي لهذه الأيديولوجية البابوية.

جاءت ديباجة الوثيقة على هذا النحو:

"إن عمل البابا الرئيسي، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية، حيث أن الإمبراطورية تعود بأصولها إلى البابوية، ومنها تستمد سلطانها؛ أما أصولها فلأنها نقلت أصلا من اليونان (البيزنطيين) بواسطة البابوية ولمصلحتها (يعني تتويج شارلمان) .. ولقد أقدم البابوات على هذا العمل لضمان أقوى للكنيسة. وأما سلطانها، فلأن الإمبراطور اعتلى العرش بيد البابا الذي باركه وتوجه وعهد إليه بالإمبراطورية"(١٢٤).

ولعلنا نلحظ أن أول عبارة استهل بها البابا قرار المفاضلة بين المرشحين الثلاثة، "أن عمل البابا الرئيسي، العناية بما يهم الإمبراطورية الرومانية" وكلمة "الرئيسي" بصفة خاصة تحدد مهمة البابا في القرن الثالث عشر .. إذ غدا سيد

(123) Thompson & Johnson, op. cit. p.413

(124) INNOCENT III, Decision of Innocent III in nregard to the disputed election, 1201

العـالم الزمـني الإمـبراطور الأوحـد والكاهن الملكي الأعلى، والقاضي الأول والديبلوماسية مليئة بالمغالطـات وتزييـف الحقائق فالبابوية تعتبر شارلمان ابتداء الإمبراطورية الرومانية التي صنعتها بيديها على الرغم من أن الملك الفرنجي توج إمـبراطورا فـي إمـبراطورية رومانية قائمة ويضع في الترتيب "البابوي" خليفة لقسطنطين السادس بعد اعتبار العرش شاغرا لوجود ايرين عليه وهو ما لم يسبق بـه التقليد الروماني هذا مع العلم أن للكنيسة شأن أصلا في أحضان الإمبراطورية الرومانية، وعلى غرار تنظيمها الإداري وضعت الكنيسة نظمها ورغم كل ذلك لم يـتردد المتحمسـون للسـمو الـبابوي في أن يتخذوا من هذه الوثيقة مصدر إلهام لكـتاباتهم ونشـر آراء البابوية عن السيادة العالمية، ومكانة البابا المتميزة روحيا وزمنـيا فقد كتب ألبرت Albert Behiam رئيس شمامسة Passau في عام ١٢٤٠ يقـول : "ألـيس بمقـدور البابوات أن ينقلوا الإمبراطورية ثانية إلى الفرنسيين أو الـنورمان، إذا كان الألمان عاجزين عن أن يجدوا بينهم من يحمي الكنيسة بصورة فعالة"(١٢٥).

وعلـى الرغم من أن انوسنت الثالث اعترف في قراره هذا، بأحقية كل من فـردريك الثاني أولا، ثم فيليب السوابي ثانيا في العرش، واعترف بعدم أحقية أوتو الـرابع الولفي، وكراهية الأمراء الألمان له، إلا أنه أعلنه ملكا ووقف إلى جواره، متحديا شعور الألمان وحق الناخبين، ومفضلا الشرعية والصلاحية، والتي وضعها فـي بدايـة وثيقـته هـذه معيارا للاختيار، ليؤكد سلطان البابوية على الدنيا وبهذا الاختيار وقف البابا ضد الهوهنشتاوفن، لعدة أسباب ..

أولها: أنه ليس هناك بابا – يحمل المودة لهذه العائلة، وثانيها أن الإمبراطور الهوهنشـتاوفن يمـثل الخطر الداهم للبابوية، بينما الولفيون لا ضير منهم، خاصة وأنهم ليس لهم أتباع كثيرون في ألمانيا، ومن ثم يمكن أن يصبحوا أداة طيعة في يد الـبابوية الـتي أعطتهم عرشا لا يستحقونه، فيصبح إمبراطور الولفي بذلك صنيعة البابا ويضحى البابا "صانع الأباطرة".

---

(١٢٥) Mundy, op. cit. p. 322 وقد ناقشنا هذه الوثيقة البابوية تفصيلا الفصل الرابع.

ومـــع التأييد الكبير من البابوية لأوتو، إلا أن قضيته أمست خاسرة، وبعين المصـــلحة أبصـــر انوسـنت ذلك، فراح يغرى فيليب السوابى على تقديم تنازلات جديـدة تفوق ما أقدمه خصمه ومنافسه أوتو الرابع من قبل، فأقدم فيليب على ذلك فـــى وثـيقة رسـمية عام ١٢٠٣ تعهد فيها بحمل الصليب إلى الأراضى المقدسة، وإعادة كل الأراضى التى ضمها أسلافه أو هو ثانية إلى الكنيسة، وعدم التدخل فى اختـــيار رجـــال الاكلـــيروس، بما يعنى القضاء على مشكلة التقليد العلمانى تماما، والإذعـــان للبابا فى المسائل الروحية، على أن أغرب ما فى هذه التعهدات، السعى لإسـقاط القسـطنطينية واخضاع كنيستها للكنيسة الرومانية[126]. ولعل هذه النقطة الأخيرة بالذات تضع أمام أعيننا أبعاد السمو البابوى نظرية وتطبيقا، وهو ما تحقق لانوسنت في العام التالى مباشرة وإن لم تكن على يد فيليب السوابى.

هكـــذا تحققـــت الـــبابوية أو كـــادت طموحاتها وحسمت القضية لصالحها، وخســـرت الإمبراطورية كل شئ ورغم أن الصراع استمر عنيفا طيلة نصف قرن آت، إلا أن نظـــرية السمو البابوى أصبحت واقعا عمليا لا مراء فيه؛ ذلك أن فيليب الســـوابى لم يلبث أن اغتيل عام ١٢٠٨ ولم يجد البابا غضاضة فى أن يدعم موقف أوتو الرابع ثانية!! فالمسألة أمست لعبة سياسية تحركها البابوية بأطراف أصابعها، وتتـــيه بعروضـــها إعجابـــا بمجامع قلبها!! فطوال ست سنوات آتية، أدرك الملك الولفـــى -بعـــد فوات الأوان- أن كوارث الحرب الأهلية الطاحنة هذه والتى جاقت بألمانيا تعود فى حدتها إلى التدخل البابوى السافر، فانقلب على الفور هوهنشتاوفنيا فـــى سياســـته ولم يكن من الصعب على البابوية أن تتنكر له من جديد، وأن يبدو لعينـــيها واضـــحا الآن، فردريك الثانى ذلك الطفل الذى ظل ستة عشر عاما نسيا منسيا، والذى غدا الآن فى باكورة شبابه فناداه إنوسنت من روما وأعلنه ملكا على ألمانيا عام ١٢١٢، وأيده بجيوشه فيليب أوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣) لينتصـــر علـــى الـــتحالف الولفـــى الإنجليزى فى موقعه بوفان Bouvines ســـنة ١٢١٤ والتى تعد من أشهر المعارك فى التاريخ، إذ غدت فرنسا فى أعقابها أقوى دولة فى أوروبا ولتبيت البابوية صاحبة السيادة على الجميع.

---

(126) PHILIP of SWBIA, concessions of Philip of Swabia to Innocent III, 1203

هكـذا .. فى عام ١٢١٤ اعتلى فردريك الثانى عرش ألمانيا ملكا فردا، بعد أن قـدم للبابا، إنوسنت الثالث، الذى تنكر بعد طول غياب، أنه الوصى على الأمير فردريك، تنازلات جمعت فى جوهرها كل ما قدمه أوتو الرابع وفيليب السوابى من قبل، بالإضافة إلى تنازله رسميا عن حكم صقلية، أو بتعبير آخر التعهد بعدم الجمع بين ألمانيا وصقلية تحت سيادة ملك واحد(١٢٧).

علـى هذا النحو تسنمت البابوية فى عهد إنوسنت الثالث، عرش السمو، ولم يكـن ما فعله بونيفاس الثامن Boniface VIII من بعد فى القرن الرابع عشر، إلا تدعـيما لما أرسى القواعد منه سلفه إنوسنت هذا وكيف لا، وقد تربع إنوسنت على عـرش السـيادة المطلقـة، فالقسطنطينية أمست عند قدميه، بعد أن فض حصانتها للمرة الأولى منذ بناها قسطنطين جنود الصليب فى الحملة الرابعة، وصليبية أخرى تحقق فوزا ضخما على الموحدين فى الأندلس عام ١٢١٢، والملك الألمانى الجديد يبدى الطاعة، وإن كان ممتعضا وقرارات الحرمان من تحت كرسى "نائب المسيح" تـترى فـوق رأسى ملكى فرنسا وإنجلترا، إذ هو يجبر فيليب أوغسطس على أن يرتضـى زوجـة معينة، ويكره جون الإنجليزى على تعيين أسقف بعينه وها هو يرغم ألفونسو Alfonso صاحب ليون على أن يفسخ زواجه من ابنة عمه، ويلعب دورا بارزا فى حسم مسألة الصراع على العرش الهنغارى، ويصبح ملوك إنجلترا وأرغونـة والبرتغال تحت السيادة البابوية، بينما أمست صقلية إقطاعا بابويا ويبدى نصـائحه لحكـام بوهيميا وبولندا والدانمرك؛ ويتدخل فى كل المشكلات السياسية الكـبرى فـى أوروبا، ويغرق الكنيسة فى الشئون السياسية لأوروبا إلى الحد الذى يصبح ذلك "عمله الرئيسى" وهو المسئول عن اختيار الأباطرة وإقرار سيادة الدولة البابوية!!

ولكى يغدو التطبيق أكثر عملية، بقيت هناك صفحة أخيرة، كان على البابوية أن تطويها، لتودع الإمبراطورية كارهة إلى مثواها الأخير؛ ذلك أن فردريك الثانى

(127) FREDERICK II, Promise to Innocent III, 1213 وأيضـا Promise to resigh Sicily, 1216

الذى توج إمبراطورا عام ١٢٢٠ لم يكن أقل حرصا من أسلافه الهوهنشتاوفن على فكـرة السـيادة الإمبراطورية وإن كان قد قبل مرغما شروط البابوية وصولا إلى عـرش آبائه، فراح يسعى لبناء دولة قوية(١٢٨)، وينقض كل ما عده انتقاصا لمكانة الإمـبراطـور وسـلطـان الـتـاج تجـاه البابويـة، فأصدر البابا جريجورى التاسـع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) فى أول عهده بالبابوية قرار الحرمان ضد فـردريك الـثانى فـى التاسـع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧، بحجة مماطلته فى الخـروج بحملـة صليبية، كان قد تعهد بها من قبل عند تتويجه إمبراطورا وأحل رعيـته مـن يمين الولاء له. ورغم أن الملك فى العام التالى بالحملة إلى الشرق، وحقـق خلالها بالاتفاق مع سلطان مصر، الملك الكامل الأيوبى، ما فشل فيه قواد الحملـة الثالـثة، جـده فردريك الأول، و فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وريتشارد الأول ملك إنجلترا، إلا أن البابوية لم ترض عنه، واتهمته بالإلحاد وانتهزت فرصة غيابه فى الأراضى المقدسة، لتشيع بين الناس نبأ وفاته، ولتدفع بجيوشها للاستيلاء علـى أملاكـه فـى إيطاليا فلما عاد فردريك من الشرق، طرد على الفور القوات الـبابوية، ثـم دارت المفاوضـات بين الطرفين، لتنتهى بمعاهدة سان جرمانو عام ١٢٣٠، على أساس إلغاء قرار الحرمان، فى مقابل وضع بعض القيود على سيادته على كنيسة صقلية(١٢٩).

غـير أن هـذه المعـاهدة لم يكتب لها البقاء طويلا وكل ما يمكن قوله بشـأنها، أنها كانت فرصة للطرفين لالتقاط الأنفاس، ولأن جوهر القضية أعنى السيادة العالمية، هو الذى كان يعنى البابوية فى المقام الأول، والذى لم تبغ عنه حولا. ولذا فقد سعرت نيران الحرب بينهما ثانية، وأمر البابا جريجورى التاسع بعـض رجـال اكليروسه، بتدبيج مجموعة من الاتهامات ضد فردريك ففعلوا. وتـناولها فـردريك بالـرد والتفنـيد(١٣٠). ولـم يقتنع البابا بذلك .. ولم يقتنع

---

(١٢٨) للمزيد من التفصيلات عن جهود فردريك الثانى فى هذا السبيل، راجع:

Kantorowicz, Frederick the second., pp.77-163; 215-368

(129) TREATY OF SAN GERMANO 1230.

(130) GREG IX & FRED. II, Papal Charges and Imperial defence, 1238.

الإمبراطور أيضا بقبول فكرة البابوية عن الإمبراطور، باعتباره مجرد "مساعد" لهـا فغزا على الفور شمالى إيطاليا، وأوقع بالمدن اللومباردية والفيالق البابوية المرتـزقة، هـزيمة عـند كورتنوفو Cortenuovo عام ١٢٣٧، وأن لم تكن سـاحقة(١٣١) إلا أنه تاه عجبا بانتصاره، وباعتباره إمبراطورا رومانيا منتصرا، فقـد أرسـل بالأسـرى مـن أعدائه وأعلامهم وأبواقهم، كأسلاب للحرب؛ إلى الـرومان وأعلـن فـى الوقت نفسه عن مشروعات تعد بعيدة المنال، ظن أنه يستطيع بها استثارة ولاء الرومان له وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان الأقدميـن، وبعـث الحـياة من جديد فى رومولوس Romulus مؤسس روما واعـتزم تقسـيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان، حتى يعيدوا لها بهاءها المندثر(١٣٢). ولما كان هذا يعد شيئا مخيفا للبابوية ومفزعا، فقد أصدرت من جديد عام ١٢٣٩ قرار الحرمان ضد الإمبراطور(١٣٣)، خاصة وأن فردريك قـد عمد إلى إغاظة البابا، فزوج ابنه انزيو Enzio من وريثة عرش سردينيا، وأعلـنه ملكـا علـيها مقتفيا فى ذلك أثر جده فردريك الأول، عندما زوج ابنه هنرى السادس من وريثة عرش النورمان فى صقلية ومن ثم لم يقف الأمر عند حـد الحـرمان الكنسى، بل تخطاه إلى قيام جريجورى التاسع الذى كان يؤمن إيمانا كاملا بأن البابا يجب أن يكون حاكما أوتوقراطيا(١٣٤)، بالدعوة لعقد مجمع كنسـى فى روما عام ١٢٤١ لعزل فردريك غير أن بيزا، حليفة الإمبراطور، دفعت بأسطولها بتصيد الأساقفة الوافدين إلى روما، مما أدى إلى غرق بعضهم وأسـر بعض ثان، وحال دون انعقاد المجمع، بينما نجح الإمبراطور فى فرض سلطانه على إيطاليا، فزهقت روح جريجورى التاسع كمدا، فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٢٤١.

---

(131) Kantorowicz, op. cit., 435-458.
(132) Thompson & Johnson, Op. Cit., p. 423
(133) GREG. IX Excommunication of Frederick II, 1239
(134) Ch. Brooke, The Structure of Medieval Society, p.6

إلا أن هــذه الخطــوة من جانب فردريك الثانى، كانت خطأ فادحاً، إذ نقلت العــداء الشخصى ما بينه والبابوية، إلى عداء الإمبراطور مع الكنيسة بصفة عامة، بالإضــافة إلى أنه فقد عطف ملوك أوروبا، الذين رأوا فى الإعتداء على أساقفتهم، عدوانــا موجهــا لأشخاصــهم، وجعــل من السهل على البابوية تعبئة الرأى العام الأوروبـــى ضد الإمبراطور[١٣٥]، خاصة وأن البابا الجديد إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤)[١٣٦] كان مصمما على أن يكون كسميه الثالث، وعلى تطبيق نظرية السمو البابوى بكــل معايــيرها، باعتــبار الإمبراطور "مدافعاً" عن البابا فحسب، تسلم الإمبراطورية من يده، وهى نفس آراء سلفه الأسبق إنوسنت الثالث[١٣٧].

ومــن الطــريف أن إنوسنت الرابع كان صديقا للإمبراطور فردريك الثانى، قــبل أن يحــتل كرســى القديس بطرس ولهذا أصيب الإمبراطور بخيبة أمل بالغة بسلوك صديقه القديم، الذى كان يحمل بين ضلوعه قلبا من ثلج! ويتصرف بتجاهل تام لكل الآداب ومظاهر اللياقة الروحية التى تتفق ومنصبه[١٣٨].

وقــد سخر كل موارد الكنيسة، وكل مهارة أوتيها ليحطم الإمبراطورية ففر إلى فرنسا، وعقد مجمعا فى ليون عام ١٢٤٥، فقرر حرمان وعزل فردريك الثانى، ودعــوة الناخبيــن الألمــان لاختــيار ملك جديد[١٣٩] فحقق بذلك أمل البابا الراحل جــريجورى التاســع واستــخدم فى قرار العزل منطقة نائب المسيح وليس نائب بطرس كما كان جريجورى السابع وأطلق إنوسنت الرابع عنتوبيه وجموع الرهبان الفرانشيســكان والدومنيكان للعمل ضد الإمبراطور، وأعلنها صراحة حربا صليبية ضد أسرة الهوهنشتاوفن على حد تعبير أحد المؤرخين الألمان[١٤٠].

---

(135) Strayer & Munro, op. cit., p. 333.

(١٣٦) بعــد وفاة جريجورى التاسع، تم اختيار البابا كلستين الرابع Celestine IV فى ٢٥ إكتوبر ١٢٤١ لكــنه لــم يلبــث أن مات بعد سبعة عشر يوما وظل كرسى البابوية شاغرا طيلة عامين، حتى اعتلاه إنوسنت الرابع.

(137) Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 153-156

(138) Thompson & Johnson, op. cit. p.427

(139) INNOCENT IV., The Sccond deposition of Frederick II.

(140) Heer, The Medieval World, p.141.

هكذا قاد البابا بنفسه الحرب ضد الإمبراطور والتى أصبحت دون شك حربا أيديولوجية فى المقام الأول[141] وراح يمارس استراتيجية البابوية القديمة بتعيين ملك آخر، رغم أن فردريك لم يلجأ مطلقا لاختيار بابا منافس، فقام إنوسنت بدفع خمسة وعشرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان، وهو هنرى أمير ثورنجيا، ليقبل تلقى التاج الألمانى من يد شرذمة من الأمراء وانتشر مندوبو البابا فى كل مكان ليشتروا أصوات النصر لهنرى هذا ضد كونراد ابن فردريك، ودفعوا فى سبيل ذلك ستة آلاف مارك وينيف حتى إذا مات هنرى، اختار ملكا آخر، هو وليم كونت هولندا، بينما تعرض الاكليروس الألمانى الموالى للإمبراطور، للقهر والحرمان الكنسى واللعنة من جانب البابا، للتخلى عن مناصرة الإمبراطور، الذى دبرت مؤامرة لاغتياله فى إيطاليا[142].

وفى عام ١٢٥٠ أنقذ الموت فردريك من الاغتيال!! فتنفست البابوية الصعداء إذ تحقق حلمها الكامل بموت خصمها العنيد، وبانقسام الإمبراطورية بين ولديه، كونراد فى ألمانيا، لمدة أربع سنوات فقط، ومانفرد الابن غير الشرعى، فى صقلية وأيقنت البابوية أن فرصتها لتحطيم الهوهنشتاوفن والإمبراطورية، مواتية ورغم أن إنوسنت الرابع كان مترددا بين أن يبقى على مملكة صقلية تحت السيادة المباشرة للبابوية، أو تعيين حاكم زمنى من قبله عليها يكون فصلا إقطاعيا له، إلا أن غزو كونراد الرابع للأراضى الإيطالية عام ١٢٥٢ حسم هذا التردد فبدأ البابا مفاوضاته لاختيار حاكم زمنى وراح يفاضل بين شارل كونت أنجو Charles of Anjou أخى لويس التاسع ملك فرنسا، واثنين من العائلة المالكة فى إنجلترا.. ريتشارد أمير كورنوول Richard of Cornwall أخى هنرى الثالث الملك وأدموند Edmund ابن الأخير، وظلت المفاوضات دائرة حتى سنة ١٢٥٤ عندما توفى كونراد الرابع[143].

---

(141) Ullmann, A short history of the Papacy, p.261.

(١٤٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث، راجع:

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 427-428

(143) Waley, Later Medieval Europe, pp. 35-36.

وقــد حــاول إنوسنت الرابع التوصل إلى اتفاق مع مانفرد Manfred، لكن دون جــدوى ولم تلبث القوات البابوية أن لقيت الهزيمة على يد قوات مانفرد الذى أعلن نفسه حاكما لمملكة صقلية، وتلقى البابا خبر الهزيمة وهو على فراش الموت فــى ديسمبر ١٢٥٤ واستفتح خلفه إسكندر الأكبر (١٢٥٤-١٢٦١) عهده بهزيمة أيضا فى أبوليا Apulia صيف ١٢٥٥، ليصبح مانفرد صاحب الشخصية القوية فى الجــنوب، وليــتوج فى بالرمو عام ١٢٥٨ وفى عام ١٢٦١ وصل خليفته الفرنسى أوربــان الــرابع (١٢٦١-١٢٦٤) المفاوضــات التى كانت قد انقطعت بين سلفه الأســبق، وأمــراء أوروبا لحكم مملكة صقلية، وتوصل إلى اتفاق مع شارل كونت أنجــو، يدفــع الأخير للبابا بمقتضاه خمسين ألف مارك فور غزو المملكة وجزية إقطاعــية ســنوية مقدارهــا عشرة آلاف أونصة Ounces ذهبية[١٤٤] ونجح الأمير الفرنسى الطموح فى هزيمة مانفرد وقتله عند بنفنتو Benvento عام ١٢٦٦.

لــم يبق من أسرة الهوهنشتاوفن إلا صبى فى الخامسة عشرة من عمره هو كونراديــنو Conradino ابن كونراد الرابع، الذى أقدم بناء على نصائح مستشاريه على غزو إيطاليا عام ١٢٦٧ ليحكم عرش أجداده ومن الغريب أن روما رحبت به كراهية فى البابا الفرنسى كلمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨) الذى كان أشــد ولاء لفرنســيته من عرشه الأسقفى[١٤٥] وفر البابا إلى فيتربو Viterbo لكن الجــيش الإمبراطورى لقى هزيمة ثانية على يد القوات الفرنسية، ووقع كونرادينو أسيرا وحتى يتم التأكد من القضاء على أسرة الهوهنشتاوفن خصم البابوية اللدود تم اقتــياد هــذا الأسير إلى نابلى، حيث احتزت رأسه عام ١٢٦٨ تحت سمع البابوية وبصرها!

هكــذا أسدل ستار أسود كثيف .. كقطع الليل البهيم، على إمبراطورية قبرت بيد البابوية، بينما لبث البابوات ثلاثة مائة سنين وازدادوا ستا، منذ توج أوتو الأول

---

(144) Ibid. p.38.
(145) Ibid., p.37.

عام ٩٦٢، حتى ارتحل كونراديتو عن الدنيا كارهًا سنة ١٢٦٨، يصعدون إلى قمة السمو البابوى، ولا هم لهم طوالها إلا ممارسة لعبة السياسة، كما لو كانوا من بنيها، تاركين وراء ظهورهم مهمتهم الروحية، بعد أن أصبح "عملهم الرئيسى"- كما عبر عنه إنوسنت الثالث، رعاية الإمبراطورية! حتى إذا أدركوا قمة الجبل على أشلاء ضحاياهم من الأباطرة والمثل، تربعوا على امتداد ثلاثة قرون آتية، كممت فيها الأفواه، وصفدت عقول المفكرين، وسيق كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو وغيرهم من العلماء، إلى العذاب زمرا، مما دفع العلماء الإنسانيين فى القرن السادس عشر، إلى أن يلصقوا بهذه القرون صفة العصور المظلمة. وامتهنت عقول الناس، امتلأت جيوب الكنيسة ببيع الغفران فى صكوك! حتى أن ادوارد الثالث ملك إنجلترا، لفت نظر البابا كلمنت السادس بقوله : "إن خليفة الحواريين قد وكل إليه أن يرعى خراف الرب لا أن يجز صوفها!".

ورفع الأسقف الأسبانى الفارو بلايو عقيرته ساخطًا: "إن الذئاب تسيطر على الكنيسة وتمتص دماء الشعب المسيحى"!!

لقد حققت البابوية الآن سموها وسيادتها بصورة تكاد تكون كاملة، إلى الحد الذى دفع البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤-١٣٠٣) إلى مخاطبة فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥-١٣١٤) بقوله: "اسمع أى بنى إلى وصايا أبيك .. ولتأخذ جماع قلبك بتقاليد السيد، الذى يحتل على الأرض مكان الرب .. الذى هو وحده السيد والرب"!! ولم لا.. وقد خلت الساحة من منافس سياسى، بعد أن تحطمت الإمبراطورية على يد البابوات وإنه لمن سخرية الأقدار حقًا، أن يكون الأباطرة الألمان، الذين جعلوا الإصلاح الكنسى حقيقة واقعة، هم أكثر الناس خسرانًا من هذا الإصلاح لقد كانوا بحق كمن يحفرون قبورهم بأيديهم!!

الفصل الثانى

الفكر البابوى الصليبى

ماذا لو قلنا مباشرة ودون أية مقدمات، إن البابوية كانت السبب الرئيسى فى فشل كثير من الحملات الصليبية ؟! بل ما الذى سيكون عليه الأمر لو ذهبنا إلى حد القول إن البابوية سعت بكل ما وسعها الجهد إلى أن يكون الإخفاق حليف هذا العدد من تلك الحملات؟!

ولكــن ماذا لو كنا أكثر دقة وأشد تثبيتا وقررنا من البداية دون تردد أن البابوية وقفت موقف المناوئ للحملات الصليبية مذ تحولت ريادة الحركة من يد الأمراء إلى يد الملــوك، ولمــا كان هذا التحويل قد حدث مع الحملة الثانية حتى السابعة – مع استثناء الرابعة، فإن هذا يعنى أن المناوأة بدأت مبكرا منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى حــتى آخــر سنى النصف الأول من القرن الثالث عشر. ولم يكن هذا الموقف البابوى العدائــى تجــاه حملات الملوك، جامدا بلا حراك، بل كان ديناميكيا مؤثرا إلى حد بعيد جــدا، اســتخدم فيه الحبر الرومانى كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وكانت الأخــيرة هى الغالبة، للقضاء على أى أمل فى النجاح قد يداعب ملكا من ملوك أوروبا، وحمل الصليب وخرج متجها إلى الشرق!!

وقــد تكــون الحملة السابعة – مع التحفظ – هى الاستثناء الوحيد فى العداء الــبابوى تجاه حملات الملوك؛ ذلك أن لويس التاسع كان عند البابوية قديسا، خرج وفــاء لــنذر نذره، وإيمانا بكفرة "الحرب المقدسة" ضد أعداء المسيح، وهى اللافتة العريضــة الــتى علقــتها الــبابوية، وفعلت تحت ظلها الأفاعيل ضد المسلمين فى الشرق، بل والمسيحيين فى الغرب والذين كانت عذاباتهم بيد راعيهم، خليفة بطرس ثم نائب المسيح على الأرض، أشد وأنكى!!

وحتى لا يكون حديثنا هذا ضربا من ضروب التنظير، أو دربا من دروب الجدل العقيم ومتاهاته، فمن الأجدى أن نرتد على آثارنا قصصا، لنجلو حقيقة الأمر، ونناقش الوقائع من مظانها الأصلية، ونرى إلى أى مدى تصدق هذه المقدمات.

ففى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥ ، وفى مدينة كليرمونت Clermont بجنوب فرنسا، وفى الجلسة الأخيرة من جلسات المجمع الذى شهدته المدينة على امتداد تسعة أيام سلفت، وجه البابا أوربان الثانى Urban II الدعوة للجميع حاضرهم وغائبهم، كى يحملوا الصليب ويولوا وجوههم شطر الشرق لإنقاذ إخوانهم هناك من ويلات العذاب التى يتعرضون لها - بزعمه - واستخلاص القبر المقدس من الانتهاكات التى لحقت به - فى تصوره - على يد المسلمين قال: "يا شعب الفرنجة، أنتم يا من تعيشون خلف جبال الألب، يا من اختاركم الرب وأحبكم من خلال أعمالكم الكثيرة، يا من تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم وعقيدتكم الكاثوليكية والشرف الذى أوليتموه للكنيسة .. إليكم نتوجه بخطابنا نستحثكم، ولتعلموا أن دافعا محزنا جاء بنا إلى بلادكم .. إنها الحاجة إليكم وإلى كل المؤمنين"[1].

ويدخل البابا بعد ذلك فى حديث طويل عن التعذيب والقمع والاضطهادات الوحشية التى يتعرض لها - على حد قوله - المسيحيون الشرقيون، فى أسلوب يمس شغاف قلوب سامعيه وينزع بهم إلى القتال، ثم يتساءل فجأة وهو يرمى إلى ما وراء تساؤله ببعيد: "على من إذن تقع مهمة الانتقام من هذا، ومهمة الخلاص منه، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد فى السلاح وجسارة القلب والبسطة فى الجسم، والقدرة على التحدى؟ لتكن قصص أسلافكم العظام حافزا لكم يحرك أرواحكم صوب القوة؛ فها هو شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم وقد دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود البيعة المقدسة داخلها .. أيها الجنود يا من تتمتعون بالقوة وتنحدرون من صلب

---

(١) رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم. الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، القاهرة بدون تاريخ، ص٧٧.

آبـــاء لا يشق لهم غبار، لا ترضوا لأنفسكم مظهرا أقل من أسلافكم، وتذكروا على الدوام قوتهم، وإذا كان حب الأطفال والوالدين والزوجات سوف يعوقكم، تذكروا ما يقولـــه سيدنا فى الإنجيل "من أحب أبا وأما أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابـــنه أكـــثر مـــنى فلا يستحقنى" (متى ١٠/٢٧-٢٨) وكل من ترك بيته أو أباه أوأمه أو زوجه أو أطفال فى سبيل اسم المسيح سوف ينال قدرها مائة مرة وسوف يستحق الحياة الخالدة"[٢].

ثم يعرج إليهم حاملا بلسانه طبقا شهيا يسيل له لعاب السامعين الذين يعانون مـــن وطـــأة نظام اقطاعى قصم ظهور الأقنان، وأفسد سلام النبلاء بحروب أهلية طاحنة، ومغامرات تنافسية إقطاعية لانهاية لها، فشلت معها كل جهود "هدنة الرب" و"ســـلام الـــرب" ويعدهـــم البابا وعدا حسنا فيقول: ".. هذى الأرض التى يعيشون عليها يحوطها البحر من كل جانب، وتحفها سلاسل الجبال من كل ناحية، وتضيق بكـــثرتكم، وتشـــح بالثروة، ولا تكاد تغل من الطعام ما يكفى الزارعين، ولذا فأنتم تشـــنون الحـــروب ضـــد بعضكم بعضا، وتقتلون أنفسكم بأيديكم. الآن أوقفوا هذه الكراهية، وكفوا عن النزاع، وأطفئوا نيران الحرب بينكم وانطلقوا إلى طريق القبر المقـــدس لتنقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس الذى يثير الرعب فى النفوس، ولتكن لكـــم الأرض خالصة من دونهم، فهى الأرض التى حدثنا عنها الكتاب المقدس بأنها تفيض باللبن والعسل"[٣].

ورجـــع الفضـــاء الصدى الناجم عن صيحات الجمع المحتشد وهو يصرخ "إنهـــا" إرادة الله" "والله يـــريدها" Deus Vult .. Deus Vult وسرت الدعوة مسرى النار فى الهشيم، وكأنما كان يتلهف المجتمع بأسره لسماع مثلها، الأمراء والفرسان والأقـــنان والـــزناة والخطـــاة، واللصوص والسفاكون، والمتهربون من الضرائب، والهـــاربون من الديون، والفارون من السجون .. المجتمع كله، عليته وحثالته، أو أضـــلاعه الثلاثة التى حدثنا عنها ألفرد العظيم Alfred the Great ملك انجلترا فى

---

(٢) نفسه، ص٧٨ – ٧٩.

(٣) نفسه.

القرن التاسع، ضلعه الذى يصلى .. رجال الاكليروس، وضلعه الذى يحكم الأمراء العلمانــيون، وضــلعه الذى يقوم بخدمة هذين الضلعين – الفلاحون الأقنان وتناول الشعراء الدعوة فتغنوا بها وترنموا:-

ألا أيها المحبون العاشقون أفيقوا

ودعوا النوم .. وكفى

فالقبرة المغردة تردد أن النهار

قد جاء .. وصفا

وتشدو بأن السلام آت قريب

يعطيه الرب واسع المغفرة .. المجيب

لأولئك الذين فى حبه يحملون الصليب

يعانون الآلام بالحب .. وصبر عجيب[4].

أمــا الملــوك فقــد وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا نيفا وخمسين سنة بعد الدعوة، إلى أن قرروا تلبية النداء بحمل الصــليب وعلى مسئوليتهم الخاصة، ووضعوا على كواهلهم عبء الحملات القادمة إلــى الشــرق ابتداء من الثانية فى أخريات النصف الأول من القرن الثانى عشر، حــتى الســابعة فى منتصف القرن الثالث عشر، باستثناء الحملة الرابعة التى كانت لها ظروفها الخاصة ونتائجها الخاصة أيضا وهذا الموقف الذى اتخذه ملوك أوروبا آنــذاك بــلا اســتثناء، يثير كثيرا من علامات الاستفهام. أتراهم لم يكونوا يؤمنون بالفكــرة فى حد ذاتها؟ أم لم يكن لديهم اقتناع بجدواها فى مواجهة عدو لم يكونوا علــى علم كامل بقوته العسكرية وتعبئة جيوشه؟ أم تراهم أدركوا المغزى الحقيقى

---

(4)"Vos qui ameis de Vraie amour" An Anonymous poet writes of the love of God expressed (by the Crusader (in Riley – Smith, The Crusades, Idea and reality, London, 1981, pp. 89-90).

الذى كانت تهدف إليه البابوية من دعوتها هذه، والهدف الكامن وراء عبارات البابا ودعايته الظاهرة؟ أم أن البابوية نفسها كانت راغبة عن اشتراكهم كارهة إياه لحاجة فى نفس رعيانها من أوربان الثانى فى آخر سنى القرن الحادى عشر حتى إنوسنت الرابع Innocent IV ocent IV فى القرن الثالث عشر الميلادى؟

ولعـل التساؤل الأخير يجد إجابته مباشرة فى سلوك أوربان الثانى، الذى ما أن فـرغ مـن دعوتـه العامة فى كليرمونت حتى عكف خلال الأشهر التالية التى استغرقتها الاستعدادات العامة لخروج الحملة الأولى باتجاه الشرق، يكاتب عددا من أمراء أوروبا من وراء ظهر ملوكهم، سادتهم الإقطاعيين! ويعقد المجامع الكنسية، ويبعـث بقسيسيه إلى مناطق متفرقة من أوروبا - وإن كانت فرنسا مركز نشاطه - حاثـا إيـاهم على دعوة الأمراء والنبلاء والفرسان على التضامن جميعا فى سبيل نجـاح دعوتـه. وقـد تضمنت رسائله جميعا النغمة التى عزف على أوتارها فى كليرمونت، والخاصة بويلات العذاب التى يلقاها إخوانهم مسيحيو الشرق، وانتهاك الحرمات فى الأراضى المقدسة.

ففـى رسالة بعث بها إلى "كل المؤمنين فى الفلاندرز" فى ديسمبر ١٠٩٥، أى فـى أعقاب مجمع كليرمونت يقول :".. لقد زرنا بلاد الغال (فرنسا) وحرضنا السـادة والـرعايا بحمية فى هذا الإقليم على تحرير الكنائس الشرقية .. وفرضنا عليهم التزامات بأن ينجزوا مثل هذا المشروع لمحو كنه خطاياهم، وعينا نائبا عنا قائدا لهذه الحملة، هو ابننا العزيز أديمار Adhemar أسقف لى بوى Le-Puy ومن ثـم فـإن كل من يقرر الذهاب فى هذه الرحلة فعليه أن يطيع أوامره كما لو كانت صـادرة مـنا، كما يجب أن يخضع لسلطانه تماما فى الحل والعقد فى أية قرارات تتصل بعمله"(٥).

وواضـح مـن هذه الرسالة أن البابا قد اختار قائدا روحيا للحملة فى الوقت نفسـه هـو أسقف لى بوى، ولم يعقد لواء الزعامة لأى من الأمراء الذين خرجوا

---

(٥) URBAN II, to all the faithful in flanders, December 1095 وراجع أيضا الترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق ص٩.

بجيوشهم فى هذه الحملة مثل جوزفروى دى بوايون Gogfrey de Bouillon دوق اللوريــن، وبوهيمند Bohemond النورمانى، وستفن كونت بلوا Stephen Count Blois، وريمونـــد Raymond الصــنجيلى Sanit-Giles أمير تولوز Toulouse، وإن كان الأخير قد حظى بصحبة المندوب البابوى له مما أوحى بأنه من المقربين!

وفـــى التاســـع عشـــر مـــن سبتمبر عام ١٠٩٦ كتب إلى أتباعه فى بولونيا Bologna يقول ضمن إجراءات تنظيمية: "... علمنا أن كثيرين منكم قد استبد بهم الشوق للذهاب إلى أورشليم، وذلك شيء أثلج صدورنا، وليكن معلوما لديكم أن كل مـــن يمضــــى إلى هناك، لا من أجل مكاسب دنيوية، بل فى سبيل تحرير الكنيسة وخـــلاص أرواحهم، فإننا بمقتضى السلطة المخولة لنا وسلطة أساقفتنا الكبار وكل أساقفة الغال، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثوليكية، نعفيهم من التكفـــير المفـــروض علـــيهم بسبب خطاياهم التى اعترفوا بها، وذلك لأنهم قدموا أموالهـــم وحـــياتهم فى حب الرب والجيران، أما الأساقفة والرهبان فلا يسمح لهم بالرحيل قبل الحصول على موافقة أساقفتهم ومقدمى أديرتهم، ويجب أن يوضع فى الاعتـــبار أن الشـــباب حديثى الزواج لا يفضل أن يقوموا برحلة طويلة كهذه دون موافقة أزواجهم، وليساعدكم الرب العظيم"(٦).

وبعد ثلاثة أسابيع من هذا التاريخ، أى فى السابع من أكتوبر ١٠٩٦، أرسل إلـــى جماعة دير "فالومبروسا" Vallombrosa يقول: "لقد نما إلى علمنا أن بعضا مـــنكم يـــريد الانطـــلاق مـــع الفرسان الذاهبين إلى أورشليم بنية خالصة لتحرير المســـيحية، وهذا النوع من التضحية الحقة، غير أنها جاءت من أفراد غير مؤهلين لذلـــك، فنحـــن نستنفر أفئدة الفرسان للقيام بهذه الحملة لأنهم هم القادرون على كبح جمـــاح المســـلمين بأسلحتهم، وإعادة الحرية للمسيحيين ونحن لا نريد لأولئك الذين هجـــروا دنيا الناس، ونذروا أنفسهم لجهاد الروح، أن يحملوا السلاح أو يذهبوا فى هذه الحملة"(٧).

---

(٦) URBAN II, to his Partisans in Bologna 19 September 1096-، وراجـــع الـــترجمة العربية عند قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٩١ .

(7) URBAN II, to the religious of the Congregation of Vallombrosa 7 October 1096 وراجع الترجمة العربية عند، قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص٩٢.

ولضح تماما من هذه الرسائل التى جئنا على طرف منها هنا، وتلك التى أوردتها المصادر ولم نذكرها، ومن خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت، أن البابوية قد وضعت نفسها من البداية فى موضع الزعامة الروحية والسياسية للحركة الصليبية، أما الأولى فلا سبيل إلى الشك فيها أو النيل منها، وأما الثانية - وقد خاطبت البابوية الفرسان دون الملوك - فكانت تعنى صراحة إعلان الحرب على السلطة الزمنية فى أوروبا ودون مواربة. فالأمراء يدينون بولائهم السياسى - ولو من الناحية النظرية فقط، لملوكهم باعتبارهم أقصالهم الإقطاعيين، وقد أقسموا لهم بمقتضى أعراف النظام الإقطاعى السائد يمين الولاء والتبعية، وهو اليمين الذى حاج به زعماء الحملة الأولى الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس كومننوس Alexius Comnenos وهم مثول فى حضرته قبل عبورهم البسفور فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة. ورغم أن الأمراء وملوكهم يدينون بالتبعية الروحية للبابوية، إلا أن مخاطبتهم من وراء ظهور سادتهم الإقطاعيين، حتى ولو كان من جانب خليفة القديس بطرس الآن، ونائب المسيح Vicarius Christi من بعد، يعد اعتداء على حقوق السيادة الزمنية، وانتهاكا لفرضيات النظام الإقطاعى الباسط كفيه على أوروبا آنذاك، والقاضية "برابطة تعاقدية تحت زعامة الملك باعتباره ممثلا لقمة الهرم الإقطاعى"[٨]، رغم أن هذه "القمة" كانت طيلة العصر الوسيط تمثل المكانة وتخلو من السلطة!!

ولما كانت البابوية تدرك ذلك تماما، فقد سعت حثيثا لتضع نفسها هى الأخرى فى مصاف الملوك الإقطاعيين، وسعت فى هذا السبيل خطوها حتى أمسى البابا بدوره سيدا إقطاعيا تفوق سلطته الإقطاعية سلطة الملوك، وبدأ هذا الاتجاه واضحا حتى قبل أن تتسع الهوة بين البابوية والسلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطورية. ففى عام ١٠٧٣ كتب جريجورى السابع Gregory VII فى أول عهده بالعرش البابوى، رسالة "إلى كل الأمراء الراغبين فى الذهاب إلى إسبانيا"[٩]

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جزءان القاهرة ١٩٨٣، الجزء الثانى ١٩٨٦ ص ٢٧٣؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣، ص٤٢٢.

(9) GREGORY VII, to Princes wishing to reconquest Spain, 1073

جـاء فـيها: "هـا هو كونت إفولوس Evolus صاحب روشيو Roceio وصاحب الشـهرة الفائقـة، رغب فى مهاجمة تلك الأراضى لاستخلاصها من أيدى الوثنيين (يعنى المسلمين فى الأندلس)، ومن ثم أعطيناه الحق فى امتلاك كل الأراضى التى يستردها بنفسه أو بمساعدة حلفائه، وكان ذلك بموافقاتنا نحن ممثلى القديس بطرس، فـإذا حذوتم حذوه وسعيتم سعيه، كان سعيكم مشكورا، أما إذا فكر أحدكم أو خطط لمهاجمة تلك الأراضى منفردا أو لحسابه الخاص .. فليكن معلوما لديكم جميعا أنه من الخطأ البين أن تغضبوا القديس بطرس باستيلائكم لحسابكم على تلك الأراضى، فتمسون بذلك شأن الوثنيين" .

وإذا كـان جـريجورى السابع قد استفتح ولاية عهده البابوى بتأكيد سيادته الإقطاعـية تجاه الأمراء، فإنه ثنى ذلك فى العام التالى (١٠٧٤) بدعم هذا الادعاء إزاء الملـوك؛ فقـد كتب إلى "سولومون" Solomon ملك المجر[10] يقول فى لهجة متغطرسة تنم عن شخصيته" .. تستطيع أن تقف من أمرائك على أن مملكة المجر ترتـبط بالكنيسـة الرومانـية المقدسة، وهذا يستتبع بالضرورة خضوعها وتبعيتها للقديس بطرس .. غير أنه نما إلى علمنا أنك وافقت على قبول المملكة كإقطاع من الملك الألمانى (لم يكن هنرى الرابع قد توج حتى ذلك الحين إمبراطورا)، وهذا يعد انـتهاكا لحقوق القديس بطرس، وهو سلوك لا يتفق وأخلاق الملوك وفضائلهم. فإن أردت أن تـنال بـركة القديـس بطرس ورضانا، فعليك أن تبادر إلى إصلاح هذه الخطايـا الـتى أثمتها يداك، ولا شك أنك تعلم جيدا أنه ليس لك أمل فى أن تحظى بالعدالة، أو تضمن لنفسك على عرشك عمرا مديدا، إلا إذا تلقيت صولجان سلطانك من يد البابا وليس من الملك. ولما كان الله قد منحنا القوة، فإننا لن نسمح أبدا تحت أى تهديد أو خوف أو اعتبارات شخصية بتدنيس مجد وكرامة من نحن على خدمته قـائمون. وإذا أردت أن تصوب خطى مسارك وأن تسلك سلوك الملوك، فعليك أن تكتسب محبة الأم .. الكنيسة الرومانية المقدسة .. وصداقتنا فى المسيح".

---

(10) GREGORY VII, to solomon King of Hungary 1074

والرســالة بكــل ما فيها من عجرفة دالة على ملامح العصر الجريجورى، تنبــئ عن المكانة الإقطاعية التى عملت البابوية على تحقيقها، حتى تطاول الملوك مكانــتهم فى حربها معهم، مضافا إليها مكانتها الروحية التى تدل على الجميع. وقد يــدور بخلــد بعــض أن جريجورى فعل ذلك ضمن برنامجه الإصلاحى، وأنه لا علاقــة لــه بالفكرة الصليبية لدى البابوية، وأن هذه الرسائل وأشباهها سابقة على مجمــع كليرمونت. غير أن الحقيقة التاريخية توقفنا على أن الفكر الصليبى البابوى قــد قر فى ذهن جريجورى قبل أوربان الثانى بعشرين سنة كاملة، وأن الاتجاه إلى الشــرق فــى حملة صليبية كان من بنات أفكار جريجورى السابع نفسه؛ ففى عام ١٠٧٤ وجــه نداء عاما "إلى الراغبين فى الدفاع عن الإيمان المسيحى"(١١) افتتحها بالحديــث عــن الولايــات التى حلت بالمسيحيين فى الشرق، والاضطهادات التى تعرضــوا لهــا علــى يــد المســلمين، ومــا تعانــيه الإمبراطورية فى الشرق، والاضــطهادات التى تعرضوا لها على يد المسلمين، وما تعانيه الإمبراطورية فى الشــرق مــن خطــر داهــم من جانبهم، وهذا هو بعينه ما قاله أوربان الثانى فى كليرمونت، وصدر بها رسالته التى أوردناها من قبل.

وبعد هذا الحديث الذى يفيض حسرة وأسى، يوجه جريجورى السابع الدعوة لحملــة صــليبية لإنقاذ مسيحى الشرق. يقول "نحن نثق فى رحمة الله. كما نثق فى قدرتــه وســوف نبذل كل ما فى وسعنا لعمل الاستعدادات اللازمة لتقديم يد العون للإمــبراطورية المســيحية (يعنى البيزنطية) فى أسرع وقت ممكن، ومن ثم فنحن نناشــدكم بالإيمان الذى ألف بينكم فى المسيح، وسلطة القديس بطرس أمير الرسل أن تــتحركوا بكــل الحــنو إزاء جرحات ودماء إخوانكم ... لإنقاذهم مما يعانون، ولتــتحملوا الصعاب مهما كانت من أجلهم، ونبئونى بما سيهديكم الله إلى عمله فى هذا السبيل"(١٢).

---

(11) GREGORY VII, calls for a Crusade, 1074

(١٢) Setton (K.), A history of the Crusades, وراجع أيضا Id.1989, Vol. I, pp. 222-223
Six Vols, Philadelphia, 1955.

كانت هذه الرسالة فى الأول من مارس عام ١٠٧٤، وما أن وافى شهر سبتمبر من العام نفسه، حتى بعث برسالة إلى وليم السابع دوق أكويتين Aquitaine وكونت بواتو Poitou جاء فيها أن التقارير تفيد بهدوء الأحوال فى الشرق، وأن المسيحيين هناك بدأوا يستردون ثقتهم فى أنفسهم ثانية؛(١٣) وأن علينا التريث حتى نرى ما يطالعنا به المستقبل(١٤) . ولم تكد تمضى على ذلك أشهر ثلاثة، حتى كتب إلى هنرى الرابع Henry IV ملك ألمانيا فى الأيام الأخيرة لعام ١٠٧٤ يقول: "أود أن ألفت انتباهكم إلى أن المسيحيين فيما وراء البحار يعانون من اضطهاد وذبح المسلمين لهم كما تذبح الشياه، وأنهم كتبوا إلى مستجيرين .. وليكن معلوما لديك أن هناك خمسين ألف رجل على أتم استعداد للقتال تحت قيادتى كما أنى أقترح بعد أن ينفذوا مهمتهم أن يواصلوا تقدمهم حتى قبر المسيح"(١٥). ولعل هذا ما دعا المؤرخين Edgar H. McNeal, Oliver J. Thatcher إلى الاعتقاد بأن ما حدث فى عام ١٠٩٥ لم يكن يختلف كثيرا عما دعى إليه فى سنة ١٠٧٤، وأن البابا أوربان الثانى عندما وجه الدعوة للحملة الصليبية فى كليرمونت، لم يكن فكره يحتوى على شئ أكثر مما اشتمل عليه فكر جريجورى السابع الذى كشفت عنه رسالته هذه(١٦). وإذا كان جريجورى السابع لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ برنامجه الصليبى إلى حيث يبتغى، نتيجة للصراع الذى نشب على الفور بينه وبين هنرى الرابع مستترا برداء التقليد العلمانى، فإنه يعد بلا شك صاحب اللبنة الأولى فى بناء صرح الحركة الصليبية، والتى تعهدها أوربان الثانى من

---

(١٣) لعل جريجورى يشير هنا إلى التحالف المؤقت الذى جرى فى منتصف عام ١٠٧٤بين الإمبراطورية البيزنطية وبعض زعماء السلاجقة، مثل أرتق وسليمان بن قطلمش. للقضاء على الحركة التى قام بها "روسل باليل" Roussel of Bailleul لإقامة دولة نورمانية مستقلة عن الإمبراطورية فى آسيا الصغرى، وأدى هذا التحالف المؤقت إلى هدوء الأمور نسبيا فى المنطقة بين البيزنطيين والسلاجقة. راجع، أسد رستم، الروم، جزءان، بيروت ١٩٥٦ الجزء الثانى، ص١١٢-١١٣؛ سيد أحمد على الناصرى، الروم، القاهرة ١٩٩٣، ص٣٧٩-٣٨١؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور الكسيوس كومننوس، القاهرة ١٩٨٣؛ ص٨٢ – ٨٧.

(14) Setton, Crusades, Vol. I,p. 223

(15) Ibid. p.224

(16) Thatcher (O.) & McNeal (E.), A Source book of Mediaeval History, New Youk, p.512

بعـــده وبالرعاية الكاملة حتى ليعد بحق هو صاحب الجانب العملي التطبيقي منها دون شك، ودون أن ينازعه في ذلك أحد.

واســتكمالا لمشروعه وجه جريجوري السابع في السادس عشر من ديسمبر ١٠٧٤ دعــوة عامة للمؤمنين عبر الألب للمشاركة في حملته المقترحة،وكتب إلى حليفـته الكونتيســة ماتـيلدا Matilda أميرة تسكانيا Tuscany يدعوها مصاحبة المبراطورة الأم "أجنى" Agnes التي من المتوقع ذهابها إلى الشرق مع الذاهبين- وضـمن رســالته إلـى هنرى الرابع التي تحدثنا عنها توا - طلبا بأن يقوم الملك الألماني بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة ومباشرة شئونها ويوصيه بها خيرا أثناء غــيابه في الشرق قائدا للحملة؛ ويعتبر "فردريك دونكالف Frederic Duncalf"[١٧] ما أقدم عليه جريجوري السابع في وصيته هذه لهنري الرابع "نوعا من السذاجة" . بينما لانرى فيها إلانوعا من خبث "شيطان مقدس" على حد وصف بطرس الدمياني لــه[١٨]. فهوقــد جعــل من نفسه داعية لحملة صليبية تتجه إلى الشرق بهدف انقاذ المســيحيين الشــرقيين فــي الإمبراطورية البيزنطية، الذين كان هو نفسه يعتبرهم "خارجيــن عــن عقيدة الكنيسة الجامعة"[١٩] ونصب نفسه قائدا عسكريا للحملة إلى جانــب كونـــه زعيما روحيا. فكأنه بذلك اختص شخصه بجانب من سلطة الملوك، الحكــام الزمنيين، والإيحاء إلى هنرى برعاية شئون الكنيسة الرومانية في غيابه، يجعــل من هنرى نائبا عنه، أو يعتبر أشد تحديدا، فصلا إقطاعيا تابعا له، وهذا هو جانـــب "الخبث" في "الشيطان المقدس" وليس "نوعا من السذاجة" يؤكد قولنا هذا ما يذهــب إلـــيه "أولمـــان"[٢٠] Ullman من أن هذه الحملة المقترحة لجريجوري كان صـــاحبها يرمى بها من طرف خفى إلى هدف سياسى آخر، وهو أنه كان يأمل من مجـــرد إشـــاعة أن هـــناك خمســين الأف مقاتل رهن إشارته، وإظهار هذه القوة

(17) The Councils of Piacenza and Clermont (in Setton, Ahistory of the Crusaades, Vol. I,p.224).

(18) Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050-1300, U.S.A. 1964, p.46

(19) Setton, Crusades. I,p.224.

(20) Ullmann (W.), A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London, 1974, pp.150.

العسكرية المزعومة، أن تخف أو تتوقف حدة هجمات النورمان غير المستقرين فى جنوب إيطاليا على الممتلكات البابوية.

وتدعم مجريات الأحداث ما ذكرناه، ففى الثانى والعشرين من يناير ١٠٧٥، وبعد أقل من شهر من رسالته إلى هنرى، كتب إلى هيو Hugh مقدم دير كلونى ورئيسه السابق، عندما كان راهبا يحمل اسم "هيلد براند" Hildebrand رسالة لم يعرج فيها بشيء أبدا على حملة عسكرية ينوى قيادتها لمساعدة البيزنطيين. وإن كان قد أظهر فى الوقت نفسه تبرمه "لانسلاخهم عن حظيرة الإيمان الكاثوليكى"[٢١]. وفى العام نفسه بدأت أولى حلقات الصراع بينه وبين السلطة الزمنية فى أوروبا عامة وألمانيا خاصة، عندما أعلن صراحة عن برنامجه الإصلاحى بمحاربة "السيمونية"، أى بيع الوظائف الكنسية، وعدم التعامل مع رجال الدين المتزوجين، ثم أعلن رفضه التام للتقليد العلمانى، مما نكأ جرحا لم يندمل بين البابوية والملوك حتى نهاية العصور الوسطى، وتحول بعد حين يسير من بدايته إلى نزيف مستمر بين القوتين حول السيادة العالمية[٢٢].

ومما يوضح بجلاء نيات جريجورى السابع فى صليبية من نوع خاص إزاء السلطة الزمنية، أنه ما إن بدأ الصراع مع هنرى، حتى نحى جانبا السعى لكسب أى صداقة مع بلاط القسطنطينية، بل على العكس قلب لها ظهر المجن تماما، فبارك الغزو النورمانى للأراضى الإمبراطورية فى شبه جزيرة البلقان، فى محاولة لصرف انتباههم بعيدا عن ممتلكات البابوية فى إيطاليا. وأصدر قرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور "نقفور الثالث بوتنياتس Nicephorus III Botaniates تحت دعوى أنه عزل صديقه ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ وشجع روبرت جويسكارد Robert Guiscard النورمانى عندما أعلن عزمه على إعادة ميخائيل إلى عرشه[٢٣]. وأنعم على أمير زيتا Zeta، إحدى دويلات البلقان الدائرة

---

(21) Setton, Crusades, I,p. 224

(٢٢) لمزيد من التفصيلات عن هذا الصراع، راجع الفصل الأول.

(23) Setton, Crusades, I,p.224 وأيضا Runciman, (S.), A history of the Crusades, 3 vols. London 1965, vol, I, pp. 69,99

فـــى فلـــك الإمـــبراطورية البيزنطية، بالتاج هبة منه ليجذبه إلى صف الكاثوليكية، ضـــاربا هـــو والأمـــير عـــرض الحائط بالإدعاءات البيزنطية. ومع أن الكسيوس كومـــنزس، فـــى محاولـــة منه لإزالة الخلاف بين القسطنطينية وروما، جدد رغبة ميخائيل السابع فى الاستعانة بجند مرتزقة من الغرب الأوروبى، إلا أنه لم يجد من جريجورى آذانا صاغية، فأقدم كرد فعل لغيظه على إغلاق الكنائس الكاثوليكية فى العاصـــمة الإمـــبراطورية، وراح أهلوهـــا يـــنظرون إلى البابا الرومانى باعتباره متواطـــئا مـــع النورمان، وأطلقت النكات الساخرة فى المدينة محدثة باستهزاء عن غطرسة جريجورى وعجرفته(٢٤).

هـــذه الفعـــال التى مارسها جريجورى السابع لا يمكن أن تنسب مطلقا إلى زعيم روحى، بقدر ما ترتبط ارتباطا وثيقا بملك إقطاعى يمارس كل شئون السلطة الزمنـــية، أو على حد تعبير "ستيفن رنسيمان(٢٥)" Steven Runciman فإن البابوية أمسكت دفة الحرب "المقدسة" – فى عرفها – وراحت توجهها كيف تشاء، فهى التى تدعو إلى هذه الحرب وتطلقها وتعين قادتها، أما الأراضى التى يتم الاستيلاء عليها فهـــى تحت الحماية الكاملة والسيادة البابوية. ومن هنا لم نكن مبالغين عندما ذكرنا مـــن قبل، إن دعوة أوربان الثانى فى كليرمونت، ورسائله العديدة التى وجهها إلى الأمـــراء، هـــى والدعوة العامة للأمراء دون الملوك، بمثابة إعلان لحرب صليبية تـــدور رحاها فى أوروبا بين السلطة الزمنية ممثلة فى الملوك والإمبراطورية من ناحية، والسلطة الروحية الزمنية مجتمعة فى البابوية!

لـــم يكـــن غريبا إذن أن يطلق جريجورى السابع فكرة القيام بحملة صليبية لانقـــاذ مســـيحى الشـــرق طلاقا بائنا لا رجعة فيه، وأن يوجه كل جهده الآن لشن حرب صليبية أخرى فى الغرب الأوروبى ضد الحكام العلمانيين وأصحاب السلطة الزمنـــية من الملوك، طيلة عشر سنوات تالية (١٠٧١–١٠٨٥)، ولم يقلع عنها إلا

(24) ANNA COMNENA, The Alexiad, translated from the Greek by E.R.A. Sewter Penguin book 1969, pp.61-65

(25) Crusades, I,P. 92

عـندما جاءته رسل الموت تتوفاه، بحكم الارتباط الحتمى القائم بين ألمانيا وإيطاليا، باعتبار الملك الألمانى هو الإمبراطور الرومانى الذى يتلقى التاج من البابوية.

وبغض النظر عن قرار الحرمان الذى أصدره جريجورى السابع ضد هنرى الرابع فى فبراير ١٠٧٦، والذى قاد إلى الإذلال الشهير للملك الألمانى فى كانوسا، وراح يضرب به المثل، فإن القرارات والمراسيم البابوية الصادرة عن جريجورى السابع تباعا، حتى قبل صدور قرار الحرمان هذا، كانت تعنى فى جوهرها إعلان الحـرب صراحة ضد السلطة الزمنية وممثليها فقد كان من بين ماتضمنته أن للبابا وحـده الحق فى أن يقبل الأمراء منه القدم وكان هذا يعنى أمرين : أحدهما أنه لن يـنال هـذا الشرف إلا أصحاب الحظوة الذين سوف يسمح لهم البابا بذلك من قبيل التـبرك. والآخـر أن البابا بذلك يوجه ولاء الأمراء له دون الملك، وهذا هو بيت القصـيد. ومن ثم كان لابد أن يتبع هذا المرسوم بآخر يعد تتمة طبيعية له ومقدمة لما هو آت يقول فيه: "من حق البابا عزل الأباطرة"، ثم يعلن الحرب صراحة على كـل مخالفـيه تحت دعوى ماقدم به مراسيمه من أن الكنيسة الكاثوليكية لم تخطئ طـيلة ما مضى من عمرها ولن تخطئ فيما بقى لها من عمر، "ليس بكاثوليكى كل مـن يخـالف الكنيسـة الرومانية، ولن ينعم بالسلام" وكان هذا التحول من حرب صـليبية باتجاه الشرق يقودها بنفسه، إلى حرب صليبية أخرىَ فى الغرب يحركها ويؤجـج نـيرانها بقداسـته ضد الملوك، هى الركيزة الأساسية التى استندت عليها البابوية فى سياستها الآتية، واستغلتها استغلالا كاملا لتحقيق أغراضها الأساسية فى الشرق والغرب على السواء.

لقـد كانت دعوة الأمراء وحدهم للقيام بهذه المهمة، تعنى بتعبير دقيق سحب البساط من تحت أقدام الملوك وتجريدهم من أهم دعامتين تعتمد عليهما عروشهم .. أعنى المال والجنود فالملك – فى ظل النظام الإقطاعى – لم يكن يعدو فى كثير من الأحيان "الأول بين أقرانه" Primus inter Pares يمتلك مساحات من الأرض، ربما تزيد ممتلكات بعض أفصاله عنها أحيانا، ويعتمد فى دخل خزانته على ما يقدمه له أمـراؤه فـى مناسـبات بعينها، دون أن يأخذ فى شكله صفة الضريبة، بل معنى

الهدية. ويرتكز في جيشه على جيوش الأمراء في أي حرب يخوضها، بتعبير آخر كان الأمراء هم مصدر قوة الملك أو مصدر ضعفه في الوقت نفسه، تبعا لشخصية الملك في المقام الأول. ولما كان النظام الإقطاعي، بمسألة الوراثة فيه، والقائمة على توريث الابن الأكبر وحرمان بقية الأبناء تجنبا لتفتت الملكية الزراعية، قد خلق مجموعة من الأمراء المغامرين بلا أرض، لم يفلح ميدان الاسترداد في الأندلس في تعويض خسرانهم، فقد أصبحوا على استعداد لبيع ولائهم لمن يقدم لهم أرضا أو وعدا بأرض، كما هي الحال مع البابوية، وأدركت الأخيرة في الوقت نفسه أنها إذا نجحت في استقطاب هؤلاء المغامرين، وضم غيرهم من الإقطاعيين، الطامحين، لحققت بذلك هدفها المزدوج بضربة واحدة، السيادة في أوروبا - بالدفاع عن قضية المسيحيين في الشرق، وإحياء الحلم القديم الذي يؤرق جفنها منذ القرن الخامس الميلادي ويلح عليها باستعادة سيطرتها على كنيسة القسطنطينية.

ولا شك أن هذا كله كان ماثلا في ذهن أوربان الثاني، كما كان ماثلا أيضا في ذهن جريجوري السابع من قبل، ومع أن أوربان لم يكن له صلف سلفه، ولم يكن في الوقت نفسه ضعيفا، إلا أنه كان يفضل دائما أن يتجنب المواجهة السافرة مع خصومه[٢٦] ومن ثم لم يجد حرجا في أن يشارك بكل ما يستطيع في المؤامرة التي دبرها الأمير الألماني كونراد conrad ضد أبيه الإمبرطور هنري الرابع[٢٧]. ولم يكن ذلك بدعا، بل كان سنة وضعها أوربان الثاني وسار عليها خلفاؤه من بعد في علاقتهم بفردريك الثاني وابنه هنري السابع وابني فردريك الثاني أيضا كونراد ومانفرد Manfred.

ولم تتنازل البابوية أبدا طيلة صراعها مع السلطة الزمنية عن ادعاءاتها بالسيادة الإقطاعية، لتشارك الملوك بذلك حقوقها باعتبارهم قمة الهرم الاجتماعي. ولعل أوضح الأمثلة على ذلك، تلك المعاهدة التي وقعت بين وليم الأول ملك صقلية والبابا هادريان الرابع، والتي يعترف فيها الملك النورماني بالتبعية الإقطاعية للبابا،

(26) Brooke (Ch.), Europe in the central Milddle Ages, 962-1154, Longman-london 1966, pp. 186-187.

(27) Runciman, Crusades I, p, 101.

وحصوله على مملكته كإقطاع من البابوية[٢٨] والمحاولة التى قام بها البابا نفسه مع الإمبراطور فردريك الأول Frederick I عندما أعلن فى رسالة بعث بها إليه، أن إمبراطوريته لا تعدو أن تكون إقطاعا Beneficium بابويا، وما ترتب على ذلك من حادثة "بيزانسون" Besancon الشهيرة عام ١١٥٧، والتى عرفت الإمبراطورية منذ ساعتها بـ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة"[٢٩].

وكانت صقلية فى الجنوب، وتسكانيا فى الشمال هما حزام الأمن للبابوية، ومن ثم سعت بكل ما وسعتها الطاقة لتظل المنطقتان تحت سيادتها الإقطاعية، وقد تحقق هذا بالنسبة لصقلية على النحو الذى قدمنا الآن، إلى أن تمكن فردريك الأول من توجيه صفعة قوية للبابوية عندما خطب "كونستانزا" "Constance" وريثة عرش النورمان لابنه هنرى السادس، الذى خلفه على عرش الإمبراطورية، وكان ذلك يعنى خنق البابوية ووقوعها بين فكى الكماشة الألمانيتين، فظلت تتحين الفرص حتى إذا سنحت إحداها لم تتردد مطلقا فى اهتبالها، فحصلت من فردريك الثانى فى عام ١٢١٣ على اعتراف بسيادتها على صقلية كإقطاعية تابعة لها[٣٠] ، ثم أجبرته على أن يقدم وعدا فى عام ١٢١٦، قبل أن يتوج إمبراطورا بأربع سنوات، على أن تنفصل صقلية عن التاج الإمبراطورى، وتمسى مملكة مستقلة يحكمها ابنه هنرى إقطاعا من البابوية[٣١]. ولما لم يلتزم فردريك بهذه الوعود من بعد، شنتها البابوية حربا ضروسا عليه وعلى أسرة "الهوهنشتاوفن" Hohenstaufen كلها حتى تم لها إعدام آخر أفرادها "كونرادينو" Conradino فى نابولى عام ١٢٦٨.

أما تسكانيا فكانت أميرتها ماتيلدا صديقة للبابوية وساندتها كثيرا فى سبيل إعلاء سيادتها، إلى الحد الذى تنازلت عن الدوقية وكل ممتلكاتها فى إيطاليا

---

(28) TREATY between ADRIANIV and WILLIAM I OF SICLY 1156

(٢٩) ADRIANIV, Letter to Frederick I, September 1157 وللوقوف على تفاصيل حادثة بيزانسون، راجع، الفصل الأول.

(30) PROMISE OF FREDERICK II TO INNOCENT III, 1213

(31) PROMISE of FREDEICK II to resign Sicily after his Coronation as Emperor 1216

وألمانـيا" للبابوية[32]، وكان هذا يعنى امتدادا هائلا باتجاه الشمال للسيادة الإقطاعية للبابا، غير أن الأباطرة رفضوا الاعتراف بهذه الوصية، محاجين بأنه ليس من حق الأميرة أن تتصرف فيما يخص الإمبراطورية وحدها.

ولتنفـيذ ذلك أسرع هنرى الخامس بجيشه إلى إيطاليا، إبان نزاعه مع البابا باسـكال الثانى Paschal II ليكره "ماتيلدا" على إلغاء وصيتها السابقة وتعديلها إلى الإمـبراطورية بدلا من البابوية![33]، وأكد الإمبراطور لـوثير الثالث Lothair III هـذه المسـألة ثانيا بعد مفاوضات مع البابوية، وليمنحها فردريك الأول برباروسا إقطاعا لعائلة الولفيين Welfs فى أول عهده بالعرش الألمانى[34].

والـذى يلفـت الـنظر أن هـذه الرغبة البابوية الجامحة فى إضفاء الصفة الإقطاعـية على أنفسهم مزاحمة لأصحاب السلطة الزمنية، الملوك، امتدت عدواها بالـتالى إلـى كل رجال الأكليروس فى الكنيسة الكاثوليكية، بحيث أصبح المساس بهـذه الحقـوق الإقطاعـية إعـتداء يسـتدعى إعلان حرب صليبية ضد الأمراء العلمانييـن، حـتى اكتسـب رجـال الديـن الصفة نفسها، وأمسوا بالتالى "أمراء أكليروسـيين" يفوقـون قـرناءهم العلمانييـن بالإعفـاء من الالتزامات الإقطاعية المفروضـة علـى هؤلاء الآخرين باعتبارهم أفصالا إقطاعيين تابعين للملك. ولم يتعرضـوا لمـثل هـذا الالتزام إلا عندما فرض البابا إنوسنت الثالث Innocent ضريبة على دخولهم بدأت بواحد على أربعين من الدخل عام ١١٩٩، غير أن هذه الضـريبة لقيـت معارضـة شديدة من جانبهم، حتى اضطر فى عام ١٢١٣ إلى الإحجـام عـن الاسـتمرار فى فرضها، غير أنه عاد فى عام ١٢١٥ إلى تجديدها ثانية، وحددها بواحد على عشرين من دخول رجال الاكليروس عامة[35].

---

(32) COUNTESS MATILDA gives all her lands to the church 1102

(33) Barraxlough (G.), The Origins of Modern Gemany, Oxford, 1947 , p. 129

(24) Thompson (J.) & Johnson (E.), An introduction to Medieval Europe, New York, 1965, p.394

(35) INNOCENT III begins the taxation of the Church for the Cruades, 31 December 1199; INNOCENT III Legislates at the fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215

ومن أطرف ما يمكن أن يذكر هنا فى هذا المجال، أن مسودة الاتفاق الذى انتهى إليه أمر المفاوضات التى دارت بين الامبراطور هنرى الخامس والبابا باسكال الثانى سنة ١١١١ تضمنت اعتراف البابا بالتنازل عن الأراضى والحقوق الإقطاعية التى حصلت عليها الكنيسة منذ أيام شارلمان حتى تاريخه[٣٦]، وتحرم على أى أسقف أو كاهن، مقيدين إياه بقيود اللعنة، أن يمتلك أى شئ من تلك الامتيازات فى المدن والدوقيات والماركيات والكونتيات، وكذلك دور الضرب والأسواق والمكوس ومكاتب المحاماة والضياع التى تتعلق بالإمبراطورية، وكل ما يتصل بهذه الأمور، وكذلك امتلاك القلاع وأداء الخدمة العسكرية. ومن الآن فصاعدا لن يتمسك رجال الاكليروس بأى من هذه الأمور، إلا بناء على رغبة الملك .. ذلك أنه من الضرورى أن يتطهر الأساقفة من كل الأعباء الدنيوية، وأن يكرسوا كل وقتهم لرعاية شعب الكنيسة، وأن لا يتغيبوا طويلا عن كنائسهم، أو لم يقل بولس الرسول ".. لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حسابا (الرسالة إلى العبرانيين ١٣/١٧)".

وأقوال باسكال الثانى هذا اعتراف صريح بالحال الذى وصل إليه رجال الدين فى القرن الثانى عشر الميلادى، القرن الزاهر للحركة الصليبية وهى فى عنفوانها، فقد تحولوا من رجال اكليروس إلى رجال أعمال وتجار ومحامين وجنود عسكريين، ومالكى مناطق جمركية ودور للضرب وأسواقا، ومصالح وظيفية واقتصادية فى المدن والدوقيات والكونتيات والقلاع. بتعبير آخر أن الرعاية الروحية أمست لديهم فقط مجرد رداء كهنوتى يحمل فى أكمامه كل هذه المصالح الدنيوية. وباسكال الثانى يفتتح اعترافه هذا بقوله، "الكهان جميعهم ممنوعون — بمقتضى الكتاب المقدس والقوانين الكنسية من أن يشغلوا أنفسهم بالشئون الدنيوية".

نقول إن الطريف هنا هو أن الأساقفة جميعا رفضوا الموافقة على هذا المشروع ، فقد كان معناه أن يفقدوا كل ما كان لهم من ممتلكات وضياع وثروة وبالتالى الجاه والنفوذ، ومن ثم يعود بهم الحال حيث أراد بولس الرسول "فإن كان

(36) PASCHAL II, The first Privilege Which he grated to Henry V, February 12, 1111

لكـــم محـــاكم في أمور هذه الحياة فأجلسوا المحتقرين في الكنيسة قضاة" (الرسالة الأولـــى إلى أهل كورنثوس ٦/٤) وهو ما نبه إليه باسكال الثاني في هذه الاتفاقية المقـــترحة. وأعلـــن الأســـاقفة الألمان والإيطاليون المحتشدون في كنيسة القديس بطـــرس بروما عصيانهم وتمردهم على كل ما جاء في مشروع الاتفاق هذا[٣٧] فقد ولـــدت الكنيسة ظهرها للبساطة منذ قرون طويلة، وأصبحت الآن والبابا على رأسها ركنا أساسيا من أركان النظام الإقطاعي، والبابا على قمته مشاركا الملوك في ذلك، وكان باسكال الثاني يمثل بمشروعه نغمة شاذة وسط هذا اللحن الإقطاعي الذي لابد أن يظل البابا وإكليروسه يعزفون عليه حتى تصفق له السلطة الزمنية وهي كارهة.

مـــن هـــذا كـــان أوربان الثاني واعيا تماما لما يفعله عندما وجه خطابه إلى الأمـــراء في كليرمونت، وبعث من بعد برسائله العديدة إليهم، وغض الطرف تماما بشـــكل عمدي عن الملوك، وجعل من نفسه ــ كما فعل سلفه. جريجوري السابع ـ سيدا إقطاعيا ينافس الملوك سلطانهم الزمني في ظل النظام الإقطاعي، واستند بهذه الطريقة إلى قاعدة إقطاعية عريضة من كبار الأمراء، ليجرد خصومه الزمنيين من ســـلاحهم الأساســـي الذي يعتمدون عليه، نعني الأمراء. ومن ثم كانت الدعوة التي وجهـــت من كليرمونت لحمل الصليب والاتجاه إلى الشرق لحرب المسلمين، تعني صـــراحة ـ كمـــا أســـلفنا إعلانا للحرب على السلطة الزمنية في أوروبا ممثلة في الملـــوك والإمـــبراطور الروماني ملك ألمانيا. وكان هذا واضحا تماما في السياسة التي اتبعها أوربان الثاني تجاه ملوك أوروبا المعاصرين لهذه الدعوة.

ففـــي ألمانيا كان هناك الإمبراطور هنري الرابع، صاحب الملحمة الشهيرة مـــع الـــبابوية، والذي لم يغفر لها أبدا إذلالها له في كانوسا Canossa عام ١٠٧٧ ذلك الإذلال الذي أصبح مضرب الأمثال من بعد فيقال: "أذل من كانوسا". ولم تغفر لـــه هـــي مهانتها التي عانتها على يديه طيلة ثلاث سنوات سويا (١٠٨١-١٠٨٤) عـــندما راح يمـــتع ناظريه وهو يرى البابا جريجوري السابع أسير حصاره داخل

(٣٧) راجـــع تفاصـــيل ما دار في كنيسة القديس بطرس في ٢٢ فبراير سنة ١١١١ عند: سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول، ص٣٦٤-٣٦٥

روما لا يستطيع منها حراكا. فلما ارتحل عنها مع حلفائه النورمان جنوبا لم يكن يعدو أيضا أسير هؤلاء الحلفاء حتى مات عام ١٠٨٥ ولذا راح أوربان الثانى يؤلب عليه ولده كونراد سنة ١٠٩٣، وجاء باسكال الثانى ليثير ضده ابنه هنرى (الخامس فيما بعد) سنة ١١٠٤.

أما إنجلترا فكان على عرشها آنذاك وليم الثانى روفوس (الأحمر) William II Ruffs (١٠٨٧ - ١١٠٠)، ولم تكن علاقته بالكنيسة الرومانية تختلف عن تلك التى وضع قواعدها أبوه وليم الفاتح، الذى رفض أى صورة فى صور التبعية للبابوية، خاصة اعتبار إنجلترا إقطاعيا بابويا، وضرب عرض الحائط بالمساعدات التى قدمها له جريجورى السابع فى أول عهده. وأضاف وليم روفوس (الأحمر) إلى ذلك إثقال الكنيسة فى إنجلترا بالضرائب الباهظة، ولم يلتفت مطلقا إلى برامج الإصلاح الكنسى التى كانت ترفض التقليد العلمانى، فأخذ يعين الأساقفة ويعزلهم، وفى نوبة من نوبات المرض والخوف من الموت أقدم على تعيين القديس أنسلم Anselm رئيسا لأساقفة كانتربورى Canterbury، فلما عادت إليه حيويته اختلف مع أنسلم واضطره إلى الرحيل عن انجلترا[٣٨].

وعلى الشاطئ المقابل كان العرش الفرنسى يحمل فوق كرسيه الملك فيليب الأول Philip I (١٠٦٠ - ١١٠٨)، وخلال عهده الطويل الذى قارب الخمسين عاما سارت العلاقات بين فرنسا والبابوية من سيء إلى أسوأ، ذلك أن فيليب أصم أذنيه تماما أمام حركة الإصلاح الكلونى، والإجراءات الجريجورية الخاصة بالسيمونية والتى كان فيليب الأول يمارسها علانية مصعرا خده لكل التهديدات التى وجهها إليه بابوات عهده الطويل[٣٩] ولقد جر عليه ذلك بالإضافة إلى مناوءته المستمرة وتحديه للمراسيم البابوية، غضب البابا جريجورى السابع، ذلك أن فيليب، شأنه شأن ملوك زمانه جميعا، يؤمن أن سيطرة الملك الفرنسى على كل الأساقفة تمثل حجر الزاوية بالنسبة للملكية الفرنسية، خاصة أن الأساقفة ورؤساء الأساقفة

---

(38) Barlow (F.), The feudal Kingdom of England 1042-1216, London, 1974, pp.156-161

(39) Ullmann, A short history of the Papxy, p. 150

كانوا يسيطرون على مساحات واسعة تفوق أراضى الملك أحيانا، ولقد اعتقد فيليب الأول، ولــم يكــن ذلك بعيدا عن الصواب، كما اعتقد وليم الفاتح وسميه الثانى فى إنجلــترا، وملوك ألمانيا جميعا، أن إذعانه للسيادة البابوية سوف يقضى على مكانته وسيادته بشكل لا يمكن معه استعادتهما بعد ذلك مطلقا.

وإزاء هــذه السياسة التى كان يمارسها فيليب الأول، كان المجمع الذى عقد فــى بياكنزا Piaxenza فى مارس ١٠٩٥ فى شمال إيطاليا، قد اتخذ عدة قرارات ضــد الســيمونية وزواج رجال الدين، إلا أن البابا تدخل شخصيا حتى يمنع اتخاذ قــرار ضد فيليب الممارس العام لهذه الأمور، إلى أن يتمكن البابا من زيارة فرنسا مــن بعد[٤٠] وهو ما حدث بعد ذلك بقليل عند عقد مجمع كليرمونت، ولذا كان على فيليــب أن يقــف موقف المتفرج الذى ينتظر قرارا بالحرمان الكنسى وهو يشاهد أوربان الثانى يدعو لخروج الحملة الصليبية الأولى من فوق الأرض الفرنسية، ولا يستطيع المحروم أو من هو فى موقعه أن يحمل الصليب، ولن تقدم البابوية للملكية أى عون إذا حاول مليكها أن يقلد هنرى الرابع أو أن يحذو حذوه[٤١].

هذه هى الحال التى كانت عليها الملكيات الأوروبية الثلاث عشية الدعوة للحملة الصــليبية، وهــى الفرصة السانحة التى لن تجد البابوية توقيتا أكثر مناسبة منها لتنفيذ خطــتها وتحقــيق أهدافهــا فــى الداخل الخارج مجتمعة، فالملوك الثلاثة كانوا ذوى شخصــيات غريــبة، فمــع عدائهــم المشترك للبابوية وقدرتهم على تحدى برنامجها الإصــلاحى، وهــى ســمة سمعت بينهم فى حينها، إلا أنهم فى الوقت ذاته لم يكونوا أيضــا يحظون بتقدير أمرائهم أو أفصالهم فى الداخل لسياستهم العامة الرامية إلى إحكام ســيطرتهم كملــوك يمــثلون رأس النظام الإقطاعى، وهو ما يتعارض مع طبيعة ذلك الــنظام القاضــية بضعف السلطة المركزية وازدياد نفوذ الأمراء ومن ناحية أخرى لم تكــن علاقاتهم مع بعضهم البعض توحى بأى نوع من المودة أو التقارب؛ فالنزاع بين فرنسا وإنجلترا قائم على قدم وساق، يتخذ شكلا قانونيا وأشكالا عسكرية، منذ أقدم وليم

---

(40) Runciman, Crusades, I, p. 104

(41) Sxott (M.) Medieval Europe, London 1975, p.160

دوق نورمـــاندى، علـــى غـــزو إنجلترا عام ١٠٦٦ وإعلان نفسه ملكا عليها، مع عدم تخليه عن مقاطعته فى فرنسا، وأصبحت القضية من يتبع من ؟! فمن الناحية الإقطاعية كان لابد أن يغدو وليم ومملكته فى إنجلترا تابعين لملك فرنسا باعتباره فصله الإقطاعى ومـــن الناحية الواقعية أصبح وليم ملكا لإنجلترا ودانت له الأراضى الفرنسية التى كان يحكمهـــا بالتبعـــية ومـــن ثم كان لابد أن يقوم النزاع بين الدولتين، وأن يستمر طويلا طويلا خلال العصور الوسطى.

والعلاقة بين فرنسا وألمانيا لم تكن أحسن حالا من قرينتها، فالعداء التقليدى قائم بين المملكتين منذ انسلخت المناطق الألمانية التى كانت تكون الأجزاء الشرقية مـــن إمـــبراطورية شـــارلمان عن السيادة الكارولنجية بعد وفاة آخر أفرادها لويس الطفـــل سنة ٩١١، ومنطقة اللورين تعتبرها ألمانيا أراضى ألمانية بينما يدين دوقها بالتبعية الإقطاعية لملك فرنسا.

ولـــم يكـــن أوربان الثانى بغافل عن كل هذه الأمور، فى الوقت الذى ساقت إلـــيه الظـــروف السياسية فى الإمبراطورية البيزنطية المسوغ الذى يتمناه ليضرب ضـــربته والحديـــدة محمـــاة؛ ذلك أنه فى المجمع الذى عقده فى بياكنزا فى مارس ١٠٩٥، الـــتقى برســـل الإمـــبراطور الكسيوس كومننوس الذين قدموا لتجنيد ما يمكـــنهم تجنيده من المرتزقة للعمل فى الجيش البيزنطى، وكانت الإمبراطورية قد لجـــأت إلى هذه السياسة بعد هزيمة مانزكرت سنة ١٠٧١، وراح الكسيوس يجيش جيوشـــه مـــن أعداد كبيرة من المقاتلين الأوربيين خاصة الإنجليز الذين تم تسريح جيوشـــهم بعـــد دخول النورمان إلى إنجلترا بقيادة وليم الفاتح، بالإضافة إلى بعض عناصـــر البوشـــناق Petchenegs وقـــبائل الاســـتبس الذين عرفوا بـــ "الورنك" Varangian، وعـــرف الطـــريق الذى يسلكونه من أقصى شمال غرب أوروبا إلى القســـطنطينية بالتسمية نفسها، وأصبحت هذه القوات تشكل الحرس الإمبراطورى، القـــوة الضاربة فى الجيش البيزنطى. وقد لجأ الكسيوس إلى الأسلوب نفسه فى بناء بحريـــته، إذ عهد إلى جمهورية البندقية بإنشاء أسطوله فى مقابل امتيازات تجارية هائلة فى الموانئ البيزنطية العاصمة الإمبراطورية.

وقد أحسن البابا أوربان الثانى استقبال الوفد، وأصغى إليه باهتمام زائد، بل ودعا مندوبى الإمبراطور للحديث مباشرة إلى حضور المجمع. ومع أن شيئا من حديثهم لم يبق لنا، إلا أنه من المتوقع أن يكون قد دار حول ما يتعرض له المسيحيون الشرقيون فى الشرق من ويلات، وهو ما استخدمه البابا بعد ذلك فى كليرمونت، وضرورة دفاعهم عن الإمبراطورية باعتبارها درع المسيحية الشرقى. وقد ترك ذلك الحديث تأثيره البعيد فى نفوس السامعين إلا أن أحدا لم يحرك ساكنا، وإن كان الأمل يحدوهم فى أن ينفر بعض رعاياهم للاشتراك مع إخوانهم الشرقيين فى حماية المسيحية[42] . غير أن أوربان الثانى أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم، واستدعى من الذاكرة ذلك المشروع الضخم الذى كان قد عزم عليه سلفه جريجورى السابع وذلك بقيادة حملة صليبية، أو بتعبير آخر القيام بحرب مقدسة باتجاه الشرق، يقودها بنفسه، وراح أوربان الثانى يقلب الأمر على كافة وجوهه، وطوال سبعة أشهر وعدة أيام حتى كليرمونت، حمل رحم فكره جنين "حرب مقدسة" يشنها على أعداء الكنيسة فى داخل أوروبا وخارجها، فيتحقق بذلك كل آمال البابوية العراض فى قهر السلطة الزمنية، والسيادة على الكنيسة الشرقية، والزعامة فى عالم المسيحية فيضرب بذلك عصافير ثلاثة بحجر واحد.

وكان البابا يعلم جيدا أن فرنسا سوف تكون التربة الصالحة فى أوروبا للتبشير بدعوته، فالرجل كان فرنسيا ويدرك تماما الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التى يتردى فيها المجتمع الفرنسى، بالإضافة إلى أن فرنسا تعد أشد الدول الأوروبية تعصبا للكاثوليكية، باعتبارها أسبق الممالك الجرمانية التى اعتنقتها منذ أواخر القرن الخامس الميلادى والسنوات الأولى من القرن السادس على عهد ملكها كلوفيس Clovis ، لذا أقنع المؤتمرين فى بياكنزا بتأجيل اتخاذ قرار بالحرمان ضد فيليب الأول ملك فرنسا، حتى لا ينتقل الحرمان بالتالى إلى رعيته فلا يستطيع

---

(42) Vasiliev (A.A.), A history of the Byzantine Empire, Madison and Milwaukee, 1964 vols, v.I, pp. 401-402 وأيضا Runciman, Crusades, I, pp. 104-105 and Setton. Crusades, I, pp. 228-229 وراجع أيضا – سعيد عاشور الحركة الصليبية، جزءان القاهرة ١٩٦٣، الجزء الأول، ص١٣١–١٣٢

الفرنسيون تلبية دعوته، هذا من ناحية، ومن الأخرى كان يريد أن يبقى على خيط رفيع بينه وبين فيليب يمكنه من خلاله أن يستثنيه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وإن لم يفلح فيما كان يبتغيه.

وإذا كانت البابوية قد شهرت سلاح الأمراء في وجه السلطة الزمنية، ونجحت في ذلك إلى حد كبير جدا طيلة نصف القرن الأول من عمر الحركة الصليبية الذى امتد قرنين من الزمان، فإنها غيرت خططها من بعد تغييرا جذريا، وقلبتها رأسا على عقب، حيث أضحت الحملات الصليبية التالية كلها، باستثناء الرابعة، حملات ملوك. ويمثل القدر الذى تحقق للبابوية فى الدور الأول من الحروب الصليبية بالاعتماد على الأمراء دون الملوك، واستخدامهم سلاحا ضد سادتهم الإقطاعيين - الملوك، أصحاب السلطة الزمنية، نجحت البابوية فى الدور الثانى من أدوار هذه الحرب التى نتعتها بـ "المقدسة" نجاحا منقطع النظير، بينما فشل الملوك فشلا ذريعا فى مواجهة السلطة البابوية المتزايدة على امتداد ما يزيد على مائة وخمسين عاما تالية إلى ما بعد منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

وهذا الأمر يبدو واضحا حتى من مجرد الاستقراء السريع لحادثات الزمان خلال تلك الفترة؛ فالنجاح الوحيد الذى تحقق للصليبيين فى الشرق كان ما تم على يد جنود الحملة الأولى التى تكونت كلها من أمراء أوروبا، وتمثل ذلك فى تكوين الإمارات الصليبية فى الرها وأنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس، على حين أخذ الفشل يطارد الملوك فى كل حملاتهم الآتية من بعد باتجاه الشام أو مصر! حتى إذا أفلحت إحداها وهى السادسة، والتى لا يمكن أن نعتبرها حملة بالمعنى العسكرى الصليبى للحملات، وحقق قائدها فردريك الثانى بالمفاوضات ما فشل فيه الملوك بالحرب، أعلنت البابوية براءتها مما فعل، ووصمته بالهرطقة والتجديف، وحرمته من رحمة الكنيسة، وقيدته بقيود اللعنة، وألبت عليه أوروبا كلها، ولم تزل به وبأبنائه وبأحفاده حتى أودعتهم جميعا بطن الثرى!!

والأدهى والأمر من ذلك فيما يتعلق بالقضية الصليبية فى الشرق، أن البابوية - وقد تملك عليها الفزع كل سبيل - راحت تخاطب ملوك بنى أيوب فى

الشام تنفر إليهم شخص فردريك الثانى، وتكتب إلى الكامل الأيوبى فى مصر تطلب إليـه عـدم تسـليم بيـت المقدس إلى الإمبراطور ويعلق"كانتروفتش"[٤٣] Ernst Kantorowicz على ذلك بقوله: "إن البابا قد انحط إلى هذا الدرك نتيجة اقتناعه أن أى نجـاح يحققه ذلك الإمبراطور المحروم سوف يعنى أن حكم الله ليس فى صالح البـابوية!! وهذه الحقيقة لم تفت على المؤرخ الإسلامى ابن واصل[٤٤] الذى ذكر أن البـابا كان يكن كراهية ومقتا شديدين لفردريك وبنيه، وإن كان قد علل ذلك بميلهم إلـى المسـلمين، ويقـول المؤرخ الألمانى "هانز ابرهارد ماير" H.E. Mayer فى كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" كانت مشاركة فردريك الثانى فى الحركة الصليبية تمـثل خطرا جسيما على البابوية .. ومن ثم فقد فعل جريجورى التاسع كل ما من شأنه الحيلولة دون نجاح هذه الحملة الصليبية.

هـذه الأحداث تفرض على الباحث سؤالا لا مندوحة من طرحه، هل كانت البـابوية سعيدة بالإخفاق الذى أصاب الملوك فى حملاتهم الصليبية إلى الشرق؟ أم تـراها كانـت تضمر فى نفسها تجاههم أمنيات لهم بالفشل حتى ولو كان ذلك على حساب الحركة نفسها؟

أمـا الأخـيرة - فهذه لا سبيل إلى الشك مطلقا فى وجودها من واقع موقفها إزاء فردريك الثانى. ولم يكن هذا هو المثال الوحيد الصارخ لسياسة البابوية تجـاه السـلطة الزمنـية، فسوف نلقى من بعد أمثلة كثيرة على ذلك. ويقول "كانتروفتش" بالحـرف الواحـد "لقد كان أى نجاح يحققه الإمبراطور يمثل أسوأ كارثة يمكن أن يـتوقعها البـابا"[٤٥]، وذلـك أن الحركة الصليبية لم تعد سوى مجرد ورقة فى يد البابوية ضمن أوراق اللعبة السياسية التى تلعبها[٤٦]، بعد أن فقدت صفتها الروحية منذ زمن ليس بالقصير!

---

(43) Frederick the Second, London 1931, p.184

(٤٤) مفـرج الكـروب فى أخبار بنى أيوب، الجزء الرابع تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٧٣ ص ٢٤٨-٢٥١

(45) Frederick the Second, p. 187

(٤٦) زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون فى الشرق، موسكة ١٩٨٦، ص٣٠٢

أمـــا أن الـــبابوية كانت سعيدة بما حاق بحملات الملوك من فشل، فذاك شئ يحـــتاج إلـــى وقفة طويلة نتدارس فيها كيف سارت العلاقات بين البابوات والملوك مـــنذ منتصـــف القرن الثانى عشر، أى منذ تولى الملوك قيادة الحملات الصليبية، وكـــيف حرصـــت البابوية على أن تستغل خروج هذه الحملات لبلوغ كل أهدافها السياسية التى كانت تسعى إلى تحقيقها.

لقـــد قـــر فى ذهن البابوية منذ زمان بعيد يعود إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديـــين، ودنت قطوفه في القرن الحادى عشر أيام البابا جريجورى السابع، أن الله يدبـــر أمـــور هـــذا العالم عن طريق الأقنوم الثانى فى الثالوث، المسيح، الذى يتصـــرف فيه كيف يشاء بواسطة بطرس، الذى يحرك كل شئونه من خلال البابا، الـــذى لـــم يعد منذ عهد انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦) مجرد خليفة بطرس، بل نائـــب المســـيح Vicarius Christi علـــى الأرض، بمقتضى نظريته عن الشمس والقمـــر، البابوية والإمبراطورية. وآمنت البابوية إيمانا لا يتطرق إليه شك أنه وفقا لذلـــك لابد أن يكون هناك سيد واحد لهذا العام لا يشرك فى حكمه أحدا، وأن البابا هـــو ممـــثل هذا السيد على الأرض، وأن الصلاح كل الصلاح فى الخضوع تماما لهـــذا الـــبابا، طـــريقا إلى ملكوت السماوات ورفقة المسيح. ومن ثم فإن أى سلطة أخـــرى تـــرى فى نفسها القدرة أو تساورها الرغبة فى أن تنافس البابوية أو تتولى عمـــلا من أعمالها، تضع نفسها خارج الشرعية وتحل بها اللعنة وتطاردها قرارات الحرمان الكنسى، وبالتالى فإن أى نجاح يمكن أن تحققه هذه السلطة الأخرى، وهى هنا بالطبع السلطة الزمنية، يعد تحديا صارخا للسلطة الروحية، التى هى دون شك البابوية. ولذا كان أمرا منطقيا أن تعلن البابوية رضاءها التام عن حملتى الأمراء، الأولـــى والرابعة، وأن تقف موقفا مغايرا تماما أيضا من حملات الملوك، بل وأن تضع العراقيل فى وجه بعض منها، وأن تضحك فى كمها سعيدة بما تحقق من فشل لهذه وغيرها!!

كـــان الأسلوب الذى لجأت إليه البابوية فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل الحركة الصليبية، هو أسلوب الغزل السياسى الذى راحت تلاعب به ملوك أوروبا،

فتتودد إلى هذا وتهجر ذاك، وتؤثر واحد بقربها وترى الآخر عين الجفاء!! ففى عام ١١٤٤ تمكن المسلمون بزعامة عماد الدين زنكى أتابك الموصل من استرداد إمارة الرها، التى كانت رأس جسر غرس فى جسم العالم الإسلامى، وكان رد الفعل الأوروبى إزاء ذلك عنيفا بحكم المكانة الدينية التى تحتلها الرها فى الروايات المسيحية الباكرة[٤٧]. وتولى القديس برنارد St. Bernard مقدم دير كليرفو Clairvaux الدعوة لحملة صليبية جديدة بتوجيه من البابوية لاسترداد المدينة[٤٨] حتى خلت قرى كثيرة من سكانها، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية الثانية.

وقد وجدت البابوية نفسها عند الدعوة لهذه الحملة في موقف لا تحسد عليه، وكان عليها أن توزع أوراق لعبتها السياسية بذكاء شديد حتى لا تخسر شيئا؛ فإنجلترا كانت تطحنها آنذاك الحرب الأهلية التى دارت حول العرش بعد وفاة ملكها هنرى الأول فى عام ١١٣٥ ولم يكن هو نفسه على وفاق مع الكنيسة جريا على سياسة سلفيه وليم الأول الفاتح وسميه الثاني، وكان اصرار القديس أنسلم Anselm أسقف كانتربورى على استقلال الكنيسة والأراضى التابعة لها عن سلطان الملكية أمرا يرفضه ملوك إنجلترا. وقد استمرت الحرب الأهلية التى أعقبت وفاة هنرى تسعة عشر عاما (١١٣٥-١١٥٤) بين كل من ماتيلدا Matilda ابنه هنرى زوجة كونت انجو Anjou وأنصارها من ناحية، وستفن Stephen كونت بلوا Balois ابن أخ هنرى من ناحية أخرى وإذا كان ستفن قد تمكن من

---

(٤٧) ترتبط مدينة الرها فى ذاكرة المسيحيين دائما بعلاقتها المبكرة مع المسيحية، وبما فيها من آثار القديسين ومن هذه الروايات أن الرجال الأربعة المجوس الذين قدموا على المسيح ليلة مولده مهتدين بنجم فى السماء، قدموا من الرها! ومنها أيضا أن أبجار Abgar ملك الرها كتب إلى المسيح يطلب إليه – وقد علم بالمعجزات التى جرت على يديه أن يبرئه من مرضه فكان من بين ما بعث به المسيح إليه – على ما تذكر الأسطورة – منديلا Mandilon طبع عليه وجه المسيح عندما جفف به ذقت يوم عرقه!! وقد عاشت – الأساطير حول هذا المنديل وقدرته على شفاء المرض وإتيان المعجزات. وقد قام القائد البيزنطى يوحنا كوركواس بنقل هذا المنديل فى سنة ٩٤٤ من الرها إلى القسطنطينية فى موكب مهيب. راجع، هسى (ج.م.)، والعالم البيزنطى ترجمة رأفت عبد الحميد، ص١٤٥-١٤٦، حاشية رقم ١٥.

(48) Runciman, Crusades, I, pp. 251-256

السيادة على إنجلترا طوال فترة الحرب الأهلية، إلا أن النجاح فى النهاية كان من نصيب هنرى الثانى الذى كان كونتا لأنجو(٤٩).

أما فى صقلية فإن روجر الثانى Roger II أفلح فى توحيد النورمان جميعا فى جنوب إيطاليا وأعلن نفسه ملكا فى عام ١١٣٠، وكان هذا فى حد ذاته سلوكا غير ودى تجاه البابوية(٥٠) التى كانت تعتبر صقلية إقطاعا تابعا لها وملكها فصلا يدين بالولاء للجالس على عرش القديس بطرس، كما أن روجر نفسه لم يبد أى مظهر من مظاهر الطاعة أو التوقير تجاه البابوية ومن ثم لم تكن البابوية على استعداد لإبداء أى ترحيب به عندما أعلن عزمه على حمل الصليب مشاركا فى الحملة الصليبية الثانية.

وقد وجدت البابوية الفرصة سانحة لتأكيد سيادتها فوق الجميع، مستغلة ظروف الدعوة لهذه الحملة الجديدة؛ فبينما نجدها تبدى بصورة ما امتعاضها من تصرفات النورمان فى الجنوب الإيطالى تحت زعامة روجر، كانت فى الوقت نفسه قد أدخلت فى روع الملك الألمانى لوثير Lothair (١١٢٥-١١٣٧) وخليفته - الجالس الآن على العرش - كونراد الثالث Conrad III (١١٣٧-١١٢٥) عن طريق المتحدث باسمها القديس برنارد، أن أى شخص يعلن من نفسه ملكا على صقلية، يكون قد أعلن بذلك هجومه على الإمبراطور(٥١) وكان هذا فى جوهره يعنى استعداء ملوك ألمانيا - باعتبارهم الأباطرة الرومان - على ملك صقلية روجر الثانى. وهذه قضية لم يكن الأباطرة الرومان فى ألمانيا فى حاجة إلى من يغذيها لديهم. غير أن كونراد كان عازفا عن الدخول فى المشكلة الإيطالية التى كانت جرحا داميا فى جسم ألمانيا ظل ينزف طيلة العصور الوسطى(٥٢). هذا بالإضافة إلى أن نفوذ البابا يوجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥-١١٥٣) لم يكن مستقرا فى روما، من جراء الثورة التى أشعلها أرنولد البريشى Arnold of

(49) Barlow, Kingdom of England, pp. 201-234

(50) Haskins (Ch.H.), The Normans in European history, New York 1966, pp. 210-211

(51) Runciman, Crusades, II, p. 251

(٥٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه المشكلة راجع الفصل الثالث.

Brescia وأعلــن بهــا مدينة روما قومونا مستقلا، واضطر البابا إلى الهروب من المدينة فى عام ١١٤٧.

وفى ظل هذه الظروف دعت البابوية كونراد الثالث للقيام بحملة صليبية، لا إلــى الشــرق بل إلى إيطاليا لاخماد الثورة المشتعلة فيها، وإعادة البابا إلى كرسيه الأســقفى، والتصــدى لــتهديدات الــنورمان فى الجنوب، مغازلة كونراد باللقب الإمبراطورى، الذى جرى وراء سحره كل ملوك ألمانيا، لكن كونراد كان فى شغل عــن ذلــك بالصــراعات الداخلــية فــى ألمانــيا بينه باعتباره أول ملوك أسرة الهوهنشــتاوفن، وبيــن هــنرى الأســد زعــيم عائلة الولفيين Welfs المنافسين التقليديــن،وأدرك أن الذهاب إلى إيطاليا يعنى الغرق فى مستنقع كبير لا سبيل إلى الخــروج مــنه، خاصة إذا فتح على نفسه باب الصراع مع النورمان. لذا كان هو الوحيد من بين ملوك ألمانيا منذ أوتو الأول (٩٦٢) حتى وفــاة فردريــك الثانــى (١٢٥٠) الذى لم يحمل لقب الإمبراطور. وآثر ذلك، كما آثر المشاركة فى الحملة الصــليبية المــتجهة إلــى الشرق لاسترداد الرها، على القيام بحملة صليبية داخلية توجهها البابوية لخدمة مصالحها الخاصة جدا.

واستشــعرت البابوية الخطر من قيام حملة صليبية إلى الشرق يتزعمها ملك علمانى دون دعوة منها ودون مباركة لها من جانبها، فسارع يوجنيوس الثالث إلى مراسلة لويس السابع Louis VII ملك فرنسا منصبا إياه قائدا عاما للحملة الصليبية المنــتظرة مذكــرا بماضى الأسلاف المجيد، مثنيا على شجاعة فرسان الفرنجة فى الحملــة الأولــى" ... إن كثيريــن عبر جبال الألب، خاصة فرسان فرنسا الأشداء وقــرنائهم الإيطاليين، استجابة لنداء سلفنا طيب الذكر أوربان الثانى، قد التقوا على المحــبة وكونوا جيشا ضخما واستردوا تلك المدينة المقدسة .. وبنعمة الله وحماسة آبــائك الذيــن جــاهدوا لإعلاء كلمة المسيح على الأرض، سادت المسيحية على مناطق واسعة بعد أن تم تخليصها من سيطرة الوثنيين"(٥٣).

---

(53) EUGENIUS III, Letter to king Louis VII of France and his Subjects, proclaims the Second Crusade on God's Behalf, 1 March 1146

وقــد رحــب لويــس الســابع بهذه الدعوة واعتبرها تكريما له دون بقية ملوك أوروبا، وكانت نفسه مهيأة لذلك تماما تحت تأثير القديس برنارد، وشوجر Suger مقدم ديــر القديــس دنى St. Denis، والذى كان مستشارا للملك ولأبيه من قبل، واعتبرها أيضـــا فرصة للتكفير عن الخطيئة التى ارتكبها بإحراق كنيسة فترى Vitry فى مقاطعة شــمبانى Champagne عام ١١٤٧ وبها جموع كثيرة من المصلين ومن ثم فإنه ما أن أعلــن كونـــراد الثالث عزمه على قيادة جيشه حاملا الصليب حتى قابلت البابوية ذلك بـــبرود كامل، ورفض يوجنيوس الثالث طلب كونراد بالسماح له بلقائه فى الثامن عشر مــن أبــريل ١١٤٧ فـــى ستراسبورج Strassburg وغادر الملك الألمانى بلاده دون الحصـــول علـــى مباركة البابا له أو لحملته، بينما التقى مع لويس السابع وباركه خلال الأيـــام الأولى من أبريل(٥٤). وهكذا فى وقت واحد قرب إليه ملك فرنسا، وأعرض عن ملك ألمانيا، وأظهر استياءه البالغ بل وعداءه للملك النورمانى روجر الثانى فى صقلية. لاغرو إذن أن كانت السياسة البابوية سببا فى زيادة الجفاء بين ملكى فرنسا وألمانيا قبل أن تخـــرج الحملـــة مـــن أوروبـــا، بالإضافة إلى العداء التقليدى بين الشعبين الفرنسى والألمـــانى، علـــى هـــذا النحو ساهمت البابوية بنصيب كبير جدا فى الفشل الذى لحق بالحملـــة الثانـــية فى بلاد الشام، عن طريق سياستها الصليبية التى بذرت بذور الفرقة والانقســـام بين قائدى الحملة منذ اليوم الأول لها، فخرج كل منهما بمفرده يقود جيوشه ودب بينهما الخلف فى الشرق، وعاد كل منهما وحده يجر أذيال الخيبة والانكسار!

وتعلـــيقا علـــى ذلك يقول المؤرخ "زابوروف"، "هكذا قدمت الحملة الصليبية الثانـــية البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الإقطاعيين الغربيين، وأخذت الاعتـــبارات الدينية .. تفقد أهميتها أكثر فأكثر، حتى تذمر مدونو الأخبار فى القرن الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية إبان الحملة الصليبية الثانية، ولم تحمل هذه الحملة أكاليل الغار إلى الكنيسة الكاثوليكية. ثم إن التناقضات التى تفاقمت بين دول أوروبـــا الغربـــية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر المتوسط، أخـــذت تعـــارض بعضها بعضا .. وأسهم انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الحملة

(54) Runciman, Crusades, I, p.257

وخلافـاتهم مع بارونات بلاد الشام بقسط كبير في فشل الحملة الصليبية الثانية(٥٥). وإذا كانـت الـبابوية لـم تحقق نجاحا سياسيا في الشرق، بسبب الفشل العسكري للحملـة، إلا أنهـا احتفظت لنفسها بالمكانة في أوروبا، بقدرتها على تحريك ملوك أوروبـا وجيوشها باتجاه الشرق في حرب صليبية كانت هي الوحيدة التي خرجت منها فائزة!

وللمـرة الثانـية تمـارس البابوية الدور نفسه بعد أن روعتها أنباء استرداد المسـلمين للقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، في أعقاب معركة حطين الشهيرة عام ١١٨٧، فمات البابا المسن أوربان الثالث كمدا في ٢٠ أكتوبر من العام نفسه، ولـم يلبث أن لحق به خلفه جريجوري الثامن في ديسمبر، بعد أن قام بتوجيه دعوة عامـة إلـى "كل المؤمنين في الغرب" يستثير فيهم حماسة مسيحية كانت قد خبت، ويعدهم وعدا حسنا بالغفران في الآخرة، وحماية ما يملكون في الدنيا أثناء رحلتهم، غير أن القدر لم يمهله حتى يرى قطوف دعوته.

وكان قد مضى الآن على الحملة الصليبية الثانية أربعون عاما، شهدت فيها أوروبا تغييرات جذرية فيما يتعلق بالعلاقة بين البابوية والسلطة الزمنية، إذا أخذت الملكـيات الأوروبـية تـنحوا إلى تدعيم مراكزها في الداخل، يساعدها على ذلك خـروج الأمراء في الحرب الصليبية وعدم عودة كثير منهم إلى أوروبا ثانية، إما نتـيجة لمـوت بعضهم، أو لتفضيل بعض آخر البقاء في الشرق، وكان هذا يعني تحـول مسـاحات واسعة من الأراضي إلى ملكية التاج ثانية. ورغم أن الكنيسة قد أعلنـت بعد الحملة الأولى أنها سوف تضع تحت وصايتها كل ما يتعلق بالمحاربين المتجهيـن إلـى الشـرق مؤكدة أن "نساء وأطفال وممتلكات أولئك الذين يحملون الصـليب دفاعا عن المسيح، سوف يحظون بحماية الكنيسة الرومانية المقدسة منذ حملهـم الصليب وطوال رحلتهم إلى الشرق ومكثهم هناك وعودتهم أو موتهم"(٥٦)

(٥٥) زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٨٦-١٨٧.

(56) EUGENIUS III, Letter to king VII of France:
GREGORY VIII, Summons Christians to repentance and describes the Crusade as a test imposed by God, October – November 1187; GREGORY VIII accords the Church's Protection to the Crusader Hinco of Zerotin 21 October, 17 Decenber 1187

فـــى محاولة منها لطمأنة المحاربين، وفى الوقت نفسه لممارسة سيادتها الإقطاعية إلا أنهـــا لـــم تستطع أن تتصدى للملوك فى ممارسة حقوقهم الإقطاعية أيضا تجاه الأمراء، أفصالهم الإقطاعيين.

يضـــاف إلى ذلك أن هذه الفترة أيضا شهدت ازدياد فى نشأة المدن ونموها وتطورهـــا، وتجلى هذا بصورة واضحة فى شمالى إيطاليا فيما يعرف بمد العصبة اللومباردية، إلى جانب كل من ألمانيا وفرنسا(٥٧)، حتى أن فيليب الثانى أوغسطس ملـــك فرنســـا عهد إلى ستة من تجار باريس برعاية شئون مملكته أثناء غيابه فى الحملـــة الصـــليبية الثالـــثة، وأصبحت المدن تمثل سلاحا تتسابق البابوية والسلطة الزمنية فى استخدامه أثناء صراعهما الطويل، وبينما نجح ملوك فرنسا وإنجلترا فى هذا الاستباق فشل ملوك ألمانيا وتركوا هذا السلاح لتستخدمه البابوية ضدهم خاصة مدن الشمال اللومباردى فى إيطاليا.

وبازدهـــار المدن وازدياد النشاط التجارى وانتشار التعليم والثقافة من جراء الاحـــتكاك بالمســـلمين فى الأندلس وصقلية والشام، ظهرت الجامعات فى أوروبا، واســـتبقت الـــبابوية والملكيات الأوروبية أيضا لاحتضان هذه الجامعة أو تلك(٥٨)، وحظيـــت بعض الجامعات برعاية للكنيسة مثل جامعة باريس التى عملت بدورها علـــى تكـــريس الســـيادة البابوية، على حين نمت جامعة بولونيا فى رعاية السلطة الإمـــبراطورية ودعت بدورها إلى سموها، ومن ثم لعبت الجامعات دورا كبيرا فى التأكيد على مفاهيم معينة فى جانب كل من البابوية أو الإمبراطورية حتى قيل: "إن

(57) Pounds (N.J.G.) An economic history of Medieval Europe, London 1974, pp.223-261; Pirenne (H.), Economic and Social history of Medieval Euorpe, pp. 26-39, 50-57; Hodgett (G.A.J.) Asocial and Economic history of Medieval Europe, London 1972, pp.48-58, 88-105

(٥٨) لمـــزيد مـــن التفاصـــيل عـــن نشـــأة الجامعات ودورها، راجع سعيد عبد الفتاح عاشور، الجامعات الأوروبـــية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩؛ جوزيف نسيم يوسف، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٧١.

الجامعـة هى إحدى قوى ثلاث سيطرت على الفكر المسيحي ووجهته في العصور الوسطى، البابوية والإمبراطورية والجامعات"[٥٩].

ونتـيجة لكل ذلك دخل الصراع بين البابوية والإمبراطورية في طور جديد خـلال القرنيـن الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين، وراح يأخذ صبغة قانونية، وغـدا أبطاله في المقام الأول من رجال القانون، ففي الجانب الكنسى نرى الراهب جراتـيان Gratian الـبولونى يجمع شتات المجموعات القانونية الخاصة بالكنيسة كالقـرارات المجمعـية والمراسـيم الـبابوية وشذرات من مؤلفات الآباء الأولين ومقـتطفات من مجموعة قوانين جوستنيان، وفي هذه الموضوعات أورد جراتيان النصـوص المؤيدة والمعارضة على حدة كأن كلا منها دفاع في حد ذاته، وعرفت هـذه المجموعـة بـ "المبادئ" القانونية Decretum وقد صدرت حـوالى عام ١١٤٠[٦٠] وعلـيه فليس من الغريب أن نجد معظم بابوات هذين القرنين من كبار القانونيـن مثل اسكندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١) وإنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨-١٢١٦) وجـريجورى التاسـع Gregory IX (١٢٢٧-١٢٤١) وإنوسـنت الـرابع Innocent IV (١٢٤٣-١٢٥٤) وقـد فسـرت هذه المجموعـة من بعد من جانب القانونى البولونى باولينوس Paulinus بأن محورها الرئيسـى يدور حول وجود إمبراطورية سماوية وأخرى أرضية، واقترح أن تكون الإمـبراطورية السـماوية هـى الاكلـيروس، بينما الإمبراطورية الأرضية تضم العلمانيـن، مؤكـدا أن البابا يمتلك السيادة فوق الإمبراطوريتين معا، الإكليروس والعلمانيـن، أو بتعبـير آخـر - الروحية والزمنية[٦١] وكان هذا تقنينا للنظريات العديدة التى أذاعتها البابوية آنذاك لاثبات سموها وعلو كعبها فوق السلطة الزمنية، مـثل نظرية السيفين الروحى والزمنى، والنظرية البطرسية، وما أصر عليه البابا انوسنت الثالث من نظرية الشمس والقمر.

---

(٥٩) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ٢ ص١٧٤

(٦٠) كرامـب (ج) وجاكوب (إ) تراث العصور الوسطى، جزءان، ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية بإشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥، الجزء الثانى، ص٤٦١-٤٦٢

(61) Tierney, Crisis, pp. 98-117

وفــى الوقت نفسه وجدت الإمبراطورية من ينبرى أيضا للدفاع عن مكانتها فى مواجهة البابوية، وكان من بين هؤلاء رجل القانون الرومانى الأشهر إرنريوس Irnerius الــذى ارتــبط اســمه بجامعــة بولونيا والتى اكتسبت شهرة واسعة فى الدراســات القانونــية، وخلف وراءه مجموعة من التلاميذ المشهورين عرفوا باسم "الدكاتــرة الأربعــة" وهم بولجاروس Bulgarus ومارتينوس Maartinus وهوجو Hugo ويعقوب Jacobus[٦٢]. وقد حرص الإمبراطور فردريك بربروسا (١١٥٢-١١٩٠) أن يضــمهم إلــى هيئة مستشاريه للاستعانة بهم فى تدعيم مركز السيادة الإمبراطورية. وقد أولى هذا الإمبراطور وحفيده وسميه الثانى جامعة بولونيا عناية فائقة، لا باعتبارهم ملوكا لألمانيا بل لكونهم الأباطرة الرومان، وكان هذا فى المقام الأول -- على حد تعبير أولمان[٦٣] من أهم العوامل فى ازدهار جامعة بولونيا.

هكــذا أخــذ الفكــر البابوى الصليبى يتخذ أبعادا جديدة فى مواجهة السلطة الزمنــية التى لم تعدم هى الأخرى مثيلا لهذه الأبعاد، وقرنت البابوية ذلك بأسلوبها العام الذى يقوم على عدم وجود وفاق دائم بين ملوك أوروبا حتى لا يشكلوا ضدها جــبهة واحدة. وإذا كان لابد من قيام هذه الجبهة الزمنية المتحدة – وهو ما لم تسع إلــى إيجــاده مطلقــا – فلتكن وجهتها إلى الخارج فقط، أى باتجاه الشرق – دون الداخل، وتسخيرها لتحقيق مصالحها الخاصة كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وهــنا عــندما ألحت الضرورة على توجيه الدعوة لحملة صليبية جديدة بعد عــودة بيــت المقدس إلى يد المسلمين، رأينا كيف خاطب جريجورى الثامن "كافة المؤمنيــن فــى الغرب" دون أن يخص بالذكر أحدا من الملوك، فلما اعتلى خليفته كلمنــت Clement III العــرش البابوى، ولى وجهه مباشرة باتجاه أعظم عواهل أوروبــا آنــذاك .. الإمــبراطور فردريك بربروسا، بينما ترك لجوسياس Josias أسقف صور مهمة لقاء ملكى فرنسا وإنجلترا[٦٤]. والذى يلفت الانتباه للوهلة الأولى أن ســلفه الأسبق يوجينوس الثالث أرسل إلى ملك فرنسا لويس السابع لقيادة حملة

(62) Ullmann (W.), Law and Politics in the Middle Ages, London, 1975, pp.85-98.
(63) Ibid., 85.
(64) Runciman, Crusades, III, p.5.

صـليبية بإتجـاه الشـرق – كما علمنا – وأبدى تأففه من مشاركة الملك الألمانى كونـراد الثالـث. بيـنما كلمنت هذا يسارع بدعوة الإمبراطور الرومانى فردريك بربـاروسـا، غاضا الطرف عن كل من ملكى فرنسا وإنجلترا! أليست هذه السياسة الـبابوية فـى التودد إلى واحد دون الآخر، والسعى لدى ملك دون غيره بحسابات دقيقة لمصالحها الخاصة فى عالم المسيحية؟! ولننظر كيف ولم كان ذلك؟!

ففـى فرنسـا كـان يقوم ملك قوى هو فيليب الثانى أوغسطس Philip II Augustus الـذى امـتد حكمه لفترة طويلة من الزمن نجح خلالها فى إقامة ملكية قوية(٦٥) كان من أهم جوانب قوتها أنه شدد قبضته على الكنيسة، وأخذ يعمل جاهدا للحـد مـن تدخـل البابوية فى شئون دولته، وألزم الاكليروس بدفع ما عليهم من ضـرائب والـتزامات(٦٦). هـذا بالإضـافة إلى أنه سعى لإقامة علاقات ودية مع فـردريك بربـاروسا فى عام ١١٨٧، أى قبيل الدعوة للحمة الصليبية الثالثة بأشهر قلائـل، وكـان الهدف منها توحيد الجهود ضد كبار الأمراء الإقطاعيين. ولم يكن الـتقارب الألمانى الفرنسى مما يسعد البابوية فى شئ، ورغم أنها سعت بنفسها من بعـد إلـى إحياء هذا التقارب ووصلت به إلى مرحلة التحالف بين الملك الفرنسى فيليـب أوغسطس وسليل أسرة الهوهنشتاوفن، فردريك الثانى المنافس على العرش بدعـم من البابوية ضد أوتو الرابع دوق برنسويك وابن هنرى الأسد الولفى، الذى كان على عداء كامل مع البابوية!

أمـا إنجلترا فكان على عرشها هنرى الثانى (١١٥٤-١١٨٩) الذى لم يكن يقـل عن فيليب أوغسطس قوة وذكاء وطموحا، ولذا نجح هو الآخر فى أن يجعل من الملكية الإنجليزية فى عهده الطويل أيضا ملكية قوية، وتمثل ذلك للوهلة الأولى مـنذ إقدامـه فى أول عهده على هدم ألف ومائة وخمس عشرة قلعة عكسرية مرة واحدة، كان الأمراء الإقطاعيون قد أقاموها منتهزين فرصة الحرب الأهلية (١١٣٥-١١٥٤)، مخالفين بذلك النظام الذى كان قد وضعه وليم الأول الفاتح بعدم بناء أى

---

(٦٥) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج١ ص٢٥٩-٢٧٢

(٦٦) نفسه، ص٢٦٩-٢٧٠

قلعة إلا بإذن خاص من الملك، حتى غدت القلاع الإقطاعية كلها فى إنجلترا قلاعا ملكية. وحاول أيضا أن يستعيد نفوذ الملكية على الكنيسة بعد أن تعرض للانتقاص علـــى عهـــد ســـتفن أيام الحرب الأهلية، وأمل فى أن يكون صديقه الحميم توماس بيكيت Thomas Becket الذى عينه أسقفا لكنيسة كانتروبرى، دعما له فى سياسته الكنســـية المســـتقلة الرامـــية إلى التخلص من النفوذ البابوى، غير أن "بيكيت" أخذ الاتجـــاه العكســـى تماما وأثبت أنه ابن مخلص للكنيسة وراعيها البابا وليس لسيده الملـــك الإنجليزى، مما أوجد جفوة واسعة بين الرجلين انتهت فى آخر الأمر بمقتل توماس بيكيت فى مذبح الكنيسة فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١١٧٠ على يد أربعة من فرسان هنرى الثانى، انتدبوا أنفسهم لمهمة اغتياله بعد أن أبدى سيدهم عدم ارتياحه من معارضته المستمرة له(٦٧). ورغم أن هنرى أقسم على براءته من دم "بيكيت" ، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى تقديم تنازلات مهينة للبابوية وإن حاول بعد ذلك فى سنوات حكمه التالية أن يخفف من غلوائها . حتى إذا مات، خلفه ابنه الباقى على قيد الحياة من بين إخوته الآخرين، ريتشارد الأول Richard I (١١٨٩-١١٩٩) وأعلن على الفور عقب توليه السلطة عزمه على حمل الصليب والاتجاه إلـــى الشرق على مسئوليته الخاصة دون دعوة أو مباركة من البابوية، وهذا ما لا يمكـــن أن تغتفـــره الـــبابوية أو تسمح به حتى ولو كان فى ظل الصليب ومن أجل اســـتعادة البيـــت المقـــدس. ولمـــا كان قد أمضى عمره السابق كله دوقا لأكويتين Aquitaine فقـــد غدا غريبا عن إنجلترا، ومن ثم لم يمكث فيها من سنوات حكمه العشـــر إلا ســـنة واحـــدة فقط. ولما كان فى حاجة ملحة إلى الأموال للإنفاق على مشـــروعه الصـــليبى الذى كان متحمسا له تماما، فقد أمسى على استعداد لبيع كل الوظـــائف الإدارية والكنســـية علـــى الســـواء لمـــن يعرض أعلى الأسعار ثمنا للمنصـــب(٦٨) ومن ثم فإنه رغم جسارته التى خلعت عليه لقب "قلب الأسد" The Lionhearted إلا أنه لم يكن يلق قبولا حسنا من البابوية.

---

(٦٧) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى Barlow, Kingdom of England., pp.290-304.

(68) Ibid., pp. 353, 355

ولـم يكـن الملك الألمانى فردريك بربار وسا (١١٢٥-١١٩٠) ليرضى بأن تكـون دولـته بـأقل مـن الأخريتين، فرنسا وإنجلترا، ولم يكن هو أيضا أقل من معاصريه طموحا وقوة، ولذا سعى ليجعل من ألمانيا فى عهده الطويل أقوى الدول الأوروبـية، ولما كان فى الوقت نفسه هو الإمبراطور الرومانى فقد حرص تماما على أن يكون هذا اللقب له مدلوله العملى وليس مجرد تاج يزدان به مفرق الملوك الألمـان. وآمن فردريك إيمانا كاملا بأنه ليس فقط خليفة الأتووين والسكسون، بل قسـطنطين وثيودوسيوس وجوستنيان. واتضح ذلك جليا عند إصداره لقانون تنظيم جامعـة بولونـيا، إذا أصـر علـى أن يوضـع مرسومه ضمن مجموعة قوانين جوسـتنيان[٦٩]، ووجـد ضالته فى القانون الرومانى باعتباره امبراطورا رومانيا، وعثر فى الدايجستا Digesta على الإجابة الفلسفية التى ترد على المزاعم البابوية، فهى تعطى القانون السيادة الكاملة، وليس للكهانة أو الروح، جاء فيها: "القانون هو الملك لكل شيء – لما هو سماوى ولما هو إنسانى، إنه هو الضابط والحاكم والقائد للخـير والشـر" وتاه عجبا بمركزه الإمبراطورى بعد أن أوحى إليه رئيس أساقفة مـيلانو، أن إرادتـه هـى القانون[٧٠]. بكل هذا لم يكن غريبا أن يوصف فردريك برباروسـا بأنـه "هيلدبراند" Hildebrand الإمبراطورية[٧١]. ودعم اتجاهاته هذه عندما وقف موقفا متشددا إزاء محاولة البابا هادريان الرابع Hardian IV (١١٥٤-١١٥٩) أن يجعـل من الإمبراطورية مجرد "إقطاع" BeneficiumBenefici..... بـابوى؛ فلقـد كانت البابوية تضع فى اعتبارها بكل اليقين أنها لم تقصد مطلقا من إقامـة إمبراطور فى الغرب، تحقيق هذا بصورة عملية بحيث يصبح الجالس على العـرش إمبراطورا رومانيا بكل ما تعنيه الكلمة، وإنما مجرد موظف كبير بدرجة "حـاكم" يحمـل فقط لقب "إمبراطور الرومان" وليس "الإمبراطور الرومانى"، أى مجرد لقب أجوف لا معنى له.

---

(69) Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, From Constantine to St. Louis, London, 1957, p. 322; Bryce (J.), The holy Roman Empire, London, 1950, p. 169

(70) Davis, op. Cit. p. 325

(71) Tout (T.F.), The Empire and Papacy, London, 1924, p. 247

وللوقوف علىتفاصيل الصراع البابوى الإمبراطورى، راجع الفصل الأول.

ولم يكن فردريك بالذى يمكن أن يقبل "لعبة" البابوية هذه أو يستسيغها، وكان هذا من بين ما جعل فردريك يخلع لقب "القداسة" على الإمبراطورية، شأن البابوية، لتصبح منذ ذلك التاريخ ١١٥٧ "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" كما أسلفنا القول من قبل.

واتساقا مع هذا الفكر الإمبراطورى، يغدو إمبراطور الرومان هو "سيد العالم" (٧٢) Dominus mundi وبالتالى لا يمكن أن يستقيم هذا مع الفكر البابوى القائل هو الآخر بالسيادة على العالم، ولما كان العالم لا يتحمل من وجهة نظر كل منهما وجود سيدين، كان لابد أن تسير العلاقات بين الطرفين من سئ إلى أسوأ، ولقى الإمبراطور فردريك إذلالا فى عام ١١٧٧ فى ميلانو على يد البابا إسكندر الثالث، يكاد يقترب إلى حد ما من إذلال كانوسا الذى سبقه بمائة عام.

ورد الإمبراطور على الصفعة بأقوى منها عندما خطب ابنه هنرى (السادس) إلى الأميرة كونستانزا Constance وريثة عرش النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية سنة ١١٨٤، وتم الزواج فى احتفال مهيب شهدته مدينة ميلانو سنة ١١٨٦؛ ولما رفض البابا أوربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧) أن يتوج هنرى، أعلن فردريك ابنه إمبراطور شريكا وخلع عليه لقب "القيصر".

وشاء القدر أن يحرم البابوية آنذاك من شخصية قوية تعتلى كرسى القديس بطرس بعد وفاة اسكندر الثالث، الذى يعد مرحلة وسطى بين جريجورى السابع وإنوسنت الثالث. ولذا لم يكن أمام البابا الضعيف كلمنت الثالث، إلا أن يخاطب الإمبراطور فردريك فى أمر قيادة حملة صليبية باتجاه الشرق لاسترداد بيت المقدس ثانية، رغم أن برباروسا كان قد جاوز الآن السبعين من عمره، بينما قريناه فيليب أوغسطس الفرنسى وريتشارد قلب الأسد الإنجليزى فى ريعان شبابهما. ورغم أن الملكين الأخيرين لم يكونا أيضا على وفاق مع البابوية، إلا أن التهديد الأكبر والخطر الجاثم كان يتمثل لها فى الإمبراطور الرومانى، ولما كان البابا الواهن كلمنت الثالث عاجزا عن مواجهة تحديات فردريك بربارosa فى أوروبا،

---

(72) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 194

فـلا ضير في إغرائه بالابتعاد عنها والاتجاه إلى الشرق رغم ثقل خطوه في هرمه هـذا. ولـذا كان من المفيد جدا للبابوية إبعاده الآن عن الساحة الأوروبية ولو إلى حيـن. ولـيس من المبالغة في القول بأن فرحة البابوية بغرق فردريك وموته في الشرق، لم يكن أقل من فرحة المسلمين بذلك، تلك التي عبر عنها ابن الأثير بعبارة رائعـة حين قال، لو أن جيوش الإمبراطور وصلت إلى الشام "لكنا نقول إن مصر والشام كانتا للمسلمين، ولكن الله سلم".

ولـم يكن فردريك منتظرا لمثل هذه الدعوة من البابوية، وإن اعتبرها بادرة طيـبة في سياسة وفاق مستحيلة الحدوث، وهو ما لم يكن يدور بذهن البابوية، لكن الاثنيـن رغم العداء الشديد بينهما وجدتا في هذه الحرب الصليبية فرصة لتحقيق ما تسـعى إلـيه كل منهما، وكانت هناك أرضية مشتركة بينهما رغم هذه الكراهية، تمثلـت فـي فكرة العالمية الرومانية التي كانت تعني بالنسبة للبابوية وجود كنيسة عالمـية واحدة هي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وهذا يقتضي فرض السيادة على كنيسـة القسـطنطينية الأرثوذكسـية، وكان هذا هدف أساسي للبابوية اشتمل عليه فكـرها الصـليبي وسعت إلى تحقيقه منذ الدعوة إلى الحملة الأولى. وفي المقابل كانت العالمية الرومانية بالنسبة لفردريك برباروسا تعني وجود إمبراطور روماني واحـد، وتمـثل ذلـك في الرسالة شديدة السخرية التي بعث بها إلى الإمبراطور البـيزنطي مـانويل كومننوس Manuel Comnenos (١١٤٣-١١٨٠) على أثر هـزيمة الأخـير في موقعة ميريوكيفالوم Myriocephalum عام ١١٧٦ على يد سـلطان قونية السلجوقي، تتضمن خضوع "ملك اليونان" Rex Graecorum (يعني الإمـبراطور البـيزنطي) ومملكـته اليونانـية Regnum Graeciae للإمبراطور الروماني (يعني شخصه)[٧٣].

وعلـى هـذا النحو تبدو العالمية الرومانية عند كل من البابا وفردريك هي الـنقطة الـتي يمكن أن يكون عندها تناغم بين البابوية والإمبراطورية، حيث أنها تحـتم إجهـاض الإمـبراطورية البيزنطـية، إن لم يكن تدميرها وإخضاع كنيسة

(٧٣) هسي، العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، ص١٩٦

القسطنطينية إن لم يكن القضاء عليها[٧٤]، غير أن هذا التناغم لم يكن له وجود على الإطلاق فى علاقتهما على الأرض الأوروبية، انطلاقا من إيمان كل منهما المطلق بضرورة وجود سيد واحد يحكم هذا العالم، ولم يكن كلاهما أو أى منهما يقبل بغير هذا بديلا!! وليس أدل على ذلك من أنه بعد وفاة فردريك بربروسا فى حملته الصليبية سنة ١١٩٠، واعتلاء ابنه هنرى السادس العرش، لم يلق هذا الأخير أى عون أو تشجيع من البابوية فى إعداده للحملة الصليبية التى كان ينوى القيام بها ضد القسطنطينية، لا لشىء إلا أنه كان أعنف من أبيه فى سياسته مع البابوية، ولذا عد موته المفاجىء والمبكر فى سبتمبر ١١٩٧ فى صالح البابوية تماما[٧٥]، والتى لم تلبث أن حظيت فى العالم التالى مباشرة بشخصية من أقوى الشخصيات التى عرفها كرسيها فى العصور الوسطى هو البابا إنوسنت الثالث.

وبنفس الشاكلة التى جرى بها خروج الحملة الثانية، خرجت أيضا الثالثة، الإمبراطور الألمانى سلك الطريق البرى عبر وسط أوروبا، وليلقى حتفه غرقا فى أحد أنهار قيليقية Cilicia بآسيا الصغرى، وليتفرق جيشه الضخم فى غير انتظام، بينما أمضى ملكا فرنسا وإنجلترا شتاء ١١٩٠/١١٩١ فى صقلية، ثم ارتحل كل منهما وحده بجيشه باتجاه عكا، فيليب أولا وبعده بشهرين قصدها ريتشارد، وهكذا عملت الخلافات السياسية والعسكرية والمصالح الشخصية على عدم التقاء زعماء الحملة على عمل واحد. وكانت عاقبة أمرهم خسرا، إذا لم تحقق الحملة أى نجاح يذكر فى الشرق، ولم تكن البابوية راغبة ولا حتى قادرة آنذاك على إيجاد الوفاق بين الزعماء الثلاثة.

ولسنا مبالغين إذا ذهبنا إلى القول أن البابوية لم يكن لها دور جدير بالاعتبار فى هذه الحملة؛ فجريجورى الثامن لم يفعل أكثر من إذاعة دعوة عامة واهنة تتناسب ونهاية العمر التى كان يعيشها، وكلمنت الثالث لم يذهب أبعد من إرسال نداء إلى فردريك بربروسا، ولم يتيسر للبابوية – رغم أن الحادث جلل، أعنى

(74) Ullmann, A short history of the Papacy, pp. 186, 202-203
(75) Ibid. p. 206

ضياع بيت المقدس – شخصية مثل شخصية أوربان الثاني في الحملة الأولى، أو يوجينوس الثالث في الحملة الثانية، ولم يتوفر لها داعية موهوب مثل بطرس الناسك في الأولى أو القديس برنارد في الثانية. ولهذا يمكن وصفها بأنها حملة علمانية بحتة ليس لها من الصبغة الدينية شئ ولا من الرعاية البابوية نصيب، وهذه الأخيرة جاءت برضى الطرفين، فلا الملوك كانت عندهم الرغبة في مثل هذه الرعاية، ولا البابوية كانت قادرة على أن تهبها!

وهذا الموقف يفسر لنا ما حدث بعد ذلك على عهد البابا أنوسنت الثالث، الذى شهد عهده (١١٩٨-١٢١٦) الدعوة إلى حملتين صليبيتين هما الرابعة التى حققت حلم البابوية البعيد والعالمية الرومانية الخاصة بها، وذلك بإسقاط الإمبراطورية البيزنطية واحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وتحويل كنيستها إلى كنيسة كاثوليكية. والخامسة التى استهدفت مصر "رأس الأفعى" كما اعتبرها الصليبيون، والتى لقيت الفشل الذريع، وإن كان إنوسنت قد مات قبل أن يرى عطب ثمرة دعوته لهذه الحملة.

لقد حرص إنوسنت الثالث على أن يجعل من الفكرة الصليبية سلاحه الفتاك الذى يستخدمه فى الداخل والخارج فى مواجهة السلطة الزمنية لتحقيق أعلى قدر، بل الأعلى، للسيادة البابوية، وأفصح دون مواربة فى رسالة بعث بها إلى نبلاء تسكانيا Tuscany عن مدى سلطانه، يقول: "كما أن القمر يستمد نوره من الشمس، كذلك فإن السلطة الزمنية تستمد سلطانها وكرامتها من البابوية"[(٧٦)] وفى إحدى عظاته وصف نفسه بأنه "أدنى من الله وأعظم من البشر، قاضى القضاة الذى لا يقاضيه أحد"[(٧٧)]، وفى دعوته للحملة الصليبية الخامسة[(٧٨)] فى إبريل ١٢١٣ قال: "نحن نتكلم باعتبارنا نائب المسيح Vicarius Christi "، ولم يعد بذلك خليفة بطرس كما كان أسلافه.

---

(76) INNOCENT III, Letter to the prefect of Acdrbus and the Nobles of Tuscany

(77) INNOCENT III, Sermon on Consecration of a pope

(78) INNOCENT III , Proclaims the Fifth Crusade 19-29 April 1213

كان إنوسنت الثالث على اقتناع كامل بأنه "سيد العالم" Dominus mundi بلا منازع، ولم يسمح لأى شئ أن يعوقه عن تحقيق هذا الهدف، ومن ثم أنخرط بشكل عملى فى كل المسائل السياسية والدبلوماسية وكذا الإقطاعية والعائلية فى كل أوروبا، لقد امتزج الفكر الصليبى عند بفكرة السمو، وأصبحت الفكرتان لديه جوهرا واحدا وكان هذا واضحا بصورة جلية فى موقفه تجاه الإمبراطورية البيزنطية فى الحملة الصليبية الرابعة عندما هنأ زعماءها بالانتصار على "دولة متمردة وكنيسة مارقة"، وكذا سياسته تجاه الألبجنسيين Albigensians فى جنوب فرنسا، والجماعات الهرطقية، والشعوب الوثنية، إذ كان ينظر إلى سلوك هؤلاء جميعا باعتباره جرائم تحاك ضد السيادة الإلهية، وتندرج بذلك تحت تهمة الخيانة العظمى للبابوية، وكأنه كان يهتدى هنا برشد سلفه الأسبق جريجورى السابع الذى كان يردد دائما: "من ليس مع الكنيسة الرومانية فليس بكاثوليكى"[٧٩].

ولم يقف دوره فى النزاع الذى دار حول العرش الألمانى بعد وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ عند حد كونه حكما فقط، بل تعداه إلى التدخل السافر بين أطراف هذا النزاع الذى استمر من سنة ١١٩٧ حتى سنة ١٢١٤[٨٠]، منتقلا فى تأييده بين هذا الجانب وذاك دون مراعاة لأية قواعد أخلاقية فى الالتزام بالعهود باعتباره "نائب المسيح"، بل استخدم هذه المكانة ليفعل ما يحلو له تماما، وحصل من كل طرف من الأطراف الثلاثة، فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، وأوتو الرابع الولفى دون برنسويك، وفردريك الثانى ابن هنرى السادس، على وعود بحمل

---

(79) Ullmann, A short history of the papacy, p.220

(٨٠) فى عام ١٢٠١ وبعد ثلاث سنوات من اندلاع الحرب الأهلية فى ألمانيا صراعا حول العرش، أصدر إنوسنت الثالث وثيقة تعد من أخطر الوثائق البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى للفصل فى هذا النزاع، ورغم أنه قال فى ديباجتها أنه سوف يفصل فى القضية بمقتضى الشرعية والصلاحية، إلا أن حكمه فى النهاية جاء بعيدا تماما عن هذين المبدأين ومطابقا كلية لمصالح البابوية للمزيد من التفاصيل راجع، رأفت عبد الحميد، السمو البابوى بين النظرية والتطبيق، ص٢٠٨-٢١٢ وأيضا رأفت عبد الحميد، الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب (فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط المجلد الثانى ١٩٨٣، ص١٣٤-١٣٦

الصليب والاتجاه إلى الشرق، بالإضافة إلى تنازلات كبيرة لصالح الاكليروس على حساب سلطة الملك.

وتدخل إنوسنت الثالث فى السياسة الفرنسية عندما أقدم فيليب أوغسطس على الزواج من آجنى Agnes ابنه الدوق ميران Meran الصديق الصدوق لفيليب السوابى، وهجر زوجته إنجبورج Ingeborg أخت فلاديمير الثانى Wlademar ملك الدانمرك الذى كان من القلائل المؤيدين لأوتو الرابع، ولا زال البابا بالملك الفرنسى حتى اضطر فى النهاية إلى العودة إلى زوجته إنجبورج. ونصب من نفسه حكما فوق قمة الهرم الإقطاعى على رأس جميع الملوك عندما تدخل فى النزاع الذى دار بين ملك فرنسا وملك إنجلترا جون؛ وكان ذلك حينما قام فيليب أوغسطس بغزو نورماندى، ولما حاول البابا التدخل لفض هذا الصراع عن طريق وساطة أساقفة فرنسا، احتج فيليب بأنه ليس من حق البابا التدخل فى المنازعات الإقطاعية[81]، فأجاب البابا بوثيقة على جانب كبير من الأهمية، صدرت عنه فى سنة ١٢٠٤، جاء فيها أنه لا يرغب مطلقا فى انتهاك الحقوق السيادية الشرعية لملك فرنسا، وليست لديه النية للحكم فى القضايا الإقطاعية، ولكن فيليب وقع فى الخطيئة، وللبابا الحق كل الحق فى أن ينظر فى مثل هذه الخطايا!! خاصة إذا كانت الحرب قد اندلعت بسبب هذه الخطيئة، ومن واجبات البابا الأساسية رعاية السلام والدفاع عنه[82] وكان من بين ما قاله فى هذه الوثيقة: "ليس هناك من لا يعلم أن من بين اختصاصات منصبنا "توبيخ" أى ملك مسيحى إذا ما زلت فى الخطيئة قدمه، بل وإخضاعه قهرا للعقوبات الكنسية إذا لم يمتثل لقراراتنا .. وإذا كان يقال إن الملوك يجب أن يعاملوا معاملة تختلف عن الآخرين، فإننا نعرف أيضا أنه مكتوب فى القانون السماوى: "لا تنظروا للوجوه فى القضاء، للصغير كالكبير تسمعون، لا تهابوا وجه إنسان لأن القضاء لله" (تثنية ١٧/١).

---

(81) Tierney, Crisis, pp. 127-129

(82) Ibid. pp. 134-135

وبلــغ ســلطانه فى فرنسا أقصاه عندما وجه الدعوة إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين فى جنوب فرنسا، ورغم أن فيليب أوغسطس رفض الاشتراك فى هذه الحــرب، وأبــدى استياءه من التدخل البابوى السافر فى شئون دولته، إلا أن البابا مضــى قدمــا فــى خطــته، ووعد الأمراء الفرنسيين فى الشمال بالحصول على الأراضــى الخاصــة بالالبجنسيين فى الجنوب، إقطاعا خاصا لهم(٨٣)، مما اضطر فيليــب فى النهاية إلى المشاركة فى هذه الحملة حتى لا يخرج الأمر من بين يديه داخل بــلاده، وحــتى لا يترك المسألة برمتها للبابوية. وفى عام ١٢١٥، فى مجمع اللاتيران الــرابع، الــذى دعــا فيه لحملة صليبية جديدة، أعلن البابا توقف الحرب الألبجنسية – وكان قد حقق النصر له – وانتهاءها لمصلحة الحرب فى الأراضى المقدسة.

وفــى إنجلترا، على عهد ملكها جون (١١٩٩-١٢١٦) أدت المنازعات التى دارت حول اختيار أسقف لكنيسة كانتربورى فى سنة ١٢٠٥، وإقدام الرهبان على اختــيار زعــيمهم ريتالد Reginald ثم إسقاطه واختيار أسقف بدلا منه بناء على ضــغط ملكى، إلى عدم اعتراف إنوسنت الثالث بالاختيارين معا، فلما قدم الرهبان إلـــى رومـــا أوحى إليهم البابا باختيار أحد زملائه فى جامعة باريس هو "لانجتون Langton ســنة ١٢٠٧ فلما رفض جون هذا التدخل السافر فى شئون مملكته لقنه الــبابا درسا قاسيا، إذ أصدر ضده قرار الحرمان الكنسى ووضع شعبه تحت اللعنة عام ١٢٠٨، مما دفع كثيرا من الرهبان للهروب إلى روما يتضرعون إلى البابا أن يــرفع عن إنجلترا هذه اللعنة، ولكن البابا زاد فى غطرسته حين راح يغرى فيليب أوغســطس بغــزو إنجلترا ووعده بالاعتراف بسيادته عليها، وكان هذا كفيلا، إلى جانب تمرد الشعب والرهبان والاكليروس بأن يدفع جون إلى قبول أن يكون فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية فى عام ١٢١٣(٨٤)، والاعتراف بلانجتون أسقفا لكانتربورى.

---

(83) INNOCENT III, Letter to King Philip ii of France, 17 November 1207, on the Proclamation of the Albigensian Crusade "Letter to the Faithful in the Provinces of Narbone, Arles, Embrum, Aix and Vienne, 10 March 1208 on the Proclamation of the Albigensian Crusdae.

(84) JOHN KING OF ENGLAND, Concession of the kingdom to the pope 1213 Innocent III, Letter to King john of England accepting his Feudal homage, April 1214.

وفـــى الرسالة التى بعث بها إنوسنت الثالث إلى الملك جون. يعلن فيها قبوله أن يكون ملك إنجلترا فصلا إقطاعيا تابعا للبابوية، جمع البابا فى كلماته كل ما من شـــأنه تكريس السلطتين الروحية والزمنية فى يديه، ولضفى على نفسه من الألقاب والســمو مــا يجعــل الملــوك إلى جواره نسيا منسيا، قال: "يسوع المسيح، ملك الملوك،رب كل رب، الكاهن على رتبة" ملكى صادق" Melchisedech الذى جمع للكنيســة الكهانـــة والملكـــية، وجعل فوق الجميع رجلا لختاره بنفسه ليكون نائب المســيح علـــى الأرض (يقصــد البابا بطبيعة الحال) – ولما كان الجميع قد خروا راكعيــن فى السماء وعلى الأرض لعظمة المسيح، كان حتما مقضيا أن يفعلوا ذلك أيضـــا مع نائبه من أجل أن يكون هناك شعب واحد وراع وحيد. وعلى كل ملوك الدنــيا أن يجلوا ويوقروا هذا النائب طاعة له، مدركين فى الوقت نفسه أن شرعية حكمهم ترتبط كلية بالولاء التام لنائب المسيح على الأرض والسعى إلى مرضاته".

ولـــم تكن التبعية الفصلية التى أعلنها ملك انجلترا هى الأولى من نوعها، بل سبقه إليها ملك بلغاريا جوانيتزا Joannitza ، وكذلك أرغونة Aragon التى أمست تحت سيادة ملكها بطرس الثانى إقطاعا بابويا فى عام ١٢٠٤ بينما جددت البرتغال وقشتالة العهود الإقطاعية مع البابوية.

أما فى شمال أوروبا وشمالها الشرقى، فمن أجل تأييد الأسقف المبشر ألبرت Albert فى ليفلاند Livland دعا البابا المسيحيين فى سكسونيا ووستفاليا إلى حملة صــــليبية ضد الوثنيين هناك، وأصبحت هذه سياسة البابوات من بعد، وفى كل من الســـويد والـــنرويج أضـــحت السياسة الإنسنتية عاملا أساسيا فى التدخل فى مسألة اعتلاء العرش والجدل الدائر حوله. وسمح لدوق بوهيميا "أوتوكار" من جانب البابا وموافقـــة أوتـــو الـــرابع ملك ألمانيا، بحمل لقب ملك بكل امتيازاته[٨٥] وفى المجر تدخلـــت الـــبابوية فـــى النزاع الذى دار بين الأخوين "إمريك" Emmeric وأندرو Andrew حـــول العـــرش، ويمكن القول باختصار إن النشاط البابوى شمل أوروبا كلهـــا، وأصـــبح الـــبلاط الـــبابوى هو المركز الحكومى المشغول دائما فى العالم

(85) INNOCENT III Grants the title of King to the Duke of Pohemia 1204

آنـذاك(٨٦). وهكـذا فإن البابوية فى مطلع القرن الثالث عشر أصبحت تضم تحت سـلطانها أكـبر عـدد من الأفصال الإقطاعيين قل أن تمتعت به أى سلطة زمنية أخرى فى أوروبا.

هكـذا تضـمنت البابوية أن تكون صاحبة اليد العليا فى أوروبا كلها خلال العقـد الأول مـن القرن الثالث عشر الميلادى، وساهمت الظروف السياسية التى سـادت أوروبـا آنذاك فى تحقيق هذا السمو البابوى، ولا نستثنى من ذلك فقط إلا فيليـب أوغسـطس الملـك القوى لفرنسا، وإن كان الرجل قد آثر عدم الدخول فى مواجهـة مـع الـبابوية، ولـم تكـن شخصـية فـردريك الثانى، الملك الألمانى والإمـبراطور، قـد أفسحت مكانا على المسرح السياسى آنئذ. وهكذا خلت الساحة تمامـا لإنوسـنت الثالـث أن يفعـل ما يحلو له مع كل ممثلى السلطة الزمنية فى أوروبـا، وأن يندفع بكل قوته الآن ليحرك أوروبا من جديد فى حملة صليبية تحقق له الجزء الباقى من حلمه الكبير فى السيادة العالمية.

لـم يكن غريبا إذن أن يكون الشغل الشاغل لإنوسنت الثالث منذ اليوم الأول لاعـتلائه كرسـى القديس بطرس الحملة الصليبية التى يجب أن تتجه إلى الشرق لاسـترداد القدس، واعتبر ذلك أولى مهامه المقدسة بعد أن فشلت الحملة "العلمانية" الـتى قادهـا ملوك أوروبا الثلاثة "العظام" فى تحقيق أى نجاح يمكن أن يكون له تأثير على مسيرة الحركة الصليبية.

وكـان الصراع الداخلى الذى نشب حول العرش الألمانى عقب وفاة هنرى السـادس الفرصـة التى اهتبلها دون توان؛ فبعد أن أصدر وثيقته المشهورة(٨٧) فى عـام ١٢٠١ واعـترف فيها بـ "صلاحية" أوتو الرابع الولفى للعرش، رغم عدم شـرعيته، عـاد بعـد عامين من الحرب الأهلية التى كان ينفخ فيها باستمرار، بل والـتى كانـت الوثـيقة فى جوهرها دعوة لإشعالها، عاد وقد رأى الكفة تميل إلى صالح الهوهنشتاوفن يبدى رضاه عن فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، ولم يكن ذلك

---

(86) Ullmann, A short history of the Papacy, p. 215

(87) INNOCENT III, Decision of Innocent III in regard to the disputed election 1201

إنصـــافا للحق بل طمعا فى المصلحة البابوية، ودعما للفكر الصليبى البابوى إذ قدم فيليــب وعــدا قاطعا على نفسه فى وثيقة رسمية(٨٨) صدرت عنه فى عام ١٢٠٣، بحمــل الصــليب دفاعا عن الأراضى المقدسة، جاء فيها: ".. من أجل السلام مع الكنيســة، فقد نذرت للرب والقديسين أن أعبر البحر لأحرر الأرض الموعودة من قســاوات الوثنييــن. ولما جاءنى رسول البابا يعرض على السلام مع الكنيسة فإنى نذرت ثانية ووعدت الله وقديسيه وممثلى البابا بكل الإيمان، ودون أى إنفاق، القيام بحملة صليبية من أجل دعم الكنيسة والإمبراطورية، وسوف أبذل كل ما فى وسعى مــن أجــل تحريــر هــذه الأرض .. وإذا قدر الله لى السيادة على الإمبراطورية اليونانية (البيزنطية) فإنى سوف أخضع الكنيسة اليونانية للكنيسة الرومانية".

والوثــيقة تكشــف عــن مدى استخدام البابوية للفكرة الصليبية – كما قدمنا – ســلاحا فــتاكا ترهب به خصومها أصحاب السلطة الزمنية، وتلوح لهم به لقاء مساندة عروشــهم! هذا بالإضافة إلى أنها تبين أيضا أن البابوية كانت عازمة تماما على بسط ســلطانها علــى الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية وإدخالها ضمن حظيرة الكاثوليكــية. ولم يكن فيليب السوابى ليعلن عن ذلك فى وثيقته هذه إلا بوحى من رسل الــبابا، خاصة وأنه كان مرتبطا بعلاقة مصاهرة مع الكسيوس (الرابع) الذى عزل عن العــرش هــو وأبوه اسحق الثانى أنجيلوس Isaac II Angius على يد الكسيوس الثالث Alexius III وحــتى لــو أدخلنا فى اعتبارنا أن فيليب السوابى قد أعلن ذلك بناء على اســتنجاد صـــهره بـــه، فلــم يكــن من الحصافة التصريح بأنه سوف يخضع كنيسة القســطنطينية لكنيسة روما. ومن ثم فليس هناك شك فى أن هذه العبارات أملاها عليه رســل البابا بوحى من حبرهم الأعظم، ولم يكن فيليب، المتطلع إلى العرش، وفى مثل هذه الظروف العصيبة، يملك إلا أن يكتب ما يملى عليه!

هــذا مــثال واحــد من أمثلة أخرى جرى تطبيقها مع أوتو الرابع والشاب فــردريك الــثانى الــذى أخذت عليه العهود والمواثيق مرة عند تتويجه ملكا سنة ١٢١٢ والأخرى عند تتويجه إمبراطور عام ١٢٢٠.

(88) PHILIP OF SUABIA, Concessions of Philip to Innocent III 1203

ومــن الجدير بالذكر أن البابوية دخلت فى تجربة قاسية نتيجة الظروف التى أحاطــت بالحملة الصليبية الرابعة؛ ذلك أن كل الجهود المضنية التى بذلها إنوسنت الثالــث مــنذ اعتلائه العرش البابوى، وجهود كلمنت الثالث من قبله، لم تسفر فى الــنهاية إلا عــن حملــة تضم مجموعة من الأمراء يتزعمهم بلدوين التاسع أمير الفلانــدرز، وأخوه هنرى، وبونيفاس دى مونتفرات، وثيبوت الثالث أمير شامبنى، ولويس كونت بلوا. ولم يقم أحد من الملوك بالاشتراك فيها، فملوك ألمانيا كانوا فى شغلٍ شاغل بنزاعهم الداخلى عن الالتفات إلى الأرض المقدسة، وفيليب أوغسطس لــم يكــن راغبا فى إعادة التجربة الصليبية مرة أخرى، منصرفا إلى تقوية مركز الملكــية فــى الداخــل، وجون الإنجليزى كان يعانى من عداوة أمرائه وأكليروسه ورهبانه والبابوية حتى عام ١٢١٥، والبابوية نفسها تدير حربا صليبية خاصة جدا فــى ألمانيا بين المتصارعين على العرش، وتشعر بالقلق فى الوقت نفسه من جراء الــثورة التى تسير قدما فى الجنوب الفرنسى من جانب الألبجنسيين. والبنادقة الذين لجأ إليهم أمراء الحملة لنقلهم بسفن البندقية إلى مصر، وجهة الحملة لم يكن يعنيهم مــن أمــر الصليب إلا ما يحقق مصالحهم التجارية بعد أن غدت البندقية من أعظم الجمهوريــات الــتجارية الأرســتقراطية فــى البحرالمتوسط عندئذ، وكان شعار أدواجهــا.. بــنادقة أولا وصليبيون ثانيا .. إذا دعت الضرورة! ولم يفق البابا من دسائســه إلا جــنود الصــليب يدمــرون مدينة زارا Zara المسيحية على الشاطئ الأدرياتى المقابل، وكانت تابعة لملك المجر، وأرادتها البندقية لنفسها مركزا تجاريا جديدا متميزا. فانزل اللعنة على من فعلوا ذلك، ثم أعطاهم دبره مرة أخرى متحرفا إلى ما يدور فى ألمانيا!

لقد أمضى جنود الصليب ما يزيد على عامين كاملين يقيمون فى البندقية بلا عمل، لا يجدون من الملوك من ينفق عليهم وعلى مشروعهم الصليبى، ولا يجدون فى البابوية نفسها التى دعت إلى هذا المصير الرعاية المرجوة. وإن كانت البابوية والبــنادقة قــد اقــتطفوا فــى نهايــة الأمر الثمرة كلها، باخضاع الكنيسة الشرقية للكاثوليكــية، وابــتلاع الأراضــى البيزنطية فى القسطنطينية وشبه جزيرة المورة

ومنطقة البلوبونيز[٨٩]. وحققت البابوية حلمها البعيد الذى كانت تهدف إليه، وتحققت أمنيات فيليب السوابى التى أملتها عليه البابوية.

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة بالنتيجة التى انتهت إليها من تدمير زارا واسقاط القسطنطينية، قد جاءت لتؤكد بما يدع مجالا للشك انحراف الفكرة الصليبية عـن أهدافهـا المعلـنة على لسان أوربان الثانى، فإنها فى الوقت نفسه تمثل نقطة فاصـلة بيـن المرحلتيـن الثانية والثالثة من الحركة الصليبية، وإذا كانت المرحلة الأولـى قـد تميزت بالدعوة العامة للحرب والاستجابة العامة أيضا لها من جانب الأمراء، عصب الحياتين السياسية والاقتصادية فى أوروبا آنذاك، والرعاية البابوية الكاملـة، وضـمت الثانية الدعوة العامة، والنداءات الخاصة الموجهة لملك بعينه، والـرعاية الـبابوية المصحوبة بنشاط السلطة الزمنية، وتمثلت فى الحملتين الثانية والثالـثة، فإن المرحلة الثالثة والأخيرة اختصت بالطابع الفردى للحملات الصليبية، فلـم تعـد أوروبا تخرج عن بكرة أبيها بملوكها وأمرائها وأقنانها، وإنما اقتصرت الحـرب على ملك بعينه، يقود جيشه، وباتجاه الشرق قاصدا مصر بصفة خاصة. وكـان هـذا راجعا فى المقام الأول إلى أن أوروبا القرن الثالث عشر لم تعد هى أوروبـا القرنين الحادى عشر والثانى عشر، فقد آذن النظام الإقطاعى فى إنجلترا وفرنسا بصفة خاصة بالرحيل، وإن بقى فى ألمانيا طويلا من بعد، ونشطت حركة الـتجارة الداخلـية والخارجـية، وازداد عـدد المدن الجديدة، وأنشئت الجامعات، وتغـيرت الأفكـار السائدة فى المجتمع الأوروبى بصفة عامة إلى حد ليس بالقليل ومع أن هذه الظواهر كلها قد بدأت تلوح فى الأفق منذ منتصف القرن الثانى عشر المـيلادى، إلا أنها راحت تمكن لنفسها الآن فى الأرض الأوروبية، ولعل من أدق مـا قيل فى التعبير عن ذلك، ما أورده إرنست باركر فى كتابة "الحروب الصليبية" بقولـه: "إن تـاريخ الحملـة الصليبية الرابعة يعد نموذجا لتسلط النزعة العلمانية،

---

(٨٩) عـن الحملـة الصليبية الرابعة وظروفها ودور البابوية والبنادقة والألمان فيها راجع كلارى (روبرت) القسـطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤؛ فيلها ردوان، مذكرات، ترجمة حسـن الحبشـى، جده، ١٩٨٢؛ اسحق عبيد، روما وبيزنطية من قطيعة فوشيوش حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، القاهرة، ١٩٧٠.

ومحاولة البابوية فى الوقت نفسه التخلص من ذلك التسلط وتلك السيطرة، ومواصلة مـا اشتهرت به من قبل من توجيه الحروب الصليبية، وما حاق بهذه المحاولة من الفشل الذريع".

وإزاء هـذا الموقف الجديد الذى بدا واضحا من خلال انعدام الحماسة الدينية إزاء الحرب الصليبية، إبان الحملة الرابعة، كان على البابوية أن تغير هى الأخرى من أسلوبها لتضمن بقاء هذه الفكرة الصليبية قائمة، ولتظل فى الوقت نفسه ممسكة بـأوراق اللعبة كلها فى أيديها كما أرادت دائما. بل إن البابوية فى فكرها الصليبى فـى هذه المرحلة، جعلت الحرب الصليبية مسألة شخصية بحتة، تمس مكانة البابا وقدسـية الكنيسـة، وتحولـت من حرب مقدسة – كما كانت تسميها – إلى عداء شخصى بين البابا وكل من يجرؤ على عصيان أوامره.

ورغـم مـا بـدا للجميع ساعة سقوط مدينة قسطنطين فى يد جند الصليب اللاتين، من أن هذا يعد انتصارا ساحقا للبابوية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية على الإمـبراطورية والكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، إلا أن هذا كان سرابا سرعان ما تـبدد مع كل اقتراب من أرض الواقع، فوجود إمبراطورية لاتينية فى القسطنطينية ومـنطقة البلوبونـيز، حـرم الممـتلكات والإمارات الصليبية فى الشام من توالى الإمـدادات المتتابعة من أوروبا، بعد أن فضل كثير من الصليبيين الذهاب إلى هذه المملكـة الجديـدة بعيدا عن المحيط الإسلامى المحيط بهم فى الشام، ومن ثم فقدت هـذه الإمـارات موردا بشريا متجددا يقدم من أوروبا، فى الوقت الذى تزايدت فيه قـوة المسـلمين تحت زعامة مصر فى عصريها الأيوبى والمملوكى، بينما تكشف للأوروبيين أن الأرض البيزنطية لم تكن هى أرض الأحلام الموعودة، وخير دليل علـى صدق ما نذهب إليه هو أن المسلمين استردوا الرها والقدس خلال المائة عام الأولـى مـن مجـىء الصليبيين فى الحملة الأولى، بينما تساقطت باقى الممتلكات الصـليبية فـى أيديهم خلال أقل من ربع قرن من الزمان، فاسترد الظاهر بيبرس أنطاكـية سنة ١٢٦٨م واسترجع المنصور قلاوون طرابلس عام ١٢٨٩، وعادت آخـر معاقلهم، عكا، فى سنة ١٢٩١ على يد الأشرف خليل بن قلاوون، بينما نجح

البيزنطـيون فـي اسـترداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م. ومن هنا ندرك أن سقوط الإمبراطورية على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة لم يكن نعمة بقدر ما كان نقمة على الحركة الصليبية بصفة عامة.

وها هو إنوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية جديدة عدت الخامسة، يحاول أن يحشـد لها كل طاقات أوروبا، مؤملا أن يعود زمان أوربان الثانى من جديد، لكن دون جـدوى. ويضـع أملـه كله فى فردريك الثانى، ولكن عبثا كان يحاول يقول موجهـا خطابه "للمؤمنين"[٩٠] إن الأمل ليحدونى أن تكون المساعدة التى تقدم إلى الأراضى المقدسة الآن تفوق بكثير كل ما قدم لها من قبل .. ويجب أن يعلم الجميع أننـا نـتكلم باعتبارنا "نائب المسيح على الأرض"، وأن كل من يتقاعس عن خدمة المخلـص فى هذه الساعات الحرجة، يستوجب اللوم كل اللوم .. لا تترددوا فى أن تقدمـوا أنفسـكم وأموالكـم فداء لمن قدم روحه لكم فداء" وأعلن حمايته على كل المشاركين فى الحملة مع التعهد بحماية أسرهم وممتلكاتهم إلى حين عودتهم، ودعا إلـى إسـقاط فوائـد الديون المتراكمة على المشتركين فى الحملة، وألزم السلطة الزمنية بأن تتخذ مع اليهود الإجراءات الكفيلة بعدم تحصيل هذه الفوائد، بل ورد ما دفـع مـنها. وكتب إنوسنت الثالث بهذا المعنى رسائل إلى أساقفة كل من "سباير" Spcyer[٩١] وأوجزبـرج[٩٢] Augsburg، وريـنزبرج[٩٣] Regensbury، ووجه الدعوة لعقد مجمع اللاتيران الرابع فى علم ١٢١٥، وهيأ له من أسباب النجاح كل مـا يمكـنه، وحرص على أن يدعو إليه أيضا العلمانيين تأكيدا لفكره فى مواجهة السلطة الزمنية، وكان من بين الحضور يوحنا التورى John of Tours مندوبا عن ملـك بيت المقدس جان دى بريين Jean de Berinne ومندوب عن الإمبراطورية

(90) INNOCENT III, Proclaims the Fifth Crusade, April 1213

(91) INNOCNT III, Letter to Contrda, dean of speyer, September 1213

(92) INNOCNT III, Letter to the abbot of Salem, the former abbot of Neuburg, the dean of Speyer and the Provost of Augsburg, May 1213

(93) INNOCNT III, Letter to Conrad pishob of Regensburg, September 1213

الرومانية المقدسة، وممثلون لملوك فرنسا وإنجلترا وإسبانيا، ورسول من الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وملك هنغاريا.

وفى المجمع حدد البابا مصادر تمويل الحملة، حتى لا يحدث ما حدث من قبل للحملة الرابعة، وأوجه الإنفاق الضرورية، وكل ما يتعلق بإجراءات مسارها، وضرورة اتجاهها إلى مصر لتحطيم "رأس الأفعى" هذه، ومن بين هذه التعليمات التى أقرها أنه "يجب على المشاركين أن يطلعونا على خططهم حتى يتسنى لنا أن نمدهم بمندوب بابوى يقدم المشورة لهم. وعلى البطاركة ورؤساء الأساقفة وجميع الكهنة أن يحثوا الملوك والأدواق والأمراء والماركيزات والكونتات والبارونات وعليه القوم الآخرين، وبالتعاون مع العواصم والمدن والقلاع، .. أن يوفروا عددا ملائما من الجنود بأسلحتهم وعتادهم ومؤنهم التى يحتاجون إليها طيلة ثلاث سنوات قادمة، عوضا عن الذين لا يستطيعون الذهاب إلى الأراضى المقدسة بأنفسهم"[٩٤].

وهذه كلها تنبئ عن رغبة البابا فى أن يدس أنفه فى كل أمر من أمور الحملة، بعد أن انتهى من مشاكله فى أوروبا ودانت له كلها بالطاعة، حتى لا تتكرر مأساة المحاربين الصليبيين وما جرى لهم فى البندقية من قبل. وحتى يضمن نجاح الحملة فى الخارج فيكتمل الشق الأخير من سيادته على أراضى الشرق، بعد أوروبا والقسطنطينية.

ويبدو أن الأقدار كانت رحيمة بإنوسنت الثالث، فمات عام ١٢١٦، قبل أن يشهد النهاية المأساوية التى آل إليها أمر الحملة الصليبية الخامسة فى مصر، والتى يعود الفضل فى جانب منها إلى صلف وغطرسة المندوب البابوى نفسه[٩٥] وكانت حلقة فى سلسلة الفشل المتلاحق لحملات الملوك!

لقد كان "بلاجيوس" المندوب البابوى صورة متجسدة لشخصية وفكر وأهداف وطموحات سيده الراحل إنوسنت الثالث، فرغم كونه الزعيم الروحى للحملة، إلا

---

(94) INNOCENT III, Legislates of the Fourth Lateran Council for the fifth Crusade, 30 November 1215

(٩٥) عن الحملة الصليبية الخامسة راجع محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥.

أنـــه أبـــى إلا أن يكون القائد العسكرى لها، ورجل السياسة الذى يدير دفة الأمور أثناء فترة المفاوضات التى جرت بين سلطان مصر الملك الكامل الأيوبى من ناحية وصـــليبى الحملة الخامسة من الناحية الأخرى وضاعت تماما بفعاله شخصية الملك جـــان دى بريـيــن، الـــذى أمسى من الناحية النظرية فقط، قائد هذه الحملة، ودار الصــــراع خفـــيا تـــارة وســـافرا تارات أخرى بين بلاجيوس ومؤيديه من التجار الإيطـاليـيــن أصـــحاب المصالح التجارية الكبرى فى الشام ومصر، ومعهم فرسان الدوايـــة والاســـبتارية، وبين الملك وأنصاره، كانت الغلبة خلال جولاتها كلها من نصـــيب المندوب البابوى، مما دفع جان دى بريين إلى مغادرة دمياط كارها، تاركا ساحة القتال والمفاوضات لبلاجيوس، ولم يعد إلا عندما بدأت الحملة تستعد للزحف جـــنوبا تجـــاه القاهرة، خوفا من أن يناله غضب البابوية!! وكانت عجرفة المندوب الـــبابوى وغروره اللذان فاقا كل وصف سببا رئيسيا فيما لحق الحملة الخامسة من هزيمة مروعة كادت تودى بجنودها أجمعين إلى الهلاك المحقق، لولا رحمة الملك الكامل الأيوبى.

والآن .. جـــاء الـــدور علـــى الإمبراطور فردريك الثانى ليفى بعهوده التى قطعها على نفسه للبابوية، لكن فردريك كان رافضا فكرة الحرب الصليبية كلها من البداية، غير مؤمن بأسبابها، غير مقتنع بجدواها، خاصة وأنه قد نشأ فى أول عمره فـــى صقلية، ووقف على الحضارة الإسلامية المتميزة التى خلفها المسلمون هناك، وتضـــلع فى علوم كثيرة من ميادين المعرفة الإنسانية، وأجاد الحديث بست لغات، كانـــت العربـــية واحدة منها، متسامحا فى عصر طفح بالتعصب، حتى عرف بأنه "أعجوبـــة الدنـــيا" أو "محـــير العالم" "mundi Stupor" ولم يكن يقارنه فى ذلك فى زمانه إلا سلطان مصر الكامل الأيوبى، حتى شبههما كانتروفتش[٩٦] بأنهما وجهين لعملـــة واحـــدة معبرا عن ذلك بقوله: "كان الكامل هو الوجه الشرقى للإمبراطور، بينما كان فردريك هو الوجه الغربى للسلطان".

---

(96) Frederick the Second, p. 185.

لهذا ظل فردريك يسوف فى أمر الخروج حاملا الصليب على امتداد خمسة عشـر عامـا كاملة (١٢١٣-١٢٢٧)، رغم ما قدمته له البابوية من إغراءات مثل تـزويجه مـن يولاند Yolanda وريثة عرش بيت المقدس سنة ١٢٢٥. حتى إذا أصـدر الـبابا جـريجورى التاسع Gregory ضده قرار الحرمان الكنسى فى عام ١٢٢٧ لم يجد بدا من الخروج حاملا الصليب بيمينه واللعنة على كتفيه!

وإذا كـان فردريك قد نجح عن طريق المفاوضات مع نظيره الملك الكامل، فـيما فشل فيه ملوك أوروبا عن طريق الحرب، ورغم الجهود المضنية التى بذلتها الـبابوية فى أوروبا ولدى ملوك الأيوبيين فى مصر والشام، لتحول دون تحقيق أى نجـاح يمكن أن يحرزه الإمبراطور فردريك الثانى، إذ أن البابوية اعتبرت نجاحه في استرداد القدس ثانية "كارثة صليبية" حلت بساحتها، إذ عادت على يد إمبراطور محروم من رحمة الكنيسة.

لقد كانت البابوية تكره تماما أى نجاح يمكن أن يحققه أى من ملوك أوروبا على الجـبهة الصـليبية، إذا لم يكن يدين بالولاء الكامل لها والخضوع التام لسيادتها، بل لم تكن تتورع أو تتردد مطلقا فى أن تضع بنفسها العراقيل فى سبيل نجاح يمكن أن يحققه خارجـا عن ظل عرشها حتى ولو كان ذلك ضد المسلمين فى الشرق!! فما بالها الآن وهــذا النجاح يتحقق لملك أيدته هى بقيود اللعنة وحرمته من رحمتها.وإذا كانت القدس هــى القيثارة التى عزفت عليها لحن الأمانى قبل أن تقع فى أيدى قوات الحملة الصليبية الأولــى، ثــم راحت تترنم على أوتارها بأنشودة الأحزان بعد أن ضاعت من يديها بعد أن اســتردها صلاح الدين، فإنها كانت على استعداد تام أن تحطم هذه القيثارة تماما إذا كان بقاؤها سوف يحمل لها الخذلان والصغار؛ فحرمان ملك من رحمة الكنيسة ولعنته يعنى غضب السماء عليه، ولابد أن شعب الكنيسة كله سوف يتساءل .. كيف يمكن أن تبارك السماء ملكا محروما ملعونا، وترضى عن أعماله، فتمنحه – بغير قتال – القدس مديــنة المسيح؟! ومن هنا كانت البابوية تترك تماما أنها فى موقف لا تحسد عليه، وإلا فـبم نفســر مراســلاتها لملوك بنى أيوب ترجوهم ألا يقدموا أى عون لفردريك الثانى طريد رحمتها؟!

مـــن هنا، ودون أى تردد أو حياء، كان لابد أن تعلنها البابوية حربا صليبية طاحـــنة ضد فردريك الثانى. لقد تصورت يوم وفاة أبيه هنرى السادس أنها ودعت الكـــابوس الإمـــبراطورى المتمـــثل فى شخصه بذراعيه المبسوطتين، إحداهما فى ألمانيا والثانية فى جنوب إيطاليا وصقلية. وتبسمت ضاحكة يوم وقع فردريك على وثيقة انفصال صقلية عن ألمانيا وإعطائها لابنه هنرى (السابع)، وظنت أنها نجحت فـــى ذلـــك بعد أن اصطنعت فردريك لنفسها وربته على عينيها. لكن ذلك كله بدا سرابا عندما رأت فكرة العالمية الرومانية التى أرساها فردريك الأول تطل برأسها مـــن جديد فى حفيده وسميه الثانى، وزادت قناعتها عندما أقدم فردريك على تزويج ابنه "إنزيو" Enzio من وريثة عرش سردينيا.

وكـــان هـــذا الـــزواج لطمة قاسية للبابوية، أعاد إلى الأذهان زواج هنرى السادس من كونستانزا! وريثة عرش النورمان فى صقلية. وكانت البابوية – بغض الـــنظر عـــن الاعتـــبارات الاســـتراتيجية – تنظر إلى سردينيا على أنها جزء من ممـــتلكاتها، طـــبقا لهبة قسطنطين المزعومة، وليست شيئا يخص الإمبراطور[97] ولذلـــك كله صممت البابوية على تدمير الهوهنشتاوفن جميعا وليس فردريك وحده، وأعلنتها حربا صليبية ضد كل أفراد هذه الأسرة ومن ينتمى إليها، حتى لقد شبهت هـــذه المرحلة من الحرب بين فردريك وأبنائه من ناحية والبابوية من الأخرى أنها "حـــرب إبادة" Guerre a Qutrance لأن المنتصر فيها لن يرحم المهزوم، وهو ما يحدث بالفعل من بعد.

ولـــم تكن معاهدة سان جرمانو San. Germao التى وقعت بين الطرفين إلا إجـــراء مؤقتا لالتقاط الأنفاس[98] ففى عام ١٢٣٨ كلفت البابوية أساقفة "فيرزبرج" Werzburg و"وورمـــز" Worms و "فرسالى" Vercelli و "بارما" Parma بتدبيج اتهامـــات معينة ضد الإمبراطور، وامتثل الأساقفة للأمر، وقدموا ما عهد به إليهم فى أربعة عشر اتهاما تدور كلها حول هرطقة الإمبراطور وفسقه وفجوره وانتهاكه

---

(97) Ullman, A short history of the Papacy, p. 257

(98) TREATY of San. GERMANO, 1230

للمقدسات، وحنثه باليمين، وتجديفه، وعدم وفائه بنذره أكثر من مرة. وتناول فردريك كل هذه الاتهامات بالرد والتفنيد[99] ولكن دون جدوى.

وكان مما يزعج روما الآن إلى حد الفزع، أن الإمبراطور أرسل بالأسرى اللومبارديين والمرتزقة التابعين للبابوية إلى روما، بعد انتصاره عليهم عند كورتنوفو Cortenovo ومعهم أعلامهم وأبواقهم، باعتباره إمبراطورا رومانيا، جريا على عادة الأسلاف الأقدمين، وأعلن في الوقت نفسه عن مشروعات كانت تعد بعيدة المنال، وداعبته الآمال حول إعادة مجد الرومان، وبعث الحياة في رومولوس Romulus مؤسس روما، واعتزم تقسيم إيطاليا إلى أقاليم جديدة يديرها حكام رومان يعيدوا لها بهاءها المندثر[100]، وصدقت البابوية، أو لنقل أنها أرادت أن تصدق ذلك خاصة أنها كانت من وجهة النظر القانونية الرومانية العاصمة الفعلية للإمبراطورية التي يرأسها إمبراطور روماني، وكان هذا تصورا طبيعيا بعد اختفاء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق. وهكذا وجدت البابوية أن الأيديولوجية التي صنعتها بنفسها في خلق إمبراطور في الغرب، قد ارتدت الآن إلى نحرها، ولم تكن تملك إلى ذلك دفعا، فهي التي توجت فردريك بيدها إمبراطورا. ولم يكن ليلام إذا ما حاول أن يجعل من هذه الأيديولوجية البابوية حقيقة واقعة[101].

لذلك ما أن وضع البابا يده على الاتهامات التي طلب من قبل إعدادها، ورفض السماع لدفاع فردريك عن نفسه، حتى أصدر على الفور في عام ١٢٣٩ قرار الحرمان الكنسي من جديد ضد الإمبراطور، وقرنه باللعنة، وضمنت حيثيات القرار ستة عشر بندا[102] تناولت كل الاتهامات السابقة، وكان من بينها أنه استولى على أراضي الداوية والاسبتارية، وأنه كان عائقا في سبيل استعادة الأراضي المقدسة، وهذا الأخير تزييف صريح للحقائق .. ولكن البابوية كانت تنظر للأمور من وجهة نظر شخصية، وبفكر صليبي خاص بها.

---

(99) GREGORY IX & FREDERICK II, Papal Charges and Imperial defence 1238

(100) Thompson & Johson, Medieval Europe p. 423

(10) Ullmann, A Short history of the Papacy, p. 257

(102) GREGORY IX, Excommunication of Frederick II 1239

وطفقت البابوية تطلق أساقفتها ورجال أكليروسها فى أوروبا كلها ليحرضوا ناســها وملوكهـــا ضد فردريك، وكان مجمع ليون المنعقد فى عام ١٢٤٥ مظاهرة لتأييد البابوية، تقرر فيه التأكيد على حرمان فردريك. ورغم أن الإمبراطور لم يلجأ إلـــى تعييـــن بابـــا منافس، فقد كان صريحا فى حربه شريفا فى ممارستها، إلا أن الــبابوية استخدمت كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للقضاء على فردريك، فدبـــرت مؤامـــرة لاغتـــياله فـــى إيطاليا، ودفع البابا الجديد إنوسنت الرابع خمسة وعشـــرين ألف مارك من الفضة إلى أحد النبلاء الألمان، وهو هنرى أمير ثورنجيا ليقبل التاج بدلا من فردريك، ودفع ستة آلاف مارك أخرى لشراء أصوات الأمراء الناخبين، إلا أن الموت عاجل هنرى، فاختار البابا خلفا له وليم كونت هولندا(١٠٣).

وفـــى عـــام ١٢٥٠ مـــات فردريك الثانى، فتنفست البابوية الصعداء، لكن الحرب الصليبية ظلت مشتعلة ضد ولديه كونراد فى ألمانيا ومانفرد فى صقلية، ثم حفيده كونراديو Conradino الذى كان صبيا صغيرا لا حول له ولا قوة، غير أن الــبابوية رأت أن مجرد بقاء أى فرد من أسرة الهوهنشتاوفن على قيد الحياة يعنى أن الحرب الصليبية التى أعلنتها ضدهم لم تنته بعد.

---

(103) Thompson & Johnson, Medieval Europe, pp. 247-248

- كل الوثائق التى ورد ذكرها فى الحواشى السابقة موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية:
- Bettenson (H.), Documents of the Christian Church, London 1956 .
- Cantor (N.), The Medieval World 300-1300, London 1968.
- Care (R.) & Coulson (H.), A Source book for Medieval Economic History, New York 1965
- Hinderson (E.F.), Select historical documents of the Middle Aes, London 1925
- Riley – Smith, The Crusades, Idea and Reality 1095 – 1274, Documents of Medieval History, London 1981
- Thatcher (O.J.) & Mc Neal (E.H.) , A source book for Medieval history, New York.
- Tierney (B.), The Crisis of Church and State, 1050-1300, U.S.A. 1964.
- The Middle Ages, vol. I, Sources of Medieval history, New York 1978.

وحتى تصل إلى نهاية إلى هذه الحرب، فقد تم القبض على كونراديتو من جانب جيوش البابوية وعملائها في إيطاليا، وسيق إلى نابولى حيث تم إعدامه عام ١٢٦٨.

لقد حققت البابوية في فكرها الصليبى صعودًا واضحًا. لكنها في الوقت نفسه منيت أيضًا بحالة من التخبط بدت جلية في الفترة التالية. لقد راحت البابوية تبشر بالحرب الصليبية وتدعو لها ضد المسيحيين مثل فلاحى "ستتيجر" Stedinger في ألمانيا، الذين رفضوا دفع الضرائب لأسقفهم، ومن قبل ضد الألبجنسيين في جنوب فرنسا، وقبلها أغمضت عينيها – إلا من احتجاج واهن عما حدث ضد أهالى مدينة زارا Zara على يد جنود الحملة الصليبية الرابعة. أو في الأراضى المقدسة نفسها ضاعت القدس من بين يديها إلى غير رجعة سنة ١٢٤٤ لصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر. وفوق هذا وذاك فإن الشعوب الأوروبية نفسها أظهرت نوعًا من الضجر الذى لا تخطئه العين تجاه الحركة الصليبية عامة، بعد أن راحت تتكشف النوايا الحقيقية للفكر البابوى الصليبى.

وليس أدل على ذلك كما يقول أولمان Ullmann من أنه على الرغم من أن جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦) ظل يحتفظ ببرنامج صليبى بعد الفشل الذى لحق بحملات لويس التاسع في الشرق، وبعد فرض ضريبة صليبية جديدة في مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤، إلا أن الاستجابة الأوروبية لهذا النداء وتلك الضريبة كانت من الناحية العملية صفرا. ولم تلبث الإمارات الصليبية الباقية في الشرق أن راحت لصالح المسلمين بعد هذا التاريخ بسبعة عشر عامًا. بل إن التنازلات الضخمة التى قدمها الإمبراطوران البيزنطيان يوحنا الخامس ومانويل الثانى على حساب العقيدة والتقاليد البيزنطية العريقة، وذلك بالتخلى عن الأرثوذكسية والتحول إلى الكاثوليكية قربانًا على مذبح البابوية، واستعطافًا لمسيحى أوروبا، من أجل مد يد العون للإمبراطورية لمواجهة المد العثمانى الهادر، لم تلق إلا الأمنيات الطيبة وقبض الريح!!

هكذا كان الفكر البابوى الصليبى ركنًا هامًا من أركان السمو للحبر الأعظم الرومانى في رحلة السمو الطويلة التى قطعتها البابوية في العصور الوسطى،

وحرصت البابوية على أن تجعل من الحرب الصليبية أداة طيعة لتحقيق كل ما كانت تصبو إليه من علو شأن في مواجهة السلطة الزمنية. ولعل خير تعبير جرى بـه قلم كاتب معاصر، كان هو ما كتبه متى الباريسي تعليقا على ذلك، يقول : "لقد حاول فردريك جاهدا حتى أخريات أيامه أن يقيم السلام بينه وبين البابا، لكن البابا أعلن أنه لن يسمح بعودة الإمبراطور إلى مكانته السابقة تحت أى ظرف من الظروف، ومهما قدم من تنازلات. ويؤكد البعض – والكلام ما زال لمتى الباريسى – أن البابا كان يرغب قبل كل شئ فى تحطيم فردريك وتلطيخ سمعته وسحقه، متهما إياه بأنه التنين الأعظم حتى يتسنى له بعد ذلك تحطيم ملوك إنجلترا وفرنسا وكل ملوك المسيحية، الذين كان يتحدث عنهم باعتبار كل واحد منهم "مليك" (تصغير ملك)، و"ثعبان صغير"، وذلك بعد أن يوقع الرعب فى قلوبهم عن طريق ما يفعله مع فردريك، وبذا يصبح قادرا على إنهاك قواهم هو وأساقفتهم .. كل ذلك من أجل سعادته هو وحده! إن جشعه وحبه الشديد للمال هما السبب في كل هذه الكوارث.. لقد أغشى المال بصيرته .. إن البابا – وهو الأب الروحى – هو المسئول عن كل هذا القلق والاضطراب الحادث فى العالم، ولم لا ؟ لقد سار على خطى قسطنطين، وترك درب القديسين!!

وبعد هذا كله فإن باحث فى تاريخ الحركة الصليبية لا يستطيع أن ينكر الدور الرئيسى الذى اضطلعت به البابوية على امتداد هذه الحركة؛ فهى التى دعت لها فى البداية، وروجت لها، وكرست جزءا كبيرا من وقتها وجهدها للدعاية لها، وقام البابوات أوربان الثانى ويوجينيوس الثالث وكلمنت الثالث وإنوسنت الثالث وجريجورى التاسع، بإطلاق أبواق دعاياتهم لخروج الحملات من الأولى إلى السادسة على التوالى، ونقل بطرس الناسك الصيحة التى أطلقها أوربان الثانى يقصد بها الأمراء إلى جموع العامة والدهماء فى الحملة الأولى و"أقفرت قرى من ساكنيها" بفعل جهود برنارد مقدم دير كليرفو فى الحملة الثانية. وأعلنت البابوية الغفران التام لما تقدم من الذنوب وما تأخر لمن يحمل الصليب إلى الشرق، وأسبغت نعمها وحمايتها على فرق فرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون، وفرضت الضرائب وجمعت الأموال، وأعلنت رعايتها للضياع التى يقلع عنها أصحابها

متجهيـــن إلـــى الأراضى المقدسة من أجل الصليب. هذا كله لا يمكن إنكاره ولكن الـــذى لا يمكن إنكاره أيضا أن هذا كله جرى شريطة أن يكون تحت عباءة البابوية الفضفاضـــة التى أراد لها أصحابها أن تسع العالم كله ولما كان ملوك أوروبا الذين خـــرجوا علـــى رأس جيوشهم فى حملات صليبية، قد فعلوا ذلك خارج هذه العباءة بعيدا عنها، باستثناء ملكى فرنسا لويس السابع وسميه التاسع، وكان لابد أن يشملهم الغضـــب الـــبابوى بدلا من العباءة البابوية، فقد وجدت فيهم البابوية منافسا خطيرا يهـــدد زعامـــتها لعالم المسيحية، فالنصر فى ميدان الصليب إذا تحقق على أيديهم، نســـب لهـــم دون ذكـــر لها، وهذا ما يرفضه تماما الجالسون على عرش القديس بطـــرس فى روما، أو نواب المسيح على الأرض، إذ يجب أن تكون مقاليد الأمور كلهـــا بأيدى هؤلاء، وأن تتجمع بين أصابعهم خيوط اللعبة كلها، ومن هنا كان لابد أن تعلنها البابوية حربا صليبية سافرة ضدهم.

وكـــان الإذلال الذى جرى فى كانوسا لهنرى الرابع والإمبراطورية على يد جـــريجورى الســـابع والبابوية، علامة بارزة فى هذا السبيل قبل أن تبدأ رحلة أول حملة صليبية إلى الشرق الإسلامى بعشرين عاما.

لقد كان الأمراء هم عصب الحياة السياسية والعسكرية فى أوروبا آنذاك فى ظـــل النظام الإقطاعى، وكان الملك يستمد قوته فى الناحيتين من وقوف أمرائه إلى جـــواره، وفـــى تخليهم عنه كان الخسران المبين، ولما كانت فرنسا هى بؤرة هذا النظام، لذا لا نجد غرابة فى أن الحملات كلها انطلقت منها باستثناء السادسة، وكان أمـــراؤها وفرسانها هم الدماء التى تجرى فى عروق الحركة الصليبية، وهكذا كان الأمـــراء فـــى ألمانيا وإنجلترا، من هنا كانت دعوة أوربان الثانى فى جوهرها إلى الأمـــراء، المحاربيـــن، وهى دعوة تعنى فى حقيقتها أيضا سحب البساط تماما من تحـــت أقـــدام الملـــوك، أصحاب السلطة الزمنية، الذين أدركوا هم الآخرون مدى خطـــورة مـــا أقدمت عليه البابوية، فراحوا بدورهم بدءا من الحملة الثانية يعلنون قيادتهم لأمرائهم فى هذه الحملات الصليبية.

هكـذا كانـت الحـروب الصليبية تسير فى اتجاهين .. أولهما الحرب ضد المسـلمين فـى الشرق، ولكل من البابوية والملوك أهدافهم المتباعدة من وراء هذه الحـرب، وثانيهما الحرب التى أعلنتها السلطة الروحية ممثلة فى الكنيسة الرومانية وباباواتها ضد السلطة الزمنية ممثلة فى الإمبراطور والملوك. ولما كانت البابوية قد اعتلـت قمـة جبل السمو فى كانوسا، فقد بات مستحيلاً بالنسبة لها التخلى عن هذه المكانـة، بل أصبح لزاما عليها أن تسعى بكل ما تملك إلى تكريس هذا السمو، وما زالت به حتى جعل الباباوات من أنفسهم، ليس فقط خلفاء بطرس، بل نواب المسيح علـى الأرض، وأعلـنوها حـربا صليبية شرسة لا رحمة فيها ولا هوادة، ودون مواربة، ضد أصحاب السلطة الزمنية فى أوروبا. وهكذا – كما قال متى الباريسى – سارت البابوية على خطى قسطنطين، وتركت درب القديسين"!!

الفصل الثالث

المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية

فـــى النصـــف الثانى من القرن العاشر الميلادى، وعقارب الزمن تشير إلى السنة الثانية من ستينيات هذا القرن، كانت خشبة المسرح السياسى فى مدينة روما تعد ليعاد عليها تمثيل فصول مسرحية كان قد جرى إخراجها من قبل بمائة واثنتين وستين سنة على وجه التحديد.

ففـــى ليلة عيد الميلاد لعام ثمانمائة .. أعنى الخامس والعشرين من ديسمبر ســنة ٧٩٩، تقدم الحبر الرومانى ليو الثالث ليضع على رأس ملك الفرنجة شارل العظـــيم Carolus Magnus (Charlemagne) تاجـــا، وليعلنه إمبراطورا للرومان وكـــان الـــباب ذاك قد تعالى من قبل فى الزمن صراخه، مستغيثا بالملك الفرنجى، مـــتخوفا من ضربات اللومبارد فى الشمال الإيطالى، وعداوات نبلاء الرومان فى مدينة روما ذاتها ولما كان شارلمان يعلم يقينا ما سوف يجره عليه هذا التتويج من خلافـــات قـــد تصل إلى العداء مع أصحاب الحق الشرعى فى التاج الرومانى على شطآن البسفور فى القسطنطينية، فقد أدعى كاتب سيرته ومادحه إينهارد Einhard فى عمله الباقى Vita Caroli أن شارل العظيم لم يكن يعلم عن هذه الناحية شيئا[١] ولـــيس بخـــاف علـــى أحـــد أن شـــارلمان – وأن لم يكن قد خلع على نفسه لقب الإمـــبراطور حتى تلك اللحظة، إلا أنه كان يحمل جوهره، ويرفل فى حقيقته نتيجة

---

(١) ناقشت هذه القضية باستفاضة فى تقديمى لترجمتى لكتاب العالم البيزنطى ص ١٦ – ٢٠ ولمزيد من التفاصيل انظر

Einhard, The life of Charlemagne, trans. by: Lewis Thorpe, in (Two lives of Charlemagne by Einhard and Notker stammerar). Penguin Book, 1969; G. Baraclough, The Mediaeval Empire. Idea and Reality.

وقـــد نقلـــه إلـــى العربية وعلق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه "الدولة والإمبراطورية فى العصـــور الوسطى" ص ٣٨–٤٢، ١٨٣ – ١٨٩. وراجع Bryce, The Holy Roman Empire, pp. 64 - 62 وأيضا: ديفز، شارلمان، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى، ص ١٧٢ – ١٨٧.

توسعاته في فريزيا وسكسونيا، وحروبه مع المسلمين في الأندلس، ونشاطاته المتعددة في الداخل خاصة الميدان الثقافي.

والحقيقة التي لا مراء فيها، أن المناداة بشارل العظيم إمبراطورا في الغرب على يد البابوية، كان يمثل التتويج العملي لرحلة طويلة من المودة والتفاهم بين مملكة الفرنجة الميروفنجية، ومن بعد الكارولنجية، والكنيسة الرومانية. بدأت منذ زمن طويل يعود إلى عهد كلوفيس Clovis في أوليات القرن السادس الميلادي عندما تحول الفرنجة وحدهم – والناس في ذلك الزمان على دين ملوكهم، إلى المسيحية النيقية الكاثوليكية وراء زعيمهم، دون القبائل الجرمانية الأخرى التي آوت إلى المسيحية الآريوسية، ووجدت لنفسها فيها مستقرا وإيمانا [٢] هذا من ناحية، ومن الأخرى مسيرة العداء السافر قدما، والتباعد بين كل من روما والقسطنطينية، بفعل التناقضات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يسعر لهيبه حمى الخلاف العقيدي الذي كانت الحروب اللايقونية ذروة توهجه، والتي وجدت فيها البابوية فرصتها للخلاص من نفوذ ولو ضئيل لسلطة شرعية تتمثل في أباطرة بيزنطة، إلى كيان تتبادل وإياه مصالح مشتركة، تمنحه التاج، ويقدم لها الحماية والأمان.

والآن .. تؤدي البابوية بالمهارة نفسها، ذلك الدور، فيبعث البابا الغر يوحنا الثاني عشر صيحات الاستغاثة إلى الملك الألماني أوتو الأول السكسوني، بعد أن راح اللومبارد يهددون ممتلكاته في وسط إيطاليا، ويضيق النبلاء الرومان عليه الخناق داخل المدينة، ويوقعون به الأذى، بعد أن سرى في المدينة تهتكه وخلاعته مسرى الفضيحة [٣].

---

(٢) انظر للمؤلف الدولة والكنيسة، الجزء الرابع، الفصل الثاني.

(٣) عن شخصية يوحنا الثاني عشر، راجع . Stephenson, Mediaeval history pp. 243 – 245
أيضا . Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 152
ويصفه أورتون Orton بقوله "ليس هناك ذرة من أمل في انتشاله من فسوقه" انظر C.M.H. VOL. III, P. 161 وعن فساد البابوية بصفة عامة في القرن العاشر والدور الذي قامت به سيدات المجتمع الروماني أمثال ثيودورا وابنتها ماروزيا Marosia وسلطاتهم المباشر ونفوذهم في اختيار البابوات حسب هواهن، راجع Tout, The Empire and papacy, pp. 29 – 30.

وفـــى عـــام ٩٦٢ أتى أوتو الأول روما، وأعاد البابا إلى كرسيه الأسقفى، وأعلـــن بوجـــوده العسكرى فى مدينة القديس بطرس حمايته لراعى الكنيسة فيها، فكـــان جـــزاؤه أن عاد إلى ألمانيا محملا بتاج الإمبراطورية، على غرار ما جرى لشارل العظيم منذ قرن ونصف من الزمان وينيف.

ولـــم تكـــن هذه هى المرة الأولى التى قدم فيها أوتو إلى إيطاليا، لكن مجيئة الســـابق كانت له أسبابه الخاصة بإيطاليا وألمانيا على قدر سواء، ولكن البابوية لم تكـــن صـــاحبة الدعـــوة آنذاك، ذلك أن الفوضى التى ابتليت بها إيطاليا فى القرن العاشـــر المـــيلادى، ووقوعهـــا بين أيدى قوى متعددة تتنازع أمرها على امتدادها الجغـــرافى، كانت من بين العوامل الهامة التى استحثت خطى الملك الألمانى على أن يقـــود جيشـــه عبر الألب باتجاه الشمال الإيطالى، فايطاليا كانت قد أضحت نهبا للطامعيـــن خارجها والعابثين فيها، منذ أقدم الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) على تدمير قوه مملكة القوط الشرقيين فى أوليات النصف الثانى من القرن السادس المـــيلادى. ورغـــم أن خليفته غير المباشر – موريس Maurice (٥٨٢ – ٦٠٢) حـــاول تدعـــيم النفوذ البيزنطى هناك أمام زحوف اللومبارد الذين عصفوا بجهود جوستنيان بعد ثلاث سنوات فقط من وفاته واكتسحوا الشمال الإيطالى، وذلك عندما أقـــدم علـــى إقامة أرخونية رافنا، التى يجمع حاكمها فى يديه السلطتين العسكرية والمدنـــية لمواجهة كافة الاحتمالات إلا أن وجود نائب إمبراطورى يتضاءل كثيرا أمـــام وجود حكومة قوية مستقرة كانت تمثلها مملكة الاوستروقوط. كما أن وسط وجنوب إيطاليا لم يكونا بمأمن من تهديدات المسلمين بعد أن تمت لهم السيطرة فى القـــرن التاسع الميلادى على صقلية، وتعرضت روما نفسها لهجماتهم فى منتصف القرن ذاك. وهكذا باتت إيطاليا، التى لم تعد سوى تعبيرا جغرافيا، موزعة اشلاؤها بيـــن اللومبارديـــن فى الشمال والوسط، والبيزنطيين فى أبوليا Apulia وكالابريا Calabria بينما البابوية يمتد سلطانها على مناطق من وسط إيطاليا وترنو ببصرها إلـــى أبعد من ذلك، والمسلمون يشكلون خطورة لها أهميتها على السواحل الغربية وروما والجزر المجاورة.

فــإذا أضــفنا إلى هذا التفسخ السياسى وحالة الضعف والتردى العام فى كل نواحـــى الحـــياة، ثـــراء منطقة لومبارديا، وخصب الريف الإيطالى، وسحر روما القديمـــة بكلاســـيكيتها والوسيطة بمسيحيتها وقديسيها بطرس وبولس، أيقنا أن هذه كلهـــا كانـــت عوامل جذب تستحث أى غاز فيها أو طامع. وفى هذا السبيل بذلت المحـــاولات من ناحية رودلف الثانى Rudolf II ملك برجنديا، عندما تم استدعاؤه فى عام ٩٣٠ من جانب النبلاء الإيطاليين، ثم عاود الكرة مرة أخرى فى سنة ٩٤٧ . بـــل أن دوقـــات ألمانيا أنفسهم رنوا بأبصارهم عبر الألب إلى هذه المنطقة، وفى مقدمـــتهم دوق ســـوابيا لـــيودولف Liudolf ابن اوتو الملك الألمانى، وكذا هنرى المشـــاغب Henry the quarrelsome دوق بافاريا فى عام ٩٥١ طمعا فى توسيع رقعة ممتلكاتهم (٤).

ولا شك أن هذا الاتساع لممتلكات فصلين إقطاعيين من أفصال أوتو الأول، حتى لو كان أحدهما ابنه. سوف يحمل فى طياته نذر خطر يتهدد سلطانه، ولم يكن أوتو بالذى يقبل بقيام ملكية ضعيفة يصبح هو فيها فقط الأول بين أقرانه Primus inter pares كمـــا تقضـــى سمات النظام الاقطاعى، والملكية الألمانية الانتخابية، ولكـــنه كان حريصا منذ البداية على أن يعيد إلى الأذهان سيرة سلفة العظيم شارل الكارولـــنجى، فـــتلقى تـــاج الملكية الألمانية فى آخن، وأصر على أن يكون حفل التـــتويج نموذجا للتبعية المطلقة من جانب أفصاله الإقطاعيين وليس مجرد مراسم شـــكلية تقلـــيدية (٥) ومن ثم لم يتوان أوتو عن العمل ليقف فى وجه أطماع كل من

(٤) انظر: Barraclough, The origins of modern Germany, pp. 49 - 51
وأيضا Scott, Medlieval Europe, p. 71.
وكذلك Strayer & Munro, op. cit., pp. 152 - 153.

(٥) فى المأدبة التى أعقبت مراسم التتويج قام الأمراء الألمان، إبرهارد Eberhard دوق فرنكونيا، وهرمان Herman دوق سوابيا. اللورين بالمهام التشريفية ما بين الحجابة وتقديم الشراب ورئاسة الخدم، وكان هذا تقليدا رمزيا من النظام الإطاعى، غير أنة الأيام أثبتت بعد ذلك أن مفهوم أوتو عن الملكية الألمانية يجب أن يبدو على هذا النحو، فكبار الأمراء الألمان لابد يكونوا أفصالا تابعين يعملون فى خدمة التاج، أما دوقياتهم فليست إلا اقطاعا من الملك. انظر:
Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 356.
وأيضا Davis, A history of Medieval Europe, p. 216.

ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا، وانتهز فرصة الاستغاثة التى جاءته من أدلهيد Adelheid أرملــة أحد المتنازعين على عرش مملكة لومبارديا، تطلب فيها عونه ضــد برنجار Berengar ماركيز ايفريا Ivria وقد حسم أوتو مشكلة الصراع على العــرش بالــزواج مــن الأرملــة الحســناء هــذى، وحمل دون مراسم لقب ملك اللومبارديين وترك برنجار فصلا تابعا له فى شمالى إيطاليا.

وإذا كان دافع أوتو الأول للتدخل فى إيطاليا عام ٩٥١ هو محاولته الوقوف فى وجه دوقى سوابيا وبافاريا، والحد من أطماعهما، فإن هذين لم يكونا أقل حرصا علــى مبادلــته المعاملة بالمثل، فقد كان الأمراء العلمانيون يدركون تماما ما الذى يعينه وجود ملك قوى على العرش الألمانى، ولذا فقد أعلنوها حربا أهلية ضروسا، استهدفت فى المقام الأول الإطاحة بأوتو من على العرش، كما استهدفت فى الوقت ذاتــه حــياته فاندلعت الثورة وشارك فيها ابنه دوق سوابيا وكونراد دوق فرنكونيا، ودوق اللوريــن واستمرت قرابة السنوات الثلاث (٩٥٣ – ٩٥٥) حتى تمكن الملك الألمــانى من إخمادها، وكانت هذه الثورة السبب الرئيسى فى أن يولى أوتو وجهه شطر رجال الاكليروس ليجعل منهم جنده وأعوانه.

علــى أن النتيجة الرئيسية التى خرج بها أوتو من هذه الأحداث، تمثلت فى سعيه الدائب لتحطيم سطوة كبار النبلاء، وتفتيت الدوقيات الكبيرة، حتى لا يجد فيها أصحابها سندا يحثهم على تحدى السلطة الملكية، بل أن هذه النظرة تخطت الأمراء العلمانيــن لتمــتد إلى الاكليروس، ذلك أن السياسة الكنيسة التى تبناها أوتو وسار علــيها خلفاؤه، وكانت بعينها تلك التى وضع قواعدها الأباطرة قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧) Constantinus I وثيودوســيوس (٣٧٨ – ٣٩٥) Theodosius وجوستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥) Iustinanus والــتى إذا كانــت تعــترف بحق الكنيسة فى مناقشة المسائل العقيدية ووضع نظمها، فإنها مع ذلك تظل مجرد هيئة حكومية شأنها شأن بــاقى الهيــئات الأخرى تحت سلطان الإمبراطور الذى عد نفسه مسئولا مسئولية مباشــرة أمــام الله. ثم أليس بيبن الأول Pepin I هو الذى دافع عن البابوية، وعن طريق هبته الشهيرة نشأت الدولة البابوية؟ ألم يكن شارلمان وخلفاؤه هم الذين حموا

البابوات وأثروا الكنيسة؟ ومن ثم فرجال الكنيسة، شأن الموظفين العلمانيين، ليسوا إلا رعايا الإمبراطور، انطلاقا من إعطاء ما لقيصر لقيصر [٦]. وفى المقابل كانت الكنيسة ترفض أى سلطان دنيوى عليها فهى قد نشأت دون مساعدة أحد، وكثيرا ما كتب آباؤهم وعلى رأسهم أوغسطين Augustinus أن المؤسسات السياسية كانت النتيجة التلقائية لخطيئة آدم [٧].

وبناء على ذلك، يمكننا أن نفسر الخلاف الذى وقع بين كل من أوتو الأول وابنه غير الشرعى الذى كان أسقفا لمينز Mainz، عندما حاول الملك الألمانى التدخل فى شئون الكنيسة هناك، فرفع الأسقف الابن الأمر إلى البابوية فى روما. وهناك أدرك أوتو أن أياديه البيضاء على الكنيسة الألمانية ما زالت قاصرة عن تحويل الولاء الكامل لرجال الاكليروس إليه، وأيقن الرجل أن الكنيسة الألمانية ليست بمعزل عن الكنيسة الأم فى روما، وأنها ليست مستقلة الشأن، ولذا فقد آمن أن عليه إذا ما أراد السيطرة على الكنيسة الألمانية بعامة أن يبسط سلطانه أولا على الكنيسة الرومانية، أو بتعبير آخر، فإن الطريق إلى الاكليروس الألمانى يبدأ من روما.

وواتت أوتو الفرصة عندما استدعته الأحداث فى روما نفسها، ممثلة فى رجاء البابا يوحنا الثانى عشر أن يخف لنجدته من مضايقات برنجار وطموحه الذى يهدد الأملاك البابوية. ورغم أن يوحنا كان يلح فى طلبه منذ عام ٩٥٧، إلا أن أوتو كان مشغولا عن البابا بنفسه، يحاول تثبيت دعائم سلطانه، والقضاء على المؤامرات التى كانت تبتغى رأسه، فلما أفاق كان عليه أن يسرع الخطى إلى روما ليجيب البابا إلى مطلبه وليحقق فى المقام الأول سيادته على رأس الكنيسة الرومانية.

---

(٦) انظر : Stephenson, op. cit., p. 247

(٧) انظر : Pirenne, A history of Europe, pp. 136 - 7; 184-5.

وراجع: Augustinus, De Civitata Die, XXII, 22

وكذلك: Paoluci, The political Writings of St. Augustinus, pp. 1-183

وفـــى فبراير ٩٦٢، وفى نفس المكان الذى توج فيه شارلمان من قبل مائة واثنتيـــن وســـتين سنة تلقى أوتو الأول الملك الألمانى، من يد يوحنا الثانى عشر، البابا الرومانى، تاج الإمبراطورية. وهذه الحادثة تشير بما لا يدع مجالا للشك إلى أن أوتـــو الأول راح يســلك ســبيل ســلفه العظيم شارل، أو على حد تعبير أحد المؤرخيـــن الألمـــان، أن الملكـــية الألمانـــية كانت موجهة إلى السير على درب الثيوقراطـــية الكارولنجـــية [8] مع فارق لا يخفى شأنه، هو أن الكارولنجيين عملوا علـــى جعـــل الدولـــة هيـــئة دينية، بينما حاول أوتو أن يجعل من الكنيسة مؤسسة دنيوية[9].

علـــى أنـــه ممـــا تجدر الإشارة إليه بادئ ذى بدء، أن أوتو الأول جاء إلى إيطالـــيا بدافع من المصالح الألمانية فى المقام الأول، وأن ظروف ألمانيا الداخلية، ومحاولته المستميتة إقامة ملكية ألمانية قوية، يجلس على عرشها ملك مقتدر، يحنى له الأقصيال من العلمانيين والاكليروس، الهام إجلالا وتوقيرا، كان الباعث الرئيسى وراء مقدمـــه على التدخل فى المشكلات الإيطالية. وإذا كانت الدعوة قد جاءته من الـــبابوية، فـــإن الدافـــع كان كامنا فى ألمانيا. خاصة وأنها كانت فى القرن العاشر المـــيلادى تفـــوق بكثـــير جاراتهـــا، وأصبحت ذات مركز مرموق فى قيادة عالم المســـيحية فـــى الغـــرب الأوروبى [10] ومن ثم فلا مجال هنا لما يرمى به بعض

(8) Joachimsen, The investiture contest and the German Constitiutions, p. 98.

(9) Pirenne, op. cit., pp. 136 – 7, 184 – 185.

(10) Mayer, The histoeical foundations of the German Constitutions.

والحقيقة أن ألمانيا كانت أسعد حظا من فرنسا وانجلترا فى القرنين التاسع والعاشر، ففى فرنسا بعد عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ دخلت فرنسا فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمراء باريس، بينما تحطمت إيطاليا تحت ضربات النبلاء، وعانت انجلترا الكثير من هجمات الدانيين بعد وفاة الفرد العظيم سنة ٩٩٨ وخاصة فى النصف الثانى من القرن العاشر وأوليات سنى القرن الحادى عشر، هذا فى الوقت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار أرنولف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى، ورغم أن هذا أدى إلى إحياء التقليد الجرمانى القديم الخاص بحق اختيار الزعيم، وقاد إلى تقوية نفوذ النبلاء وأضعاف سلطان الملكية على المدى طويل، إلا أنه أعطى ألمانيا حكما قويا. وقد عاد الأمراء الألمان إلى ممارسة حقهم ثانية سنة ٩١١ بعد وفاة لويس الطفل واختاروا كونراد دوق فرنكونيا. انظر:

Barlow, The feudal Kingdom of England, pp. 1-3

وأيضا Strayer & Munro, op. cit., pp. 147 – 149.

وكذلك C.M.H. Vol III, pp. 311, 323 – 325.

المؤرخين أوتو من لوم معتبرين إياه قد إنساق بذهابه إلى إيطاليا وراء تحقيق مكاسب شخصية وسمعة ذائعة يعيد بها لنفسه ذكرى سلفه العظيم شارل (١١) وإن كان هذا لا ينفى أن أوتو الأول هو الذى وضع أسس سياسة الارتباط الكامل بين إيطاليا وألمانيا، لقرون طويلة سواء فى القوة أو الضعف (١٢) وما ترتب على ذلك من عواقب وخيمة لهذه وتلك.

فلقد كان حمل لقب "امبراطور الرومان" يثير من الناحية القانونية مشكلة تستعصى على الحل، فهذا اللقب وإن كان بصورة أخرى - أعنى "الامبراطور الرومانى" يحمله الأباطرة الرومان الشرعيون فى القسطنطينية، وليس لأحد أن ينافسهم فيه. فسلسلة الأباطرة هناك لم تنقطع ابتداء بأوكتافيانوس أوغسطس فى روما القديمة، إلى قسطنطين العظيم فى روما الجديدة، وصولا إلى الجالس على العرش آنذاك نقفور فوقاس Nicephorus Phocas والنظرية السياسية الرومانية لا تعترف أبدا بوجود إمبراطوريتين رومانيتين، بل هى إمبراطورية واحدة، حتى وأن جلس على عرشها أربعة أو ثلاثة أو اثنان، بل وأن تنازع على هذا العرش ستة أباطرة (١٣).

وليس أدل على ذلك من أن المعاصرين الجرمان، وهم أعداء الإمبراطورية، البعيدون حضاريا عن سمتها، قد أدركوا هذه الحقيقة فى جلاء، ويتضح هذا مما أقدم عليه القائد الجرمانى أودواكر Odovacar فى عام ٤٧٦ عندما عزل رومولوس Rumulus Augustulus آخر أباطرة النصف الغربى من

---

(11) Stephenson, op. cit., pp. 245 – 247.
Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, p. 163
ودكتور سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى. جـ١ ص٢٧٥.

(12) Tout, op. cit., p. 32.
وأيضا Pirenne, op. cit., p. 139.

(١٣) على عهد الإمبراطور دقلديانوس كان يحكم الإمبراطورية أوغسطسان وقيصران، وهو النظام الرباعى Tetrachia الذى وضعه دقلديانوس، ولما توفى قسطنطين عام ٣٣٧ خلفه أبناؤه الثلاثة، بينما خلف ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ أبناه اركاديوس فى النصف الشرقى وهونوريوس فى النصف الغربى، أما الأباطرة الستة الذين تنازعوا على عرشها فقد كان ذلك فى عام ٣٠٨ بعد اعتزال دقلديانوس سنة ٣٠٥

الإمبراطورية، وبعث بتاجه وصولجانه مع وفد من السناتو الرومانى، إلى إمبراطور النصف الشرقى مبعوثيه فى القسطنطينية، زينون Zeno وراح يوضح على لسان مبعوثيه أن الإمبراطورية يكفيها الآن وجود حاكم واحد على عرشها هو القائم بالفعل على شطآن البسفور فى مدينة قسطنطين، ويطلب إليه أن يعتبره نائبا عنه فى حكم إيطاليا. وبغض النظر عن النتيجة التى انتهى إليها أمر أودواكر وموقف زينون منه، فهذا بلا شك يعد اعترافا صريحا من جانب أحد زعماء الجرمان بوحدة الإمبراطورية. ولم يدر بخلد أودواكر، وكان باستطاعته ذلك، ولا بخلد غيره من زعماء بنى جنسه، أن يعلن من نفسه إمبراطور منافسا أو حتى شريكا، وكان بمقدورهم جميعا أن يفعلوا ذلك بعد أن أصبحت بيدهم مقاليد الأمور فى شطرى الإمبراطورية عقيب وفاة ثيودوسيوس عام ٣٩٥ (١٤).

وهكذا لم يجرؤ أحد من الجرمان على أن يفعل ذلك حتى عندما تساقطت ولايات النصف الغربى للإمبراطورية فى أيديهم إبان القرن الخامس الميلادى وطوال قرون آتية. ومن ناحية ثانية فإن الحروب العسكرية التى خاضها الإمبراطور جوستنيان Iustinianus (٥٢٧ – ٥٦٥) على امتداد ربع قرن من الزمان لاستعادة ولايات الغرب هذى الضائعة، خير دليل على حرص الأباطرة الرومان على تحقيق النظرية السياسية الرومانية القائلة بالإمبراطورية الواحدة. ولم يكن خلفاء جوستنيان أقل "رومانية" منه فى هذا السبيل وإن اختلفت أساليبهم السياسية عن سلفهم العظيم.

وهكذا أحجم الجرمان فى ضوء (وعيهم) بوحدة الإمبراطورية عن إقامة إمبراطور من بينهم فى الغرب، ولكن البابوية اجترأت عندما توجت الجرمانى الفرنجى شارلمان إمبراطورا، متحدية بذلك مشاعر الأباطرة الرومان فى القسطنطينية. ولعل هذا هو الذى دعا كاتبه ومؤرخه إينهارد Inhard أن يذكر فى كتابه "حياة شارل" Vita Caroli عدم معرفة الإمبراطور مسبقا بمسألة التتويج،

---

(١٤) كان ستيلكو الجرمانى هو القائد العام لجيوش الإمبراطورية ومقره فى الغرب "ميلانو" حيث توفى ثيودوسيوس. بينما آلت إلى زميله جايناس الجرمانى الأومر فى القسطنطينية.

رغم ما فى هذا القول من مغالطة واضحة (١٥) كي يظهر سيده بمظهر الذى لم يكن طامعا فى شئ من ذلك، حتى لا يجر على دولته عداء القسطنطينية.

والبابا فى روما – بعمله هذا – تخطى حدود سلطانه الروحي وراح يمارس سلطات زمنية غير قانونية، فهو من الناحية الرسمية واحد من رعايا الإمبراطور، لكنه لمنافع دنيوية ومصالح شخصية (١٦) ولعدوات طويلة بين روما والقسطنطينية، زادهـا ضراما تأجج نيران العداء تجاه الأيقونات الذى حمل الأباطرة الأيزوريون والعموريون مشعلة، ووقوف روما معارضة متحدية، كل هذا دفع البابوية كي تتوج جرمانـيا إمبراطورا للرومان. وكان هذا -- أعنى لقب "إمبراطور الرومان" وليس "الإمـبراطور الـروماني" بالألف واللام والنسبة، هو الذى حمله شارلمان. وحتى علـى هذا النحو لم يحظ شارل العظيم إلا باعتراف واهن فى عام ٨١٢ من جانب الإمـبراطور ميخائـيل رانجـاب Michael I Rangabe نتـيجة لظروف سياسية عصـيبة كانت تعانيها الإمبراطورية البيزنطية، ولم يكتب لهذا الاعتراف أن يرى دائرة الضوء لأن مجلس السناتو فى القسطنطينية لم يصدق عليه، ولم يلبث الموت أن اختفى بشارلمان من الحياة (١٧).

ومـن ثم فإن الإمبراطورية البيزنطية وهى فى أوج قوتها وإزدهارها زمن المقدونيين، عصرها الذهبي، لم تكن أقل حرصا على بقاء اللقب الروماني من حق أباطـرتها وحدهم دون غيرهم. وكان أوتو الأول يعلم هذه الحقيقة تماما، حتى أن لقـبه التقليدى ظل دائما "الإمبراطور العظيم" Imperator Augustus ولم يرد ذكر روما فيه، ولذا كان هذا اللقب مجرد منصب شخصي فحسب. ومع ذلك فإن عملية التـتويج وما تبعها من التدخل الرسمي فى شئون إيطاليا، وضعه وجها لوجه أمام الامـبراطورية الرومانـية "البيزنطية" فى وقت كانت آخذة فى الصعود والاستعداد للتوسع والعودة إلى الغزو تحت قيادة نقفور فوقاس (١٨).

---

(15) Einhard, The life of Charlemagne, 28.
(16) Ibid, 28.
(17) Ibid, 17.

(١٨) جوزيف نسيم يوسف، الدولة والإمبراطورية، ص ٢٠٦.

ومع ذلك فقد كان واضحا بصورة جلية أن من المستحيل أن تحتفظ بيزنطة بمركز قوى لها فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربى pars Occidentalis أمام قوة المسلمين فى الجنوب الإيطالى وعداء الملوك السكسون، الأباطرة الجدد، ولذا سعت للحفاظ على الحالة الراهنة status que هناك، وشرع الإمبراطور باسل الثانى فى تنظيم الحكم البيزنطى فى ولايتى إيطاليا الجنوبيتين اللتين اتحدتا الآن تحت سيطرة حاكم واحد يعرف باسم قطبان Catapan لا يختلف عن الاكزارك ويجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية (١٩). ورغم أنه كان أمر بعيد المنال أن يقوم فى الغرب شبيه لتلك الإمبراطورية الرومانية Imperium Romanum القائمة فى القسطنطينية. إلا أن خلفاء أوتو الأول، خاصة سمييه، ولده وحفيده، وهنرى الثانى، انتهزوا فرصة الظروف الصعبة للإدارة البيزنطية فى إيطاليا، وحمل أوتو الثانى لقب إمبراطور الرومان وأصبح ملازما له لا يفارقه، وظهرت عبارة "الإمبراطورية الرومانية" فى المكاتبات الرسمية زمن هنرى الثانى وكونراد الثانى (٢٠). وبات الفرق واضحا بين سياسة أوتو الأول الذى جاء إلى إيطاليا لدوافع ألمانية، وسياسة خلفائه الذين استهوتهم فكرة "الإمبراطورية"، أو على حد تعبير المؤرخ باراكلاف هو الفرق بين السياسة "السكسونية"لاوتو الأول، والسياسة (الرومانية) لخلفائه (٢١).

وإذا كان للتدخل الألمانى فى إيطاليا ومشكلاتها العديدة، حتى غدا الارتباط بينهما وثيقا، قد أغرى الأباطرة الألمان باصطراع مع "بيزنطة" حول "رومانية" الإمبراطورية فى الغرب، فإن الرغبة الشديدة فى الوصول إلى حوض البحر المتوسط، وهى منطقة لها أصالتها الحضارية، كان باعثا قويا لزيادة حدة الصراع مع القسطنطينية، صاحبة السيادة الآن أعنى القرنين العاشر والحادى عشر، على حوض البحر المتوسط الشرقى بعد انحسار موجة المد الإسلامى فيه آنذاك. وهذا كله يفسر المحاولات العسكرية التى قام بها أوتو الأول وولده أوتو الثانى فى

---

(١٩) هسى: العالم البيزنطى، ص ١٥٣ – ١٥٤.
(٢٠) جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق. ص ٢٠٨ – ٢٠٩ وأيضا،
Bryce, op. cit ., pp. 142 – 146.
(21) The origins of modern German, p. 62.

جـنوب إيطاليا من أجل فرض السيطرة الألمانية على هذه المنطقة، وتوسيع حدود "الإمبراطورية" على حساب البيزنطيين والمسلمين على السواء غير أن هذه الجهود باءت بالفشل، بل ولقى أوتو الابن هزيمة مروعة عند خليج كولون سنة ٩٨٢ على يـد المسلمين، أفلت منها هو نفسه بصعوبة بالغة. وكانت هذه الهزيمة كارثة فادحة لحقـت بالإمـبراطورية الألمانـية، ظهر أثرها واضحا فى أنها قضت لمدة قرنين تاليين علـى طمـوح الإمـبراطورية الغربية فى السيطرة على وسـط إيـطاليا وجنوبها (٢٢).

ولم تحل المناوشات العسكرية بين الطرفين دون بذل الجهود الدبلوماسية بين الإمبراطوريتين، فدارت المفاوضات بين الطرفين زمن أوتو الأول ونقفور فوقاس، تضـمنها ذلك التقرير Relatio de Legatione Constantinopliana الذى وضعه ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona مبعوث الإمبراطور الألمانى (٢٣)، والـذى يتسم بالحقد والسخرية اللاذعة تجاه البيزنطيين الذين لم يستقبلوا الأسقف – فـى اعـتقاده – بمظاهر الحفاوة والتكريم اللائق به. وقد استمرت هذه المفاوضات علـى عهد يوحنا تزيمسكس Iohannes Tzimisces وكان أقصى ما استطاع أوتو الحصـول علـيه، زوجة بيزنطية تدعى ثيوفانو Tcheophano لابنه ووريثه أوتو الـثانى، وهـى تنـتمى لأسـرة مـن كـبار ملاك الأراضى، وليست من البيت الإمبراطورى كما كان يشتهى.

وقد ساهمت التغيرات السياسية التى طرأ على خريطة المنطقة فى إزدياد ما بـدا أنه تقارب ودى بين الإمبراطوريتين، ذلك أن النورمان وقد ورثوا البيزنطيين والمسـلمين على السواء فى جنوب إيطاليا وصقلية فى القرن الحادى عشر، ورثوا أيضـا العـداء التقلـيدى تجاه الإمبراطورية الألمانية، ومن ثم أدرك الطرفان أن

---

(٢٢) M.H. Vol. III, 169 –170. وأيضـا دكـتور سعد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص ٢٧٩ وكذلك دكتور إبراهيم طرخان، المسلمون فى أوروبا فى العصور الوسطى، ص ٢٦٤ وأيضا:
Vasiliev, op. cit. I. p . 328.

(23) Liurptand of Cremona, report, in (Cantor, Med. World pp. 166 – 176)

عليهما أن يعملا معا ضد عدوهما المشترك، وظهر هذا واضحا فى عدة أمور منها، زواج الإمبراطور مانويل كومننوس Manuel Comnenus (١١٤٣ – ١١٨٠) من برتا Bertha من سولزباخ Sulzbach أخت زوجة كونراد الثالث Conrad III (١١٣٩ – ١١٥٢) وهى التى عرفت باسم الإمبراطورة إيرين Lreme عند اقترانها بمونويل [٢٤]. وأدى هذا الزواج السياسى إلى زيادة التقارب بين الرجلين خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثانية التى قادها كونراد الثالث بالاشتراك مع لويس السابع ملك فرنسا، فقد تم عقد اتفاقية سالونيك بين مانويل وكونراد الثالث ١١٤٨، تعهد فيها الأخير برد إيطاليا إلى الإمبراطور كبائنة لايرين (برتا). وإن كانت هذه الفقرة من المعاهدة قد اختفت من المصادر الغربية. وتدور أهميتها أساسا حول ما تعنيه كلمة "إيطاليا"، هل تعنى جنوب إيطاليا فحسب أم إيطاليا كلها؟ [٢٥].

غير أن فترة العسل القصيرة هذه سرعان ما انتهت باعتلاء فردريك بربا روسا Fredrick Barbarossa عرش ألمانيا، فقد كان الرجل يطمح فى مملكة النورمان فى صقلية وعرش القسطنطينية على السواء. ولذا نراه يتفق مع البابا يوجنيوس الثالث Euginius III على عدم التخلى عن "أية منطقة" على هذا الساحل "لملك اليونان" Rex Grecorum وهى التسمية التى كان يحلو لفردريك الألمانى أن يخلعها على إمبراطور القسطنطينية، بل أن هذا اللقب جرى استخدامه من جانب الأباطرة الألمان، كما يتضح من الرسالة التى بعث بها كونراد الثالث ليوحنا كومننوس سنة ١١٤٢ [٢٦] ومع ذلك فقد حاول الإمبراطور البيزنطى مانويل

(٢٤) كانت المفاوضات قد جرت بشأن هذه الزيجة بين يوحنا كومننوس (١١١٨– ١١٤٣) وكونراد، حيث طلب الأول إلى الأخير أن يختار من بين الأميرات الألمان زوجة لابنة مانويل انظر:

Letter of Conrad III to the "Greek emperor John Comnenus 1142

(٢٥) حسى، العالم البيزنطى، ص ١٩٣ وقارن

Ch. Brooke, op. cit., pp. 373 – 4.

(26) Letter of Conrad III to the Greek emperor John Camnenus, 1142; Letter of Frederick I. To Eugene III.

كومنـــتوس أن تظـــل روابط المودة قائمة بين الدولتين، فعرض عليه التحالف ضد النورمان في الجنوب، لكن هذه المحاولة ذهبت سدى، وإن كان السفير البيزنطى قد نجـــح بدبلوماســـيته وأموالــــه فى ضم عدد من المدن على رأسها أنكونا Ancona والمتمرديـــن الـــنورمان، وأخـــيرا الـــبابوية، ممـــا عـــدة فردريك خرقا لاتفاقية كـــونستـــانس [٢٧].

أمام هذا التغير فى السياسة الألمانية، شن مانويل هجومه على جنوب إيطاليا منـــتهزا الفرصـــة الـــتى قدمها له الثائرون النورمان عقب وفاة روجر الثانى سنة ١١٥٤، غـــير أنـــه لم يحقق نجاحا معينا، بل أزدادت حدة العداء تجاه القسطنطينية مـــن جانـــب فـــردريك بربـاروســـا الذى راح يشجع سلطان قونية السلجوقى على المجاهـــرة بـــالعداء للإمبراطور البيزنطى، حتى إذا لقى هذا الهزيمة القاسية عند ميريوكـــيفالوم Myriocephalum فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ كتب فردريك إليه رســـالة تقطر احتقارا وتومئ إلى ضرورة خضوع "ملك اليونان" Rex Grecorum للإمـــبراطور الرومانى، يعنى نفسه، وأعلن فردريك نفسه وريثا للأباطرة الرومان، وادعـــى أن ذلك يتضمن السيطرة على المملكة اليونانية Regnum Greciae [٢٨] بل أن فردريك بربـاروسا تمادى فى سياسته، فكتب إلى ابنه وخليفته فى ألمانيا، هنرى الســـادس، وهو فى الشرق يقود جحافله ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة، يأمره بإعداد حملة جديدة تستهدف القسطنطينية ذاتها، ورغم أن هذا لم يتحقق إلا أنه يدل علـــى مـــدى العـــداء بين الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورية الألمان. غير أن الظـــروف السياســـية التى راحت تعانى كل منهما منها باعدت بين عدائهما. إذ لم تمـــض ســـنوات قلائل على وفاة فردريك بربـاروسا (١١٩٠) حتى دهمت جحافل اللاتيـــن جـــنود الحملة الصليبية الرابعة، القسطنطينية عام ١٢٠٤، فخرجت بذلك الإمبراطورية البيزنطية من العاصمة لتقوم فى نيقية وابيروس وطرابيزون، ولتحل محلهـــا إمـــبراطورية لاتينـــية حـــتى عـــام ١٢٦١ عـــندما تمكن ميخائيل الثامن

---

(27) Z. N. Brooke, op. cit., pp. 292 – 294.

(٢٨) هسى، العالم البيزنطى ص ١٩٧.

بالـيولوجوس Michael VIII Palaeologus حاكم نيقية من استعادة القسطنطينية. بيـنما دخلت إمبراطورية الألمان فى صراع عنيف مع البابوية حول مشكلة التقليد العلمانى وما تبعها من النزاع على السيادة العالمية، بالإضافة إلى المحاولات الجادة الـتى بذلتها أسرة الهوهنشتا وفن Hohenstaufens فى ألمانيا للسيطرة على مملكة الـنورمان فـى صقلية وجنوب إيطاليا، مما يشكل خطرا جسيما على نفوذ البابوية وسلطانها وسط إيطاليا.

وكانت البابوية قد اعترفت فى اتفاقية ملفى Melfi التى عقدت سنة ١٠٥٩، بيـن نيقولا الثانى Nicholas II من ناحية، وزعيم النورمان، ريتشارد دوق أفرسا Aversa وروبـروت جويسـكارد بشـرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا، مقابل اعـترافهم بالتبعـية للبابوية ودفع جزية سنوية [٢٩] ولقد جاء هذا نتيجة لفشل البابا الـراحل لـيو التاسـع فى التصدى لطموحهم، وهزيمته على أيديهم عند كيفيتاتى Civitate عـام ١٠٥٣ وأسره لديهم بضعة شهور. كما أن البابوية وجدت فيهم – ربمـا – حلـيفا طبيعيا ضد أعدائها من النبلاء الرومان فى روما، وعدوها اللدود، الإمـبراطور الألمـانى. وبتعبير أدق فقد وجدت فيهم إلى جانب أسلحتها الروحية "الحـرمان والمصـادرة" سـلاحا زمنيا فتاكا، بما لهم من قوة عسكرية ترهب بها أعداءهـا. وتمـثل هذا بصورة واضحة عندما استنجد بهم البابا جريجورى السابع للتصـدى لقـوات هـنرى الرابع التى فرضت حصارها على روما وهاجمتها عدة مـرات فـى الفـترة مـا بين عامى ١٠٨١ – ١٠٨٤، وإن كان النورمان، حلفاء الـبابوية، لـم يـرعوا للمديـنة حـرمة، فاستباحوها وعاثوا فيها فسادا، مما دفع جـريجورى السابع إلى الارتحال فى حمايتهم جنوبا فرارا من الغضب المتأجج فى صدور رعيته الرومانية تجاهه باعتباره المسئول الأول عما فعله حلفاؤه النورمان.

---

(29) Oath of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

ولمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث .. انظر.

Haskins, Th Normans in European history, pp. 202 – 204.

ولــم تلبــث هــذه العلاقات الودية أن تحولت إلى تحالف رسمي بين البابا هادريــان الــرابع ووليم الأول ملك صقلية سنة ١١٥٦، كانت أهم سماته اعتراف الــبابوية بحق الملك النورمانى فى الأشراف على عملية اختيار رجال الاكليروس في مملكته (٣٠) وهو الحق الذى تدعيه البابوية لنفسها، وتناضل من أجله ضد ملوك ألمانيا طيلة أربعة قرون كاملة (من العاشر حتى الثالث عشر)، نعنى مشكلة التقليد العلمــانى ثــم السيادة العالمية. ويمكن القول بصورة واضحة أن هذا التحالف كان موجهــا بصفة رسمية إلى فردريك الأول بربار وسا، الإمبراطور الألمانى، الذى لم يكن طموحه يخفى على ملوك النورمان فى صقلية، ولا خطره يغيب عن البابوية. خاصــة وأن فــردريك كــان يعتبر أقاليم جنوب إيطاليا وصقلية جزءا من مملكته الألمانــية، ممــا دفعه إلى إبداء معارضته واحتجاجه لدى هادريان الرابع على هذا الــتحالف، معتــبرا إياه نقضا لشروط معاهدة كونستانس Constance التى وقعت بيــنهما عام ١١٥٣ وتجاهلا لإدعاءاته هذه (٣١). غير أن هادريان الرابع كتب إلى فــردريك رســالة مطولــة دحــض فــيها هذه الاتهامات، وأبان عن أن اتفاقه مع الــنورمان لا يعــنى إهانة موجهة إلى الملك الألمانى "لأن الأراضى التى يسيطر علــيها وليم، ليست من حق فردريك، بل هى ممتلكات البابوية" (٣٢) مشيرا إلى ما جاء فى اتفاقية "أمالفى" باعتبار الممتلكات النورمانية فى الجنوب إقطاعا بابويا.

(٣٠) راجع نص الاتفاقية فى

Thatcher & McNeal, A Source Book for Mediaeval history, pp. 181 – 183.

(٣١) مــن المعــروف أن نص المعاهدة لم يتضمن شيئا مطلقا عن حقوق الملك الألمانى فى جنوب إيطاليا وصقلية، راجع نص المعاهدة فى

Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 178 – 180.

(٣٢) راجع نص الرسالة فى

Tierney, The crisis of church and state pp, 105 – 106.

وأيضا : Thatcher & Mcneal, op. cit, pp. 183 – 185.

وهــذه الرسالة ذات مدلول هام فى تاريخ الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية، فقد تضمنت كلمة Beneficia والــتى فسرت فى حضرة الإمبراطور فى بيزانسون Besancon سنة ١١٥٧ على أنها تعنى كــون الإمــبراطورية "إقطاعا" للإمبراطور، وكاد المندوب البابوى يلقى حتفه على يد أنصار فردريك لولا تدخل الأخير بنفسه لمزيد من التفاصيل أنظر:

ورغم ذلك لم يتخل فردريك برباروسا لحظة واحدة عن ادعاءاته فى جنوب إيطاليا وصقلية وتمكن من أن يحقق نجاحا كبيرا فى هذا الميدان عندما حظى بالأميرة كونستانس Constance ابنة وليم الثانى وريثة عرش النورمان، زوجة لابنه هنرى السادس، فكسب لنفسه بهذه الزيجة مكانة، ولدولته اتساعا، ولسلطانه امتدادا. ولكن هذا كله لم يمر هكذا حسبما تشتهى نفس فردريك الطموحة، فجرت الظروف السياسية فى المنطقة على غير ما كان يتمنى هى أو خلفاؤه، ذلك أن الارتباط الوثيق بين ألمانيا وجنوب إيطاليا وصقلية كان يعنى للبابوية وقوعها بين شقى الرحى، وهو ما كان من المستحيل على البابوية تقبله. ولما كان طبيعيا أن يعض الملوك الألمان على ما اكتسبوه بالنواجز، وتبذل البابوية الجهد، كل الجهد، فى سبيل الحيلولة دون نجاحه، جرى للنزاع سافرا أحيانا، خفيا أحيانا أخرى، بين الطرفين ليزيد حمى الصراع والعداء بينهما إلى درجة أسفرت فى النهاية – كما سنرى – عن تحطيم الإمبراطورية.

ولم يكن من السهل نجاح هذا الارتباط بين المملكتين الألمانية والصقلية، للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة عند كل منهما، والميراث الحضارى الماثل لكليهما، فما خلفه المسلمون فى صقلية على امتداد قرنين من الزمان، هما فترة مكثهم فيها والذى حرص النورمان، السادة الجدد، على الإفادة منه إلى حد بعيد جدا، كان يعد شيئا مغايرا تماما لما كان عليه الحال فى ألمانيا، وبينما كانت الملكية فى ألمانيا انتخابية، إذا هى وراثية فى صقلية. كما أن القطيعة

=Thompson & Johnson, op. cit., p. 400.

وأيضا: C.M.H. Vol V, pp. 390 – 391.

وكذلك Bryce, op. cit., p. 166; Davis, op. cit., p. 326.

وقد أصدر فردريك بربا روسابيانا فى الشهر التالى مباشرة (أكتوبر ١١٥٧) يفند فيه – ما اعتقد أنه إدعاءات بابوية، واضطر هارديان الرابع أن يبعث برسالة ثانية إلى الإمبراطور فى أوائل ١١٥٨ يوضح فيها أنه لم يعن بكلمة Beneficia "إقطاعا" بل يعنى بها "جميلا" أو (عملا طيبا". راجع بيان فردريك ورسالة هارديان الثانية فى Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 186 – 188.

وعن هذه التفاصيل كلها، راجع الفصل الأول.

الجغرافية بينهما والتى طولها شبه الجزيرة الإيطالية، تعتبر حائلا طبيعيا يباعد بين كليهما. وبمقتضى المعاهدات التى عقدت بين البابوية وملوك النورمان فى صقلية، كان هؤلاء الأخيرون، أوبعضهم يعتبرون البابوية صاحبة السيادة الإقطاعية فى البلاد، فى الوقت الذى يرفض فيه الألمان ذلك بالنسبة لبلادهم، وحتى لمناطق طموحهم فى صقلية، ولعل ما وقع فى بيزانسون [٣٣] خير دليل على ذلك. وفوق هذا كله وذاك، لم يكن مقت الصقليين لملك ألمانى يتولى أمورهم، أقل من كراهية الألمان لذلك إذا ما حدث واعتلى عرشهم صقلى [٣٤].

من أجل هذا كله لم يكن غريبا أن يوجد فى صقلية حزب نورمانى يعارض انتقال العرش إلى ملوك أسرة الهوهنشتاوفن، وأن يقدم هذا الحزب على اختيار تنكرد Tancred ملكا خلفا لأخيه غير الشقيق وليم الثانى عقب موته سنة ١١٨٩، ضاربا عرض الحائط بحق كونستانس فى ميراث عرش أبيها، وبالتالى حق زوجها هنرى السادس. بل لقد سعى هذا الحزب إلى توسيع دائرة العداء تجاه الملوك الألمان، فجذب إلى صفه جماعة الولفيين Welfs (Guelfs) فى إيطاليا، الأعداء التقليديين لأسرة الهوهنشتاوفن، وعقد تحالفا مع ريتشارد الأول ملك انجلترا وهو طريقه إلى الأراضى المقدسة قائدا لجيوش بلاده فى الحملة الصليبية الثالثة، حيث كانت أخته هى أرملة وليم الثانى.

وكان على هنرى السادس أن يواجه هذا التحالف الصقلى الإيطالى الإنجليزى، فقاد جيوشه إلى إيطاليا سنة ١١٩١، ووضع على رأسه التاج الإمبراطورى، غير أن الفشل لحق به فى حملته هذه، إلا أن القدر عوضه عن ذلك بأن ساق إليه صيدا ثمينا عندما وقع فى أسره ريتشارد ملك انجلترا أثناء عودته من الأراضى المقدسة [٣٥]. أو بتعبير آخر – على حد قول فرانك بارلو F. Barlow

(٣٣) راجع الحاشية السابقة.

(٣٤) فيشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى – الجزء الأول، ص ٢٠٧.

(٣٥) وكان ريتشارد قد أسر على يد ليوبولد الرابع Leopold دوق أوستريا سنة ١١٩٢ الذى سلمه بدوره لسيدة الملك الألمانى هنرى السادس فى عام ١١٩٣ بناء على طلبه. للمزيد من التفاصيل انظر: Barlow, op. cit., pp. 361-364

امـتلك هـنرى السادس – فى شخص ريتشارد، مفتاحا من ذهب سوف يفتح أمامه جمـيع الأبـواب الموصـدة [٣٦]. ذلك أن هنرى استغل هذه الفرصة بذكاء كبير، فضـمن أن يقـف إلى جانبه فيليب أوغسطس Philip Augstus ملك فرنسا، العدو اللـدود لملك انجلترا، وجون الانجليزى أخو ريتشارد، اللذان طالبا هنرى أن يبقى عدوهـم المشـترك فـى أسره دون فكاك. وإن كان الملك الألمانى قد أطلق سراح خصـمه بعد عامين من الأسر لقاء فدية ضخمة قدرها مائتا ألف مارك، بالإضافة إلى خمسين ألفا أخرى مقابل أن يحله من وعده بمساعدته ضد النورمان [٣٧]. وفى نفـس العـام حـالف الحظ هنرى مرة أخرى إذا مات تنكرد النورمانى، فتم تتويج هنرى الملك الألمانى، وإمبراطور الرومان، ملكا على صقلية وأبوليا وكالابريا.

هكـذا أمـتدت سلطان ألمانيا على جنوب إيطاليا وصقلية، لكنه كان سلطانا مزعـزعا، يـتهدده العداء النورمانى الكامن فى الجنوب، والفوضى العارمة التى توشـك أن تعصـف بألمانيا ذاتها، من جراء انشغال ملوكها بطموحهم الخاصة فى مملكـة الصـقليين. والحقـد البابوى والكراهية المقيتة يحملها الجالس على كرسى القديس بطرس فى روما تجاه هذا "الانتشار" الألمانى، والذى أوقع البابوية بصورة عملية بين فكى "كماشة" ألمانية إذا كان أمرا طبيعيا أن يرفض البابا تتويج فردريك الـثانى ابن هنرى السادس وكونستانس، فى حياة أبيه، فى الوقت الذى قبل الألمان اختياره ملكا على ألمانيا.

ولم تلبث الحرب الأهلية أن اندلعت فى ألمانيا عقب وفاة هنرى السادس عام ١١٩٧ بيـن الولفيين بزعامة أوتو الرابع دق برنسويك، والهونشتاوفن تحت قيادة فيليـب السـوابى، واسـتمرت ستة عشر عاما كاملة، تداول فيها الطرفان النصر والهـزيمة، وتدخل فيها البابا انوسنت الثالث بصورة سافرة، متقلبا بين الجانبين بما يحقـق مصـالحه الزمنـية فى ألمانيا وإيطاليا على حد سواء، هذا فى الوقت الذى حرصـت فـيه كونسـتانس على الاحتفاظ بعرش صقلية لابنها فردريك، غير أن

(٣٦) انظر Ibid. 164

(٣٧) المرجع السابق، الصفحات نفسها.

البابوية وقد قلب لها أوتو الرابع ظهر المجن بعد أن توجته فى سنة ١٢٠٩ فى أعقاب مقتل فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، رأت أن مصالحها الزمنية تفرض عليها الوقوف إلى جانب الأمراء الكارهين لأوتو الرابع، والذين أقدموا على اختيار فردريك الثانى ملكاً عليهم سنة ١٢١١.

وقد يبدو هذا الأمر غريباً إلى حد كبير، فالبابوية تبذل قصارى جهدها كى تقف عقبة كأداء فى سبيل إتمام أى نوع من الترابط بين ألمانيا ومملكة الصقليتين، والتى آلت إلى ملوك ألمانيا الآن. فإذا بها تساند فردريك الثانى ملك صقلية وترفعه على العرش الألمانى ليضع بذلك قدمه الأخرى على الأرض الألمانية، بعد أن كان قد ثبت الأولى فى صقلية. لكن الغرابة سرعان ما تختفى، إذا أدركنا أن انوسنت الثالث أراد أن يصطنع لنفسه فردريك ويتخذه أداة طيعة ضد أوتو الرابع الذى راح يمارس – بعد حصوله على التاج (١٢٠٩) نفس سياسة أعدائه الهوهنشتاوفن تجاه إيطاليا وصقلية والحبز الرومانى. ولا شك دار بخلده أن فردريك سوف يحمل له فى نفسه كل التقدير بعد أن أعاد إليه حقاً كان يبدو بعيد المنال. غير أن الأحداث خيبت فال البابوية.

فمنذ نجاح هنرى السادس فى فرض سيادته على جنوب إيطاليا وصقلية عام ١١٩٤، ووراثة ملوك ألمانيا بشكل واقعى لعرش النورمان، ورثوا معه أيضاً تطلعهم إلى السيادة على عالم البحر المتوسط، وصادف ذلك هوى كبيراً فى نفس فردريك الثانى بصفة خاصة، ولم لا وقد أمضى سنى عمره الأولى فى شوارع صقلية، وأجاد العربية، ونهل من الثقافة الإسلامية، وتأثر بالتراث البيزنطى ولم يتخل عن الطموح الألمانى وسياسة الهوهنشتاوفن وأتقن عدة لغات، وتعمق فى بعض من العلوم، حتى صار "محير العالم" أو (أعجوبة الدنيا) Stupor Mundi من هنا كانت محاولاته الالتزام بالتقاليد النورمانية التى انحرفت بالسياسة الإمبراطورية عن دوربها الرئيسية. لقد كان الاتحاد التام بين المملكة الصقلية والإمبراطورية

الـــذى أراده فردريك unio regni adimperium، السبب المباشر فى انحراف هذه السياسة الإمبراطورية عن جادة الصواب (٣٨).

وعلى هذا النحو ازدادت حدة العداء بين البابوية والإمبراطورية، وفتح باب الصـــراع على مصراعيه، وأيقنت البابوية أن عليها أن تكسب هذه الجولة الأخيرة، وإلا كـــان فـيها نهايــتها، فحشـــدت أسلحتها، وسعرت لهيب نيرانها، وأقدم البابا جـــريجورى التاسع فى عام ١٢٤١ على الدعوة لعقد مجمع كنسى فى روما بهدف عـــزل فـــردريك، فلمـــا حيل بين المؤتمرين والحضور، بجهود الملك، جدد البابا إنوســـنت الرابع الدعوة ثانية فى سنة ١٢٤٤ والتأم عقد المجمع فعلا فى ليون عام ١٢٤٥ وصدر قرار عزل فردريك الثانى (٣٩). وشهدت السنوات الخمس الباقية من عمر الإمبراطور عددا من الثورات فى شمال إيطاليا وجنوبها، وحركات تمرد فى داخـــل ألمانيا ذاتها، وقيام البابوية باختيار وليم أمير هولندا ملكا على ألمانيا. ورغم أن فـــردريك حقـــق بعـــض الانتصارات فى شمال إيطاليا، ولقى الأمير الهولندى الهـــزيمة علـــى يـــد كونـــراد ابـــن فـــردريك، إلا أن ذلك لم يجد نفعا حيث مات الإمبراطور فى نهاية سنة ١٢٥٠ (٤٠) وعندها تنفست البابوية الصعداء، ورأت فى موتـــه فرصـــتها الســـانحة للإجهاز على الإمبراطورية، وافتر ثغرها عن ابتسامة ســـاخرة، سرعان ما تحولت إلى ضحكة عالية وهى ترى مانفرد Manfred الابن غـــير الشرعى لفردريك ملكا على عرش صقلية، وعلى عرش ألمانيا ابنه كونراد الـــرابع، الذى لم يلبث أن توفاه الموت فى سنة ١٢٥٤ ليخلفه ابنه الطفل كونرادينو فهـــذا ما كانت تطمح إليه البابوية، نعنى تقطيع أوصال الإمبراطورية، وفسخ عرى الارتـــباط بيـــن ألمانيا وإيطاليا، وهو ما جاهد فردريك بربا روسا وهنرى السادس وفردريك الثانى للحيلولة دون وقوعه.

---

(38) Barraclough, The origins of modern Germany, p. 197.

(٣٩) راجع نص قرار العزل فى Tirney, The Middle Ages, Vol, I.Source of Medieval history, p. 272.

(40) Thompson & Johnson, op. cit., pp. 426 – 428.

وإذ أبصرت البابوية بعين السلطان الزمنى الفرصة مواتية لتحقق نصرها الكامل، فقد أهتبلت ما سنح لها على التو، وراحت تعرض عرش صقلية على ادموند Edmund ابن هنرى الثالث ملك انجلترا، لكن هذه المحاولة لم تفلح حيث تمكن مانفرد من استعادة نفوذه على الجزيرة، وإن كان إلى حين، حيث لم يجد البابا الفرنسى الأصل، كلمنت الرابع Clement IV صعوبة فى اقناع شارل دوق أنجو Charles of Anjou أخى لويس التاسع ملك فرنسا، بقبول العرش الصقلى باعتباره إقطاعا بابويا. ولم يلبث المرشح الفرنسى للعرش الصقلى أن غزا أملاك الهوهنشتاوفن، وأوقع الهزيمة بمانفرد الذى أسلم الروح فى المعركة التى دارت قرب بنفنتو Benevemto فلما استدعى آخر سلالة الهوهنشتاوفن فى ألمانيا، كونرادينو، ليواصل مهمة الحفاظ على ميراث أجداده، وهى مهمة صعبة وثقيلة، لم يكن أسعد حظا من عمه، فلقى الهزيمة على يد الجيوش الفرنسية بالقرب من تاجلياكوزو Tagliacozzo عام ١٢٦٨. وقد سيق الصبى، الذى لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره، إلى نابلى حيث أطيح برأسه بموافقة البابا حتى يجعل من القضاء على الهوهنشتاوفن والإمبراطورية أمراً لا سبيل إلى الشك فيه أو العودة إليه.

وفى تقديرنا أن الظروف السيئة التى كانت تحيط بالبابوية، جعلتها تغض الطرف تماما أو لنقل بتعبير أكثر دقة، تنسى كلية مهامها الروحية ورسالتها الرعوية، وتضع نصب أعينها شيئا واحدا وهدفا محددا هو السيادة الزمنية على العالم المسيحى، وهو شئ كانت قد جعلته مبغاها منذ أسقط قناع التقليد العلمانى بمقتضى اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ بين هنرى الخامس وكالكستس الثانى Calixtus II وحققت فى ذلك نجاحا لا بأس به عندما تزعمت عالم المسيحية فى الغرب وقادته لحرب المسلمين فى الشرق تحت راية الصليب، واعتلت سمت نجاحها عندما أسقط جنود الصليب فى الحملة الصليبية الرابعة، القسطنطينية، درع المسيحية فى الشرق وحامية الأرثوذكسية فى مطلع القرن الثالث عشر (١٢٠٤)، إلى الحد الذى دفع البابا أنوسنت الثالث إلى الإشادة فى رسائله إلى قادة الحملة

بغزوهم للقسطنطينية، واعتباره فتحاً عظيماً ونصراً للبابوية نفسها على "إمبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة" [٤١].

غير أن رياح النصف الثانى من القرن نفسه، حملت لها نذير الكوارث المتتالية لهذا الامتداد الهائل لنفوذها فى الشرق المسيحى والإمارات اللاتينية فى الشرق الإسلامى، بل والحركة الصليبية ذاتها، فقد لقى لويس التاسع الملك الفرنسى، والقديس، هزيمة مروعة فى مصر عام ١٢٥٠، وتلك كانت ضربة قاصمة للصليبية فى أوروبا، إذا لم تعد لمثلها ثانية بعد أن تولت إلى الظل الروح الصليبية نفسها. ولم تفلح جهود لويس فى بلاد الشام خلال أربع سنوات قضاها، وكان فى حملته على شمال أفريقيا سنة ١٢٧٠، حتفه [٤٢] وقبل ذلك بسنوات قلائل، تلقت البابوية صفعتين متتاليتين، إذا فقدت فى عام ١٢٦١ سيادتها على القسطنطينية، حين تمكن ميخائيل الثامن باليولوجوس Michael VIII Palaeolougus من استرداد العاصمة البيزنطية والقضاء على الإمبراطورية اللاتينية وإقامة أسقف أرثوذكسى ثانية فى كنيسة القسطنطينية. ولم يأت مايو عام ١٢٦٨ حتى كان المسلمون بزعامة الظاهر بيبرس، سلطان مصر المملوكى، قد استردوا إمارة إنطاكية الصليبية، ولم يبق للغرب اللاتينى فى الشرق إلا طرابلس وبعض القلاع على ساحل بلاد الشام. ولا ريب أن هذه الأحداث جميعها قد وعتها البابوية جيداً، فصممت على أن تحقق لنفسها نصراً على الأرض الأوروبية تمحو بها ويلات جراحاتها التى قذفت بها رياح الشرق على أرض الواقع الأوروبى.

---

(٤١) راجع دكتور اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر باليولوجوس ص ١٣ – ١٤.

(٤٢) فى عام ١٢٧٠ قاد لويس التاسع حملة صليبية جديدة على تونس، غير أنه توفى على أبواب قرطاجة، وكان موته كارثة بالنسبة للحركة الصليبية، فى وقت كانت فيه تحتضر ويتضح هذا من قصيدة كتبها شاعر فرنسى معاصر يدعى رتبوف Rutebeuf يقول فيها "أن من الحماقة أن يخاطر الإنسان فى حرب دينية خارج بلاده إذا كان بوسعه أن يتصل بالله وهو فى وطنه يعيش فى سلام. ويسخر الشاعر فى القصيدة من رجال الدين الذين جعلوا من الحروب الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال.. راجع مذكرات جوانفيل عن القديس لويس، ترجمة وتعلق دكتور حسن حبشى، ص ٣١٠ – ٣١٣ وكذلك دكتور جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبى على مصر، ص ٢٨١ – ٢٨٢.

هذه الصورة توضح بجلاء ما آل إليه أمر الإمبراطورية الألمانية من جراء تورطهـا فى إيطاليا بمشكلاتها العديدة المتشابكة شديدة التعقيد. وإذا كانت السياسة الألمانـية فى إيطاليا على النحو الذى رأيناه – قد أدت بالنفوذ الألمانى فى الخارج إلى أن يتعرض لهذه الهزات العنيفة والتى انتهت بإعدام آخر سلالة الهوهنشتاوفن، تلـك الأسـرة التى تمثل العظمة الإقطاعية فى العصور الوسطى، فكيف يمكن أن يكـون علـيه الحـال فى ألمانيا ذاتها من الداخل. وإذا كانت البابوية قد وقفت هذا الموقـف العدائـى السافر تجاه السياسة الألمانية فى إيطاليا وصقلية، فإن ما فعلته داخـل ألمانـيا كان أشد وأنكى. وكان هذا حتما مقضيا مادامت المصالح بينهما قد تعارضت مفهوما وواقعا.

فقـد حمل الأباطرة الألمان على عاتقهم ابتداء بأوتو الأول، مهمة الإصلاح الكنسى بعد أن تردت البابوية خلال القرون من السابع إلى الثلث الأول من الحادى عشـر فـى هاوية الانحلال الكامل، غير أن مفهوم الإصلاح كان يختلف عند كل مـنهما عـن الآخـر. فالإصـلاح فى نظر الأباطرة كان يعنى تطهير الكنيسة من أمراضـها الداخلـية مثل السيمونية وزواج رجال الدين، وأن يعتلى كرسى القديس بطرس فى روما، بابوات مصلحون، شريطة أن يكون للإمبراطور السلطة الكاملة علـى شـئونها، والتدخل المباشر فى لختيار رجال الدين وعلى رأسهم البابا، وهذا واضـح تمامـا فيما تم عليه الاتفاق بين أوتو الأول والبابا يوحنا الثانى عشر عند تتويج أوتو إمبراطورا عام ٩٦٢، وما أخذه الأخير على الرومان من تعهدات سنة ٩٦٣ فـى أعقاب نكوص يوحنا الثانى عشر على عقبية وتحوله إلى جانب برنجار اللومـباردى عـدو الملـك الألمانى، والقاضية بعدم الإقدام على اختيار أى أسقف لكنيسة روما إلا بموافقة الإمبراطور [٤٣] ومن هذا المنطق أيضا جرت سياسة أوتو الثالث فى تقليد برونو Bruno منصب البابوية باسم جريجورى الخامس، وهو أول بابـا ألمـانى يعـتلى الكرسـى البطرسى، ومن أشد المتحمسين لحركة الإصلاح الكنسـى، فلمـا قـبض صغيرا، عين الإمبراطور معلمه جربرت Gerbert أسقفا

(43) Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 118 – 119.

رومانيا باسم سيلفستر الثانى Sylvester II . ومن هذا المنطلق أيضا أقدم الإمبراطور هنرى الثالث على عزل ثلاثة من البابوات الفاسدين وعين على التوالى خمسة بابوات مصلحين، ولم ير فى ذلك شيئا سوى إصلاح الكنيسة الكاثوليكية. وإن كان من وجهة النظر الإمبراطورية (٤٤).

أما البابوية فقد كان لها رأى آخر، فالإصلاح بالنسبة لها يعنى فى المقام الأول كف أيدى العلمانيين، أيا كان شأنهم أو مراتبهم، عن التدخل فى تعيين رجال الدين وبالأحرى البابا. واتخذت الخطوات الأولى فى سبيل ذلك عقيب وفاة هنرى الثالث وضعف السلطة الإمبراطورية فى إيطاليا، من جراء غض العمر الذى كان يعانيه الإمبراطور الطفل هنرى الرابع، إذ أقدم الإكليروس الرومانى على اختيار نقولا الثانى Nicholas أسقفا لروما، وكان أهم ما تضمنه قرار الاختيار، أن تتم عملية رسم البابا فى روما على يد كرادلة روما السبعة دون تدخل من الخارج (٤٥) بل تعدى الأمر ذلك إلى تحقيق العدالة والصلاح فى المجتمع. والإصلاح الذى تعنيه البابوية كما جاء على لسان جريجورى السابع، الأنموذج الحقيقى للسلطة البابوية المطلقة، وهو الطاعة الكاملة للرب، وهذه تتحقق عن طريق الانقياد التام للبابا، والخروج عليه بعد – حسب تعبيره – ضربا من الشرك ونوعا من الوثنية(٤٦) وأباح جريجورى السابع لنفسه أن يستمد سلطانه من مكانته باعتباره خليفة القديس بطرس، ونائبه على الأرض، واستخدم آية الإنجيل التى جاءت فى خطاب المسيح لبطرس معتبرا إياه صخرته التى سيبنى عليها كنيسته، مخولا إياه سلطة الربط والحل على الأرض، وراح يباشر سلطات زمنية واسعة، زادت النار ضراما فى أتون الصراع حول مشكلة التقليد العلمانى. وبمقتضى ذلك كتب إلى

---

(44) Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 122 – 124.

(45) The Pepal election decree of Nicholas II.

وللمزيد من التفاصيل انظر. Ullmann, op. cit., pp. 135 - 138

(46) Letter of Gregory VII to Henry IV.

هنرى الرابع يطلب إليه عزل خمسة من مستشاريه السياسين كان قد صدر بشأنهم قرار عن مجمع روما سنة ١٠٧٥ باعتبارهم من السيمونيين [٤٧] ولم ير جريجورى فى ذلك غضاضة أو خروجا على حدود سلطانه. بل إن الإذلال الذى لقيه هنرى الرابع على يد هذا البابا فى كانوسا Canossa، عدة المتعصبون للآراء الجريجورية، أو الحزب البابوى، نوعا من الندامة أو التوبة أقدم عليها الملك الألمانى، وإن كانت فى صدر هذا الأخير شيئا مغايرا تماما.

وإنه لمن سخرية الأقدار حقا أن يكون أكثر الناس خسرانا من برنامج الإصلاح الكنسى هذا، هم الأباطرة الألمان أنفسهم، أولئك الذين جعلوا، بجهود أوتو الأول وسميه الثالث وهنرى الثالث، نجاح هذا الإصلاح حقيقة واقعة. كنهم كانوا كمن يحفرون قبورهم بأيديهم، فقد تلاقت مصالح البابوية مع الأمراء الألمان، فى ظل النظام الإقطاعى بسماته المميزة المتمثلة فى انحلال السلطة المركزية، على أضعاف الحكومة الألمانية، وجعلها مجرد صورة شاحبة، باهتة ألوانها، بعد أن فرضت مشكلة التقليد العلمانى نفسها بقوة كقاعدة رئيسية فى برنامج الإصلاح الكنسى الهلدبراندى أو الجريجورى.

وكان تلقى أوتو الأول المتاح الإمبراطورى من يد البابا، يعنى بمفهومه التقليدى أن يقوم كل ملك ألمانى بعد تنصيبه فى ألمانيا بزيارة الحج إلى روما لتلقى التاج هناك من البابوية، وأصبح هذا أمرا لا مندوحة عنه بعد أن استقرت فكرة الإمبراطورية فى أذهان وخطط الملوك الألمان منذ القرن الحادى عشر بصفة أساسية.

ويعبر هنرى بيرين عن هذا فى عبارات بليغة بقوله " لم تكن الإمبراطورية بالنسبة لألمانيا قدرا محتوما ومهلكا فقط، لأنها فرضت على ملوكها سياسة عالمية، واضطرتهم إلى التضحية بالدولة فى سبيل الكنيسة، وأجبرتهم فى النهاية على أن

---

(47) Leter of Gregory VII to Henry IV 1075.?

يـتركوا الميدان إلى الظل، بل لأنه كانت لها نتائج بعيدة المدى، تمثلت فى السماح للـبابوية بالتدخل المباشر فى شئون ألمانيا الداخلية، إذ أن الملك الألمانى، أو بتعبير أدق، ملك الرومان، باعتباره الإمبراطور المعين، وحيث أن روما كانت قادرة على هـذا الأمـر وبصورة مباشرة وواضحة، فقد أصبحت تدعى أن موافقتها تعد أمرا أساسـيا لاختـيار الإمبراطور الجديد" (٤٨). لقد كانت البابوية، وعلى عهد أنوسنت الثالث بصفة خاصة توافق على أحقية الأمراء الألمان فى اختيار مليكهم، لكن جعل هذا الملك إمبراطورا كان من سلطة البابا باعتباره نائب المسيح على الأرض، ذلك أن الكرسـى الرسـولى فى روما هو الذى نقل الإمبراطورية من القسطنطينية إلى الغـرب زمـن شـارلمان، وأعـاد إحياءها من جديد بتتويج أوتو، ومن هنا غدا الإمـبراطور فى نظر البابوية موظفا، خلقه البابا ليكون عضده وساعده. فهو ليس إلا مـرآة تعكـس عالمية الكنيسة الرومانية، أو بتعبير آخر هو القمر الذى يعكس ضـوء الشمس. نعنى الكنيسة الرومانية (٤٩) لذا لا نكاد نجد ملكا ألمانيا واحدا على امـتداد ثلاثـة قرون كاملة ما بين عامى ٩٦٢ – ١٢٥٠ إلا وقد جاء إلى روما يسـعى للحصول على اللقب الإمبراطورى، ولم يستثن من ذلك إلا كونراد الثالـث (١١٣٩ – ١١٥٢) ولم يكن تمردا ولا هجرانا، ولكن لأن ظروفه الداخلية لم تسمح لـه بهذه الزيارة، وإن كان كونراد أداة طيعة فى يد البابوية، إذ سيرته برفقة قرينه ملك فرنسا، لويس السابع، لقيادة جيشه فيما عرف بالحملة الصليبية الثانية، التى لم تجن تحت أسوار دمشق إلا الخسران.

وكـان هـذا الأمر – نعنى عملية الحج الملكى الألمانى إلى روما من أجل اللقـب الإمـبراطورى يسـتتبع بالتالى وجود قوة عسكرية كبيرة يجردها الملوك الألمـان أثـناء رحلاتهم هذه، مما ترك أثره البالغ على ألمانيا نفسها ـــ كما سنرى بعد قليل. وذلك لإرهاب البابوية فى المقام الأول، ولمواجهة خصوم الإمبراطورية ممثليـن فـى المدن اللومباردية فى الشمال الإيطالى، والتى لقيت الجيوش الألمانية

(٤٨) انظـر: Pirenne, A history of Europe, p. 319.
(٤٩) انظر : Ullmann, op. cit., p. 211.

علــى يديهــا الهزيمة فى أكثر من موقع، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تحطيم الــنفوذ الألمــانى فى إيطاليا. والنبلاء الرومان الثائرين دوما ضد امتداد السلطان الألمــانى إلى إيطاليا. والغضب البيزنطى البادى فى محاولات الأباطرة المقدونيين خــلال القــرن العاشر استعادة بعض ما كان لهم من سيادة آذنت شمسها بالمغيب، والنورمان الطامحين والطامعين في التهام ما تبقى من الأملاك البيزنطية والأعداء الشرســين للملــوك الألمان. وإزاء هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى إيطاليا، فإن الوجود العسكرى الألمانى بها، لم يحقق الاستقرار السياسى الذى كان ينشده أباطرة ألمانــيا، ولم يتجاوز سلطان الألمان فى إيطاليا على حد تعبير برايس حدود الزمان الذى كان يبقاه الجيش الألمانى هناك (٥٠).

فهذا هو أوتو الأول نفسه، رغم دوافعه الألمانية للتدخل فى إيطاليا، فقد جاء إلــيها فى خمس حملات عسكرية لتدعيم سلطانه فى روما، وابنه أوتو الثانى حكم عشــر ســنوات (٩٧٣ – ٩٨٣) أمضى الثلاث الأخيرة منها فى إيطاليا فى جهود عســكرية فاشلة. أوتو الثالث قضى فترة حكمه كلها (٩٨٣ – ١٠٠٢) فى إيطاليا، ولــم تره ألمانيا إلا محمولا على أيدى الرجال ميتا ليدفن بأرضها. أما هنرى الثانى آخــر الخــط السكسونى، فقد حج إلى روما عام ١٠١٤ ليتوج إمبراطورا وقصدها كونراد الثانى سنة ١٠٢٧، وقدم عليها هنرى الثالث مرتين ما بين عامى ١٠٤٦ – ١٠٥٧، وعســكر هــنرى الرابع بجيوشه محاصرا روما ثلاث سنوات ١٠٨١ – ١٠٨٤ بينما جاءها هنرى الخامس مرتين، الأولى خلال عامى ١١١٠ – ١١١١، والثانــية فى سنتى ١١١٦ – ١١١٧. وحج إليها لوثر فى عامى ١١٣٣، ١١٣٦. أمــا فردريك بربارروسا فقد قاد جيوشه إلى هناك فى ست حملات عسكرية لم تكن كلهــا لصــالحه، بــل لم يكن لأولها من ضرورة على الإطلاق إلا إذا أدخلنا فى اعتــبارنا الناحــية التقليدية لهذه الرحلات كما أسلفنا، ذلك أنه من الصعب أن نجد بــالفعل سببا مقنعا لقيام فردريك بحملته الأولى إلى إيطاليا ١١٥٣/ ١١٥٥ فقد كان

(50) Bryce, Holy Roman Empire, p. 171.

ســلطانه علــى الكنيسة فى ألمانيا يكاد يكون تاما، على حين كان البابا غارقا حتى آذانــه فى مشاكله الخاصة مع أرنولد البريشى Arnold of Brescia ، بل وتجلت قــوة فــردريك فى تعيينه أسقف زيتز Zeitz رئيسا لأساقفة مجدبرج Magdburg وحصــوله علــى موافقة البابا على هذه الممارسة "غير الشرعية" للسلطة الملكية، فمهما كان حق الملوك فى اختيار رجال الأكليروس، فإن للبابا وحده الحق فى نقل أســقف مــن كرسى كنسى إلى آخر. ومن ثم فلا تبرير لهذه الحملة إلا رحلة الحج التقلــيدية، أو إن يكــون فردريك غير راض بسلطانه فى ألمانيا، إزاء قوة أعدائه الولفيــن، ومن ثم كان يحلم بكسب مجد تحمله إليه حملة عسكرية موفقة. بالإضافة إلى أنه كان غاضبا من بطء حركة مشروعاته فى ألمانيا، ويطمح فى أن تحمل إليه ثــروات المــدن اللومباردية انطلاقة أسرع، فلابد – فى نظره – أن مناطق السيادة الملكية عبر الألب سوف تكون أكثر غنى وأوفر أمنا (٥١).

بل أن فردريك برباروسا لقى فى إيطاليا سنة ١١٧٧ أذلالا شبيها إلى حد ما بــالإذلال الذى لقيه هنرى الرابع قبل ذلك بمائة عام فى كانوسا. وبينما أمضى أبنه هــنرى الســادس نصــف عهده القصير الذى لم يتجاوز سبع سنــوات (١١٩٠ – ١١٩٧) فى إيطاليا، ومات فى بالرمو، وهب فردريك الثانى جل عهده وحياته كلها من أجل مملكته الصقلية.

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل أن بعض الأباطرة الألمان، فى محاولة لاسترضــاء البابوية شاركوا فى الحملات الصليبية، فأضافوا إلى غيابهم عن ألمانيا بعدا جديدا، وكان من بين هؤلاء كونراد الثالث، وفردريك بربا روسا وسميه الثانى، ورغــم أن ثالــثهم هــذا قد حقق نجاحا لم يسبقه إليه إلا جنود الصليب فى الحملة الأولــى، إلا أن الــبابوية – فى جملة عدائها معه – جزته عن ذلك جزاء سنمار، وأوقعت ضده للمرة الثانية قرار الحرمان الكنسى ثم العزل من بعد.

(51) Strayer & Munro, op. cit., p. 219.
وأيضا : Ullmann, op. cit., pp. 178 - 188.

هـذا الغـياب المتوالى والمتقطع من جانب الأباطرة عن ألمانيا والذى أمتد حوالـى خمسة وتسعين سنة خلال مائتين وثمان وثمانين عاما (٩٦٢ - ١٢٥٠)، وتمثلـت خطورتـه بشكل سافر فى تغيب أباطرة مثل أوتو الثالث وفردريك الثانى بصفة مستمرة عن دولتهم، والاستنزاف العسكرى المستمر لموارد ألمانيا، والانهاك البشـرى لزهرات شباب الألمان. كان لابد أن يترك بصماته الواضحة على سلطان الملـوك الألمـان أنفسـهم فـى داخل دولتهم، فى عصر ساده النظام الاقطاعى، وسـيطرت علـى مقاليد الأمور فيه أيدى الأمراء، وتهاوت إلى الحضيض السلطة المركـزية للملوك. ولما كانت ألمانيا بطبيعة تكوينها القبلى منذ البداية، وجغرافيتها المتـنافرة، وعدم دخولها ضمن دائرة الإمبراطورية الرومانية، فقد أفتقدت الحكومة المركـزية ولـم تعرفها إلا قهرا على زمن شارلمان، فقد ظل الألمانى على امتداد ألـف سنة يفاخر بأنه سكسونى أو بافارى أو فرنكونى أكثر من كونه ألمانيا. ومن أجـل هذا بقيت الملكية الألمانية انتخابية حتى وإن تمثلت فيها الوراثة فى كثير من الأحـيان [٥٢]. وظـل الأمـراء الألمـان يتحينون أية فرصة تسنح لهم ليفترسوها ولـيحققوا من ورائها ذواتهم ومطامحهم الإقطاعية التى كانت تتركز بصفة أساسية فى مزيد من الامتيازات واتساع فى الممتلكات.

ووجـد الأمراء الألمان فى البابوية خير سند ومعين لتحقيق أغراضهم، فقد كانـت بدورها تسعى حثيثا لتحطيم قوة الإمبراطورية الألمانية بعد ما تبين لها أنها تشـكل خطـرا جسيما على سلطانها خاصة فى المرحلة الثانية من الصراع بين الـبابوية والإمبراطورية فى أعقاب توقيع اتفاقية وورمز ١١٢٢. وفى الوقت الذى كانت الأولى فى عهدها الإصلاحى قادرة على التوصل إلى تفاهم مع ملوك انجلترا وفرنسـا، فـإن ساسية الملوك الألمان كانت لا تروق لناظريها، وذلك لأنها كانت بـادرة يمكـن أن تهدد سيادة روما على الكنائس الأخرى فى أوروبا، ومن ثم فإن الـتقارب الـذى كـان قائما بين التاج والكنيسة الألمانية زمن الأسرة السكسونية، والسـيادة الـتى تحققـت للملكية على الأكليروس الألمانى على عهد الفرنكونيين

(٥٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه الناحية، انظر الفصل الرابع.

الســاليين خاصــة هنرى الثالث، كان يعد شيئا لا يتفق ومصالح البابوية [٥٣] وفى مواجهــة هــذه التحديات كان لزاما على الملوك الألمان أن يتبعوا سياسات متباينة بهــدف الإبقاء على ولاء الأمراء العلمانيين والإكليروسيين على السواء سلطانهم، ورغــم اخــتلاف هذه السياسات إلا أنها أودت فى النهاية بمــوارد التاج وبالتالى خيبته ومكانته.

فقــد أقــدم أوتــو الأول علــى بذل المزيد من الهبات والامتيازات لرجال الأكلــيروس الألمان، حتى يصطنعهم لنفسه فى مواجهة الأمراء العلمانيين، بعد أن أخفقت سياسته فى استخدام أقاربه وأصهاره حكاما على المقاطعات. ورغم أن هذه السياســة قــد حققت نجاحا فى حينها إلا أنها أضحت مشكلة عانت منها ألمانيا من بعد، إذ ساعدت على خلق طائفة جديدة من الإقطاعيين هم أمراء الأكليروس. وكان علــى هــنرى الثانى (١٠٠٢ – ١٠٢٤) أن يبذل هو الآخر جهودا كبيرة لمعالجة الأمــور المتردية التى هوت إليها ألمانيا بعد غياب أوتو الثانى وابنه وسميه الثالث فــى إيطالــيا ســنوات طويلــة تقترب من ربع القرن. حتى إذا مات عاد الأمراء يمارســون هوايتهم المفضلة فى اختيار الملك الذى كان يعد بحق وفقط "الأول بين أقرانه" كما أسلفنا، فرفعوا على العرش كونراد الثانى (١٠٢٤ – ١٠٣٩) الذى كان علــيه لــزاما أن يوقف استنزاف أراضى التاج الذى درج عليه الأمراء العلمانيون والإكليروســيون ســواء. لكنه جاء شيئا نكرا عندما عمد إلى خلق طبقة جديدة من صــغار النــبلاء أصــطفاها إلى جواره ليتصدى بها للنفوذ المتزايد لكبار الأمراء، وأولئك يمثلون محدثى النعمة ممن لا أصول لهم، وليست لهم جذور نبيلة، فاضحوا على المجتمع الألمانى من بعد وبالا.

وشــهدت السنوات التسع (١٠٥٦– ١٠٦٥) التى قضاها هنرى الرابع يعانى غــض العمر وسن القصور، سعى كل الفئات على اختلاف انتماءاتها بين الكنيسة والدولــة، لمحاولــة تقوية نفوذها وتدعيم مركزها استعدادا لجولات آتية وجولات،

(53) Barraclough, Origins of modern Germany, p. 113.

ذلــك أن النبالة الألمانية علمانية كانت أم كنسية، تجاسرت على أن تضع يدها على مســاحات شاسعة من الأراضى الملكية مدعية حق السيادة عليها. بل بلغ بهم الأمر إلى حد اختطاف هنرى الرابع نفسه من بين أحضان أمه الوصية عليه الملكة آجنى Agnes لينشــأ تحت رعايتهم، ورحوا يقتسمون فيما بينهم المصدر الرئيسى لدخل الـتاج، نعــنى الأديــرة الملكية. ولم يكن هؤلاء المختطفون إلا الداهية آنو Anno رئــيس أســاقفة كولونـــى، وادلــبرت Adalbert رئيس أساقفة همبرج – بريمن Hamburg-Bremen وبــات علـــى هذا النحو واضحا أن الوصاية على الممالك قد أمست نهبا بين أساقفة متعطشين ونبالة نهمة (٥٤) وحينما أصبح هنرى الرابع قادرا علـــى الـــتخلص من هذه الوصاية، كان عليه أن يدخل فى صراع سافر مع هؤلاء وأولـــئك لاســـترداد كـــل الأملاك والامتيازات التى اغتصبوها أثناء فترة الوصاية عليه. ولم يغفر له الأمراء هذا، ولا صفحت عنه الكنيسة.

فتحت ستار حل مشكلة التقليد العلمانى أصدر البابا جريجورى السابع قراره الشهير بحرمان هنرى الرابع وعزله

"anathematis vinculo alligatus et a regia dignitate depositus"

وأعلــن أن هــنرى الرابع لم يعد من حقه أن يعتلى العرش iustitio aum regnare prohibet وتــم تحرير رعيته من الخضوع له أو الالتزام بأى واجبـــات أو تعهدات تجاهه (٥٥).

"Omnis populus quondam sibi subjectus a vinculo iuramenti ediem promissi sit absolutus".

وكان هذا يعنى فى حد ذاته تحريضا لرعاياه للثورة ضده، فاندلعت الثورات فعــلا فى مناطق متعددة من ألمانيا خاصة جنوبها وسكسونيا. وأذلت الإمبراطورية

---

(54) Thompson & Johson, op. cit., p. 374.

(55) Joachimsen, The investiture contest and the German constitutions, p. 117.

فـــى شـــخص هـــنرى عـــند كانوسا، وذهبت الحادثة فى التاريخ مثلا (٥٦) ومع أن الأحـــوال التى أمست عليها ألمانيا عام ١٠٧٥ عندما بدأ الصراع بين هنرى الرابع وجـــريجورى الســـابع، كانت من العوامل المشجعة للبابا على تحديه السافر للملك الألمـــانى، حيـــث كانـــت تختلف اختلاف تاما عما تركها عليه هنرى الثالث لحظة وفاتـــه، إذ راحت تسير الملكية الألمانية إلى التفكك، وظهرت قوى جديدة كانت فى الحقـــيقة مجـــرد عوامـــل اجتماعية أكثر منها سياسية، ولعل ذلك يعود إلى سياسة كونـــراد الثانى فى اصطفاء عناصر غير معروفة، بالإضافة إلى أزدياد العداء من جانب الارستقراطية العلمانية، والمعارضة الكاملة من جانب الأكليروس تجاه فكرة الثيوقراطـــية التى طبقها هنرى الثالث بعزل وتعيين البابوات، نقول أنه رغم ذلك، فقد كان تدخل جريجورى فى ألمانيا، نقطة تحول خطيرة ليس فقط على عهد هنرى الـــرابع، بل على امتداد التاريخ الألمانى، إذ دمر هذا التدخل كل الخطط التى جاهد هـــنرى الرابع من قبل بكل قواه فى سبيل تقوية وتدعيم الملكية، وغير تغييرا كاملا أشـــكال الحكومة والتركيب الاجتماعى لألمانيا. ولا شك أن طبيعة التطور الألمانى مـــا بين عامى ٩١١ – ١٠٧٥، مهما كانت الصعوبات والمعاناة، كانت شيئا رائعا. لقـــد ســـلكت ألمانيا نفس السبيل الذى أقدم على اتباعه ملوك إنجلترا النورمان بعد خمســـين ســـنة مـــن الآن، وكان من الصعب على ملوك أسرة كابيه فى فرنسا أن يصـــلوا إلـــيه قـــبل النصف الثانى من القرن الثانى عشر، غير أن هذا الصرح تم تحطيمه نتيجة الصراع مع الكنيسة، وكانت رسالة جريجورى السابع فى الثامن من ديســـمبر ١٠٧٥ (٥٧) تفجـــيرا لثورة غيرت تماما طبيعة التطور السياسى الألمانى، فتحت صفحة جديدة فى التاريخ الألمانى بل فى التاريخ الأوروبى (٥٨).

---

(٥٦) الدلالة الوضحة لهذه الحادثة هى خضوع الدولة للكنيسة. وقد وعى المستشار الألمانى الأشهر فى القرن التاسع عشر، بسمارك، هذا المفهوم وهو يصارع الكنيسة الكاثوليكية عندما أطلق عبارته الشهيرة "لن نذهب إلى كانوسا".

(57) Letter of Gregory VII to Henry IV 1075.

(58) Barraclough, op. cit, p. 97.

فقــد وجدت النبالة الاقطاعية فى ألمانيا فرصتها التى تبحث عنها فى قرار العــزل الــذى صــدر ضــد هنرى، وأدعت عدم التزامه بقرارات مؤتمر تريبور Tribur (٥٩) ومارســوا رياضــتهم المفضــلة فولــوا عليهم ملكا بديلا هو رودلف الســوابى Rudolf of Suabia رغــم أن هنرى عاد من رحلته المهينة إلى كانوسا يحمل قرار العفو من البابا. وشهدت ألمانيا حربا أهلية استمرت ثلاث سنوات سويا (١٠٧٧ – ١٠٨٠) وأدى تباطؤ جريجورى السابع فى تبيان موقفه إلى ازدياد أوار هذا الصراع، حتى إذ قتل رودلف اختاروا آخر خلفا له .. هيرمان Herman الذى لم يكن أكثر من ظل شاحب لم يقم له أحد وزنا على الإطلاق.

واســتمرأت النبالة الألمانية أفعالها، فدفعوا كونراد ابن هنرى الرابع إلى أن يــرفع فــى وجه أبيه راية العصيان، ونادوا به ملكا عام ١٠٩٣، تشد البابوية من أزرهم بيد أوربان الثانى. ولئن كانت هذه المحاولة قد باءت بالفشل، فإن غيرها قد نجحت بعد أن بلغ هنرى الرابع من العمر أرذلة، إذ رفع الأمراء هنرى الابن ملكا عام ١١٠٤، والذى عرف بهنرى الخامس، ليتولى العرش فى حياة أبيه بعون البابا باسكال الثانى.

لا ريب أن هذه الأحداث ومثيلاتها، حملت الملكية الألمانية وهنا على وهن، راح يــترك بصــماته واضحة على البناء السياسى لألمانيا فى العصور الوسطى، وازدادت حدتــه بوفــاة هنرى الخامس سنة ١١٢٥، إذ انفجر الصراع سافرا بين حزب الولفيين القوى الذى يتزعمه هنرى المتكبر دوق سكسونيا، والذى لم يكن ابنه ووريــثه هــنرى الأســد أقــل منه صلفا وعنادا، وبين أسرة الهوهنشتاوفن. وهو الصــراع الذى أودى بقوة ألمانيا السياسية إلى حد كبير، رأى فيه أحد المعاصرين،

(٥٩) عقد هذا المؤتمر فى مدينة تريبور فى أكتوبر ١٠٧٦ وضم أمراء ألمانيا الساخطين على هنرى سياسته ومحاولاته تدعيم السلطة الملكية، وأساقفتها المرتعشين خوفا من بطش جريجورى، وخلع المؤتمرون طاعة هنرى، وقرروا وجوب حصوله على غفران البابا خلال خمسة شهور عليه أن يعتكفها فى أحد الأديرة. والتزم هنرى بذلك فى أول الأمر، ثم أنسل تاركا الدير متجها إيطاليا للقاء البابا، بعد أن علم أن الأمراء دعوا البابا الحضور إلى ألمانيا. وقد التقى هنرى بجريجورى فى كانوسا حيث جرت حادثة الإذلال الشهيرة.

أوتو أسقف فريزيا، الراهب السيسترشيانى Cistercian والأخ غير الشقيق لكونراد الثالـث، صورة قاتمة لمستقبل ألمانيا، سجلها فى كتابه "تاريخ المدينتين" Historia de duabus civitatibus بقولـه "أنـه يشـعر أن المملكة الألمانية كانت تسير إلى زوال، وأن نهاية العالم قد دنت وليس هناك بارقة أمل إلا فى المملكة السماوية التى هـى لا ريـب آتـية" (٦٠). وكـان من نتيجة هذا الصراع أبعاد الوريث الشرعى فردريك الهوهنشتاوفن باعتباره ابن أخ هنرى الخامس، واختيار شخصية مغمورة، أداة طـيعة في يد الأمراء والبابوية، لوثر، ليكون ملكا على ألمانيا. وتجلى مدى ضـعف الملكية الألمانية إبان عهده، فى المرسوم الذى أصدره البابا أنوسنت الثانى عـام ١١٣٣، بمـنحه أملاك الكونتيسة ماتيلدا Matilda أميرة تسكانيا، إقطاعا من الـبابوية على أن يدفع عنها جزية سنوية (٦١). رغم أن ارث ماتيلدا كان فى قبضة ألمانيا واقعا منذ ضمه إليه هنرى الخامس فى أعقاب وفاة الكونتيسة.

ولـيس أدل على ازدياد نفوذ الإقطاع فى ألمانيا، واتساع سلطان الأمراء من رفـض هـنرى الأسد زعيم البيت الولفى الأن، ودوق سكسونيا، الانصياع لأوامر سيده فردريك بربا روسا، باعتباره فصلا إقطاعيا له، عندما طلب إليه الاشتراك فى حملـته إلـى إيطاليا عام ١١٧٦، مما كان له أثره الكبير فى هزيمة الملك الألمانى هـزيمة سـاحقة فـى موقعـة ليناتو Legnano على يد مدن العصبة اللومباردية، ونـزولة على إرادة البابوية. هذا الموقف من جانب هنرى الأسد كان نتيجة منطقية للضـعف الـذى انحطت إليه الملكية الألمانية من جراء الإغراق المستمر لفردريك الأول فـى مشكلات إيطاليا، حتى أن هنرى أقدم قبل ذلك عام ١١٦٤ على استقبال سـفراء الإمبراطور البيزنطى مانويل الذى كان يؤيد البندقية وعصبة فيرونا ضد الإمـبراطور الألمـانى، وثنى ذلك فى سنة ١١٦٨ بالزواج من ماتيلدا ابنة هنرى الـثانى ملك انجلترا، ووصل صلاته بهذه المصاهرى بالتاج الإنجليزى وتخطاه إلى

---

(٦٠) انظر: Heer, The Medieval history, pp. 283 - 284.
وأيضا: Storayer & Munro, op. cit., p. 218.
(61) Tout, op. cit., p. 229.

الدانمرك. وعندما عرج على القسطنطينية فى سنة ١١٧٢ وهو فى طريقة إلى الأماكن المقدسة، سرت الشائعات وعلت بأنه يتآمر مع مانويل البيزنطى ضد فردريك الهوهنشتاوفنى الألمانى (٦٢) وقد كشف ذلك كله عن أن هذا الفصل الإقطاعى ينتهج سياسة خارجية مستقلة، ويدبر أمور دوقيته كما لو كان ملكا متوجا.

وكان لابد للملكية الألمانية الجريحة أن تصفى حساباتها مع هذا الفصل المتمرد، الذى ازداد تكبرا بعودة فردريك خاسرا من إيطاليا على هذا النحو. وتمثل ذلك فى رفضه المثول بين يدى أقرانه حسبما تقضى التقاليد الاقطاعية عندما دعى لمحاكمته عام ١١٧٩ على ما اقترفت يداه. عندها استجمع فردريك قواه، واستحث صغار النبلاء لتأييده، ووعدهم بأراضى وممتلكات هنرى الأسد إذا ماعاونوه فى تحطيم قوة خصمه الولفى هذا. فلما تحقق له ما أراد سنة ١١٨٠ كان عليه أن يفى بما عاهد عليه الأمراء.

ولا شك أن هزيمة هنرى الأسد واستسلامه ونفيه، كانت سببا مباشرا فى تغيير الخريطة الألمانية تغييرا جذريا خاصة فى الشمال، فقد اختفت الدوقية القديمة، سكسونيا، وظهرت بدلا منها مجتمعات صغيرة، وأصبحت وستفاليا دوقية مستقلة، واتسعت سلطات رجال الأكليروس على مناطق فسيحة خاصة رئيس أساقفة بريمن ومجد برج، وعادت الإقطاعية التى كان هنرى الأسد قد ضمها لسلطانه، إلى الأساقفة (٦٣). وهكذا اختفت الدوقات القبلية القديمة لتحل محلها وحدات صغيرة، وإزدادت بالطبع عدد الدوقيات، وباستثناء سوابيا، فلم تعد إحدى هذه الدوقيات تقارن بسابقتها فى المساحة أو الأهمية. ولم يعد لقب الدوق يدل على نفس الأهمية التى كانت له من قبل. وظهرت قوة أخرى من طبقة أقل نبالة لكنها لها نفس السلطان مثل حكام ثورنجيا وبراندنبرج (٦٤) وكان توزيع السلطة على هذا العدد الكبير من الأمراء "غير النبلاء" بدلا من العدد القليل من النبلاء الأصليين،

---

(62) Stephenson, Mediaeval history, p. 402.

(63) Brooke, A history of Europe, p. 503.

(64) Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 259.

يعنى فى الوقت ذاته تخلص الملكية الألمانية من التهديد الخطير الذى كان يتهددها، ولــو كــان فــردريك برباروســا على نفس قدر تفكير معاصريه، روجر الصقلى وهنرى الثانى ملك إنجلترا، لكان من الممكن أن ينتهز هذه الفرصة لتدعيم سلطانه وخلق نظام إدارى مركزى متميز، يثبت به دعائم الملكية.

ومــن هــنا يمكن القول مع "كانتور" أن محاكمة هنرى الأسد تمثل اللحظة الحاســمة فــى تاريخ الإقطاع الألمانى، ذلك أن فشل الإمبراطور فى ضم أراضى أعدائــه الولفيين، كان يعنى أنه لا يستطيع أن يستغل القانون الإقطاعى فى زيادة سلطانه، كما كان عليه الحال فى إنجلترا على مدى أكثر من قرن من الزمان، وكما حــدث بــنجاح بعد ذلك فى فرنسا (٦٥) لكن فردريك لم يكن رجلا سياسيا، بل كان تقلــيديا فــى كــل تصرفاته. ولما كان هدفه الإمبراطورى فى إيطاليا يسيطر على سياســته، فــإن ركــيزته الأساسية للنجاح فى ذلك كانت الاعتماد على وضعه فى ألمانــيا. ولم يستطيع فردريك أن يمد بصره خلف القانون والتقاليد الإقطاعية. ومن ثــم فإنــه نتــيجة للحــروب الأهلية المستمرة فى ألمانيا، حتى قبل عهد فردريك برباروســا، راح الملوك يزدادون اعتمادا على "حسن النوايا" من جانب النبلاء (٦٦) ولــذا كــان علــيهم باستمرار أن يقدموا تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لاكتساب تعــاونهم وتــأيدهم، خاصــة التأيــيد العســكرى. وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحــاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم، بما فيها سلطاتهم على النــبالة الدنــيا، وحقهم فى الوراثة. ومن ثم أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونــت مــن الأب إلــى ابنه وكذا الأراضى. وأمست فكرة إقامة دولة لها كيانها السياسى، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك، أمرا عبثا. ولعبت المحلية الإقليمية الــتى ظهرت بعد هزيمة هنرى الأسد دورا كبيرا فى الابتعاد بألمانيا عن قيام دولة موحــدة. ولقــد كانــت أهم وأخطر هذه الأمور – على حد تعبير باراكلاف – أن ألمانــيا راحت تسير بخطى ثابتة نحو تأصيل وترسيخ النظام الإقطاعى، وكان هذا

(65) Cantor, Mediaval Europe, p. 434.
(66) Brooke, op. cit., pp. 505 – 506.

شـيئا فرغـت مـنه فرنسـا فى القرن التاسع، فراحت القلاع تقام فى كل مكان، وسـاعدت الحروب الأهلية على تعميق الجذور الإقطاعية، وبقدر ما حققه الأمراء من مكاسب، بقدر ما خرج التاج فى النهاية خاسرا (٦٧).

وهـناك صـورة واضـحة تعطينا دليلا على ما أسلفنا، ذلك أن وفاة هنرى السـادس عام ١١٩٧ بعد السنوات التى أمضاها بعيدا عن ألمانيا، وموته غريبا فى بالـرمو، لم يكن إلا إشارة البدء للحزبين المتصارعين فى ألمانيا للاقتتال. وطوال أربعـة عشـر عاما كاملة (١١٩٨ – ١٢١٢) اصطلت ألمانيا بنيران حرب أهلية طـرفاها فيليـب السوابى سليل أسرة الهوهنشتاوفن، الوريث الشرعى باعتباره أخ هـنرى السادس، إذ كان فردريك ابن هنرى من كونستانس ما يزال صبيا قاصرا، وأوتـو "الرابع" دوق برنسويك زعيم الولفيين ابن هنرى الأسد. ودون أن نخوض فى تفاصيل هذا الصراع نقول أنه جر إلى ساحته النفوذ الأجنبى للتدخل فى الشئون الداخلـية لألمانيا (٦٨) إذ وقفت إنجلترا إلى جانب حلفائها الولفيين بينما أيدت فرنسا بحكـم عدائها للإنجليز، حقوق فيليب السوابى الهوهنشتاوفنى، والذى اعتبر نفسه – رغـم ضـعف شخصيته ونفوذه الواضحين، سلسل القياصرة الرومان، وخلع على نفسـه لقـب فيليـب الثانى بعد فيليب الأول الذى حكم الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى (٢٤٤ – ٢٤٩)، ولما كانت البابوية قد وضعت فى اعتبارها ضـرورة الإجهاز على الهوهنشتاوفن، فقد راحت تتدخل بكل ثقلها فى هذه الحرب، أو بتعبـير أدق علـى حـد قول المؤرخ بيرين، أن هذه الحرب جرت كما تشتهى الـبابوية (٦٩)، فقد أخذت تنقل تأييدها من جانب إلى آخر على عهد رجلها الأشهر أنوسـنت الثالـث Innocent III الذى أعلن صراحة حقه، باعتباره راعى الكرسى البطرسـى، فى اختيار المرشح الجديد لعرش ألمانيا "مادامت الإمبراطورية تستمد

---

(67) Barraclough, op. cit., pp. 136. 139, 141 – 147.

(٦٨) للمزيد من التفاصيل عن الحرب الأهلية هذه راجع C.M.H. Vol VI, pp. 44 – 79.

وأيضا : Ueemann, op. cit. pp. 206 – 212.

(69) Pirenne, op. cit., p. 285.

أصولها وسلطتها من البابوية" أما أصولها فلأن الإمبراطور أعتلى عرشه، على يد البابا الذى توجه وسلمه مقاليد الإمبراطورية" (٧٠) وبناء على هذا الحق، ومبررات تتفق وهواه ومصلحته السياسية، أعلن اختيار أوتو الرابع دون نظر إلى أصحاب الحق الشرعيين، لكن مع ذلك أخذ يغير موقفه فيما بعد حسبما تحمل إليه رياح الحرب ومطامع كرسيه أبناء جديدة أو آمالا معقودة. ولا شك أن طول الحرب الأهلية الألمانية على النحو الذى أرادته البابوية وكان الرابح الوحيد منه فى نهاية الأمر النظام الإقطاعى فى ألمانيا، والذى راح يثبت جذوره بصورة عميقة، نتيجة ما أقدم عليه زعيما الحزبين المتصارعين من تقديم التنازلات وإعطاء الامتيازات للأمراء الألمان، إرضاء لهم على مناصرتهما. وانسحب هذا أيضا على رجال الكنيسة الذين حققوا فى هذه الفترة ما لم يحققوه من قبل على عهد السكسونيين أو الفرنكونيين (٧١).

ومن الطريف أن الأمراء، الذين رفضوا فى البداية العرض الذى تقدم به إليهم فيليب السوابى باختيار فردريك ابن أخيه هنرى السادس ملكا بدلا منه، حتى لا يتهم باغتصاب العرش، عادوا الآن بعد أن اتخمت نفوسهم – وإن كانوا ما يزالون ينتظرون المزيد – إلى التحول بولائهم المتقلب إلى اختيار فردريك "الثانى" ملكا، وهم الذين أغمضوا عيونهم عن حقه عمدا طوال هذه السنوات.

وباعتلاء فردريك الثانى عرش ألمانيا، تدخل المشكلة الإيطالية ذروة تعقيدها فى السياسة الألمانية، إذ يعد عهده تجسيدا كاملا لكل آمال الملوك الألمان تجاه إيطاليا، وكل مظاهر العداء من جانب البابوية إزاء الملكية الألمانية، وفكرة الإمبراطورية التى بذرت هى بنفسها منذ البدء بذرتها، وكل جوانب الابتزاز وتعميق النزعات المحلية والشكل الاقطاعى لسلطات أمراء العلمانيين والاكليروس على السواء. وقد افتتح عهده بوعد قطعه على نفسه للبابا أنوسنت الثالث، تنازل له

---

(70) Decision of Innocent III in regard to the disputed election of Frederick II, Philip of Suabia, and Otto of Brunswick, 1201.

(71) Concessions of Philip of Suabia to Innocent III, 1213.

فيه عن كل ما كان يناضل البابوات من أجله طوال قرنين كاملين مضيا [٧٢] يدفعه إلى ذلك حداثة سنة واعتماده على تأييد البابوية فى التصديق على اختياره للعرش. وثـنى ذلـك بتعهد آخر للبابا فى سنة ١٢١٦ ضمنه تنازله عن صقلية لابنه الطفل هـنرى [٧٣]. ولو قدر لهذه التعهدات والوعود أن تنفذ كما جرت، لانتهى الصراع بيـن البابوية والإمبراطورية تماما، إلا أن فردريك أدرك فيما بعد أنه قد تنازل عن كـل مـا جاهد أسلافه الأباطرة من أجله حول فكرة الإمبراطورية. ومن ثم عمل على رفض كل ماقطعه على نفسه، عند تتويجه، فقاد الإمبراطورية بذلك وأسرته إلى حتفها.

فمن المعروف – على النحو الذى أسلفنا – أنه منذ أعتلت أسرة الوهنشتاوفن العـرش فى ألمانيا، راحت مكانة إيطاليا فى السياسة الألمانية تتزايد بصورة بدت وكأنهـا أمسـت شيئا لا غنى عنه لألمانيا، ومثلت حجر الزاوية فى سياستها كلها، فمـن كونراد الثالث حتى فردريك الثانى أضحى التحول كاملا – وذلك بحكم مولده مـن أم صـقلية، ونشأته فى صقلية، فأضحى صقليا خالصا [٧٤]، يريد أن يقيم فى إيطالـيا ملكـية مستبدة على نسق ما أقامه فى صقلية، حيث جعل لنفسه الإشراف علـى القضـاء الجـنائى، وهدات من حريات النبلاء ورجال الدين والمدن، ويعقد مؤتمـرا فـى كريمونا Cremon سنة ١٢٢٦ يعلن فيه حرصه الكامل على حقوق الإمبراطورية فى السيادة على المدن اللومباردية، ويثير مخاوف البابوية بمحاولاته المسـتمرة لإثـبات سـيطرته على جنوب إيطاليا، ثم لا يلبث أن يتوج ابنه هنرى لـيخلفه علـى عـرش الإمبراطورية مما أفزع البابوية [٧٥] ودفعها إلى اتهامه من جانـب كـل من جريجورى التاسع وأنوسنت الرابع، بالهرطقة والتجديف، ووصفه

---

(72) Promise of Frederick II to Innocent III, 1213.

(73) Promise of Frederik II to resign Sicily after his Coronation as emperor, 1216.

(74) Pirenne, op. cit., p. 314.

(٧٥) فيشـر؛ تـاريخ أوروبـا العصور الوسطى، ج١ ص ٢٥٢ – ٢٥٣؛ ودكتور سعيد عاشور؛ أوروبا العصور الوسطى؛ ج١، ص ٣٦٣ – ٣٦٤ وأيضا:

Hyde, Society and politics in Medieval Italy, pp. 119 – 124.

بأنـــه "الحـــيوان الـــذى جـــاء ذكـــره فى سفر الرؤيا .. عبد الشيطان. نبى أعداء المسيح"(٧٦).

وساعد فردريك البابوية بسياسته على أن تسعى جاهدة لتحطيمه، وأن تستغل هـــذه السياســـة فـــى أثارة الاضطرابات ضده فى ألمانيا، وتدبير الثورات والمكائد للخـــلاص مـــنه والـــتحالف مـــع الأمراء لإزاحة هذه الأسرة من العرش الألمانى وبالـــتالى صـــقلية، وفـــتح باب ألمانيا أمام النفوذ الأجنبى الفرنسى الإنجليزى. بل وعـــرض تاجهـــا علـــى روبـــرت أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا، هاكون Haakon ملـــك الـــنرويج، وأمـــير من أمراء الدانمرك، وهنرى راسبى الثورنجى Hanry Raspe الذى قبله سنة ١٢٤٦، والذى كان على استعداد لتسليم كل سلطاته علـــى الكنيسة الألمانية إلى مندوبى البابا. فلما توفى فى العام التالى، رشح أنوسنت الرابع أحد صنائعه هو وليم الهولندى (٧٧). ولا يمكن القول أن أيا من المرشحين قد حظى بالاعتراف الكامل بسيادته فى ألمانيا، لكن وجهة نظر أنوسنت كانت تتلخص فـــى إثارة العراقيل والعقبات أمام فردريك أكثر من استقرار العرش الألمانى، إلى الحد الذى أقدم فيه البابا على إرسال مبعوث شخصى له إلى ألمانيا هو فيليب أسقف فـــيرارا Ferrara يحمـــل تعليمات واضحة مؤداها خلق الصعوبات والفوضى أمام التاج (٧٨).

فعلـــى امـــتداد عهـــد فردريك الثانى أتت صقلية وإيطاليا دائما فى المقام الأول، وحظيـــت العناصـــر الإيطالية بالمكانة المرموقة دوما على حساب العناصر الألمانية، حـــتى أمست ألمانيا إبان حكمه مجرد ولاية تابعة أو حتى مستعمرة تدار بواسطة نائب عـــنه، هـــو ابـــنه هنرى أولا ثم كونراد من بعد. لقد كان اهتمامه فى ألمانيا محصورا للحصـــول على اللقب الإمبراطورى فقط .. ومن هنا فإن اتجاهه إلى ألمانيا كان لتدعيم

---

(76) General Council of Lyons, Sentence of deposition promulgated by Innocent IV.

(٧٧) للمزيد من التفاصيل عن دور البابوية هذا: راجع

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 420 – 428.

وأيضا : Waly, Later Medieval Europe, p. 76.

(78) Scott, op. cit., p. 268.

نفوذه وسلطانه فى إيطاليا وصقلية [٧٩] وهذا الاتجاه يمثل سياسة مضادة تماما لما سعى إليه أوتو الأول، عندما كان اهتمامه بإيطاليا بحثا عن قرار سلطانه فوق الإكليروس الألماني. وهكذا نرى أن التحول أصبح كاملا خلال هذه القرون الثلاثة ما بين النصف الثاني من القرن العاشر ومنتصف القرن الثالث عشر.

ويتساءل هنرى بيرين فى صراحة .. ماذا كانت ألمانيا تعنى لفردريك؟ ويجيب فى وضوح: لقد كانت مجرد طريق عليه أن يسير فيه ليعتلى عرش القياصرة، أما قوته الرئيسية فكانت تتمثل فى صقلية .. أنه لم يكن حتى يعرف اللغة الألمانية [٨٠]. بل لقد كان فى رأى D. Waley يمقت ألمانيا [٨١]. ويعتبرها "أرض الإحراج الكئيبة، والمدن الموحلة، والقلاع المنفرة" [٨٢] بينما كانت إيطاليا بالنسبة لفردريك – حسب تعبير كانتروفتش Kantorowicz "مرفأة الأمين من الطوفان، وفردوسه الحانى وسط غابة الأشواك" [٨٣] ومن هنا كانت نظرته إلى ألمانيا تحمل فى طياتها كل معانى التشاؤم والقنوط، ولما كان إيطالى المولد والنشأة، فإن نظرته إلى ألمانيا على هذا النحو، باعتبارها مجرد مصدر للرجال والأموال، أكثر من كونها مملكة يحكمها بصفة مباشرة، أمرا لا يمكن تجنبه، ومن ثم لم يكن بمقدوره أن يكون فى مملكته الإيطالية وألمانيا فى وقت واحد، ولذا كان الغياب عن أيهما لابد أن يسوق إلى تآكل السلطة الملكية بها.

وهذا هو ما حدث بالفعل لسلطة التاج فى ألمانيا، من جراء إقامته فى صقلية وترك ابنه هنرى فى ألمانيا [٨٤]، وتمثلت خطورة ذلك فى أن هذا الاختفاء للتاج جاء فى أعقاب الحرب الأهلية الطويلة التى تركت بصماتها الواضحة على الكيان

---

(79) Barraclough, op. cit., pp. 219 – 211.
(80) Pirenne, op. cit., pp. 314 – 315.
(81) Waley, op. cit., p. 75.
(82) Barraclough, op. cit., p. 220.
(83) Kantorowicz, Frederick the Second, p. 220.

(٨٤) حكم فردريك الثانى ثمانية وثلاثين عاما (١٢١٢ – ١٢٥٠) لم يمكث منها فى ألمانيا سوى تسع سنوات على فترتين متباعدتين.



السياسى للسلطة الملكية فى ألمانيا. مما أعطى الفرصة لكى تخضع ألمانيا بصورة عملية للأمراء الأكليروسيين والعلمانيين. ولما بات كل ما يرجوه فردريك من ألمانيا أن تثير فى وجهه المتاعب، فقد أصبح على استعداد كى يذهب فى هذا السبيل إلى آخر المدى، وأن يقدم من التنازلات ما يهئ له الفرصة لتثبيت دعائم سلطانه فى صقلية وإيطاليا. ولعل هذا هو الذى يفسر إقدامه فى عام ١٢٢٠ على منح الأكليروس الألمانى امتيازات واسعة Privilegium in Favorem principum ecclesiasticorum تعطيهم حقوقا مطلقة فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة، والتصرف فى الاقطاعات الكنسية كيفما يحلو لهم، وإغفال الإدعاءات الملكية برفع الضريبة عليها عند الضرورة أو بناء القلاع فوقها (٨٥) وتنازل عن حق إقامة مراكز جديدة لتحصيل المكوس الجمركية أو دور لضرب النقود فى الأقاليم الكنسية، وترك للأساقفة كل ما كان قد بقى له من حقوق فيما تختص بالمحاكم وأمور التقاضى ووعد بأن ينظر إلى أى شخص يصدر ضده تختص الحرمان الكنسى على يد أحد الأساقفة على أنه خارج عن القانون. ولا شك أن هذا التصرف الذى جاء فى صالح الكنيسة، قد أساء بشكل واضح إلى صورة العلاقات الطويلة بين الكنيسة والملوك الألمان، ذلك أنه لم يعد لديها الآن ما يدفعها إلى البحث عن التحالف مع التاج، وما دامت القوة الحقيقية قد انتقلت إلى أيدى الأمراء العلمانيين، فإن أمراء الكنيسة راحوا ينظرون إليهم باعتبارهم سندهم الزمنى، فأطاح ذلك بالبقية الباقية من الولاء الرسمى لدى الأكليروس تجاه الحكومة (٨٦) وهكذا .. فإن ما أقدم عليه فردريك الثانى هنا يعد تدميرا كاملا للتاج الألمانى، فقد صنع من كل أمير أكليروسى، ملكا فى الحقيقة وإن كان لا يحمل اللقب، فجرد التاج من حقوقه وسلطاته (٨٧).

---

(85) Concessions of Frederick II to the ecclessiastical princes of Germany, 1220.

(86) Scott, op. cit., pp. 266 – 267.

(87) Thatcher & McNeal, op. cit. p. 233.

وكان فردريك الثانى يهدف أساسا بهذه التنازلات إلى اجتذاب الكنيسة الألمانية إلى صفه، إذا ما حاولت البابوية التعرض له ولسياسته، وذلك بما عدته خرقا للتعهدات التى قطعها على نفسه عند إعلانه ملكا،=

وكانــت هــذه الامتيازات التى حصل عليها أمراء الأكليروس، فاتحة خير وبــركة للأمــراء العلمانييــن، وكارثة خطيرة فى الوقت نفسه للكيان السياسى فى ألمانيا، فقد راح هؤلاء الأمراء يسعون بكل ما وسعهم الجهد لتدعيم نفوذهم وزيادة سلطاتهم وتوسيع رقعات أراضيهم الألمانية. لكنهم اصطدموا الآن بالسياسة الجديدة الــتى راح يتــبعها هنرى "السابع" مخالفا تماما لسياسة أبيه، بل لسياسة أسلافه من الملوك الألمان جميعهم، ذلك أن هنرى أبصر أمامه طريقا واحدا للخلاص أو على الأقل للحد من نفوذ النبالة الألمانية، العلمانية والاكليروسية، ألا وهو الاعتماد على المدن التى كانت تحاول جاهدة أن تحمل لنفسها على المزيد من مظاهر الاستقلال، وتسعى للتحرر من سلطان الأساقفة المتزايد، وتلك كانت السمة الرئيسية للقومونات التى شهدتها العصور الوسطى فى الشمال الإيطالى فى لمبارديا، وفى ألمانيا كذلك. ومن الغريب أن ملكا مثل فردريك الثانى، يتمتع بهذه القدرات غير العادية، والثقافة العالية، والمهارة الإدارية، يغفل عن دور المدن الناشئة فى التصدى لسلطان أمراء الكنيســة والأمــراء العلمانيين، بل لقد أقدم على اتخاذ عدد من الإجراءات كان من شأنها حماية الأساقفة من "تطاول" المدن داخل الأقاليم الكنيسة.

ومــن البديهى أن إزدهار المدن كان مؤشرا طبيعيا نحو التحول عن النظام الإقطــاعى والاقتصــاد الــزراعى، والأرض باعْتــبارها المصدر الرئيسى للقوة الاقتصــادية وبالــتالى السياسية، إلى الاقتصاد النقدى والأموال والتجارى بصفتها المحــرك الأساسى لدولاب العمل الاقتصادى فيما بعد. وكان هذا يعنى بتعبير آخر أنهــيار الــنظام الاقطــاعى، وبتعبــير أكثر وضوحا ودقة، أنهيار سلطان الأمراء العلمانييــن والكنسيين. وساعد على سرعة هذا التحول أيضا فى القرن الثالث عشر عــاملان رئيســيان، أولهما ما حصلت عليه مدن العصبة اللومباردية من اعتراف بحقوقهــا وامتــيازات فــى أخريات القرن الثانى عشر (١١٨٣)، بمقتضى معاهدة

---

*بعــدم توحــيد ألمانيا وإيطاليا تحت سيادة شخصية واحدة فى ذريته، وذلك عندما أقدم على إعلان أبنه هــنرى (الســابع) ملكــا على ألمانيا، والذى كان يعد بصفة طبيعية ملكا على صقلية باعتباره الوريث الشرعى لأبيه، الذى لم يكن يعترف فى قرارة نفسه بما أخذ عليه فى البدء البابوية.

كونســتانس Constance التى انتزعتها هذه المدن من الإمبراطور فردريك الأول برباروسا، بعد أن لازم سوء الحظ حملاته المتتالية على إيطاليا [٨٨] فأصبحت هذه الامتــيازات مــثالا يحتذى لدى المدن الأخرى فى بقية الدول الأوروبية، وحرص رجــال المدن على الحصول على "البراءات" التى تقرر مثل هذه الحقوق من جانب الأمــراء. أمــا الثانى فهو الفشل الذى منيت به الحركة الصليبية مما أودى بها فى القرن الثالث عشر وعودة الأمراء الذين شاركوا فيها إلى الغرب مفلسين أو موتهم فــى الشرق، وضياع الأرض إلى صالح التاج بعد أن رهنها أصحابها قبل رحيلهم إلــى الأراضــى المقدســة. ومن ثم راحت الأهمية الاقتصادية والسياسية للأرض تــتولى إلــى الظل تدريجيا، بينما أضحت المدن الناشئة بنشاطها التجارى تلعب دورا هاما راح يتزايد مستقبلا بصفة مستمرة.

وممــا يدعــو للعجب أن كل ملوك ألمانيا دون استثناء عضبوا عيونهم عن أبصــار هذه الأهمية التى تمثلها تلك المدن. والأمثلة على ذلك كثيرة تجلت بصورة واضــحة فى رفض هنرى الرابع العرض الذى تقدمت به مدن العصبة اللومباردية لتأيــيده وهــو فــى رحلته إلى مذبح الاذلال فى كانوسا، ليقدم لجريجورى السابع كــبرياء الإمبراطورية قربانا، ومع ذلك لم تتخل عنه هذه المدن فى أخريات عهده. ووقــف فــردريك بربارو‌ســا موقف العداء السافر لقومون روما وأرنولد البرشى Arnold of Brescia وللمدن اللومباردية التى أرهقته من أمره عسرا خلال حملاته العسكرية إلى إيطاليا، والتى استنفذت كل طاقات ألمانيا من المال والرجال دون أن يفــيق أو يحقــق كسبا معينا، مع أن فردريك بربار‌وسا كان يدرك يقينا أن أعداءه، المــدن اللومــباردية والــبابوية، همــا أيضا يحملا لبعضهما عداء كامنا، وكانت الاستراتيجية تقضية أن يعمل كى يظل هذا العداء بينهما قائما، بل وكان فى مقدوره أن يحقــق ذلــك بدلا من دفعهما – بسياسته – إلى تكوين جيش واحد ضده. وكان عليه فى الوقت نفسه أن يكون عارفا بقدرته التى لا تستطيع أن تحارب كل أعدائه دفعة واحدة، وأن تحصل له على كل الحقوق، وكان من الأفضل بالنسبة له أن يتفق

---

(٨٨) انظر : The peace of Constance, January 1183.

مـــع أقـــل خصومه شأنا حتى يضمن تعاونهم معه ضد عدوه الأكبر البابوية، التى كانـــت هـــى الأخـــرى خصـــمهم العنـــيد. غير أن هذا هو الشئ الذى لم يستطع برباروســـا، بـــل ولم يرد أن يقدم عليه [٨٩] وحتى فردريك الثانى نفسه، الذى كان يجـــب أن يكـــون من بين الأباطرة أكثر تعقلا وإدراكا لمغبة هذه الأمر، استمر هو الآخـــر فـــى المراهنة على الجواد الخاسر، وذلك باعتماده على الأمراء العلمانيين والاكليروســـيين الذيـــن كـــانوا من الطبيعى أن يهجروا جانب الإمبراطورية فور حصولهم على ما يبتغون.

ولا ريـــب أن الامتـــيازات الـــتى منحها فردريك الثانى لرجال الإكليروس، وخاصـــة تلـــك التى تتعلق بموقف الأساقفة تجاه المدن، تعد شيئا خطيرا، ليس فقط لأنها تشير إلى تحلل السيادة الملكية فى الأقاليم الخاضعة لرجال الكنيسة الطامحين الذيـــن كـــانوا يقتربون الآن من الاستقلال الكامل، بل لأنها كانت المثل الأخير فى العمل المقدور على كل أباطرة ألمانيا الذى حال دون إدراكهم، كما أدرك ملوك آل كابيه فى فرنسا، أن الصراع ضد النظام الإقطاعى، وهو الشئ الذى لا يمكن تجنبه إذا أريـــد قـــيام دولة قوية، كان يقتضى بالضرورة أن تكون هذه المدن الناشئة هى الحليف القوى والطبيعى للملوك فى هذا الصراع [٩٠] ولم يحاول هؤلاء الأباطرة أن يتعلموا شيئا من تجربة هنرى الرابع فى أيامه الأخيرة عندما بقيت هذه المدن على ولائها له، بعد أن تخلت عنه الكنيسة، وعاداه النبلاء وتمرد عليه حتى ابنه.

ولما كان هنرى "السابع" قد استوعب الأمر بكامله على هذا النحو، ولما كان يعتـــبر نفسه فى المرتبة الأولى ملكا لمانيا أكثر من اهتمامه بأن يكون إمبراطورا رومانـــيا، وهو ماسار على الضد منه كل الخلفاء أوتو الأول، فقد وضع ثقته كاملة فـــى المدن الألمانية التى أعطته هى الأخرى تأييدها المطلق ضد عدوهما المشترك، الأمراء الإكليروسيين والعلمانيين. واستشعر هؤلاء الخطر يأتيهم من جراء السياسة الجديـــدة الـــتى ينسج هنرى خيوطها، مهددا بالضياع كل سلطاتهم ومكاسبهم التى

(89) Thompson & Johnson, op. Cit., p. 430.
(90) Thompson & Johnson, op. Cit., pp. 418 – 419.

حصـــلوا علـــيها خلال السنوات الطوال التى كان التاج الألمانى يعانى فيها أوجاع الضـــعف وآلام التدخل البابوى. ومن ثم أعلنوها ثورة عارمة ضد هنرى والمدن، مما هدد ألمانيا بفوضى حرب أهلية جديدة كانت قد برئت من بعض جراحاتها منذ عشـــرين عاما فقط. واستدعى ذلك قدوم فردريك الثانى على عجل ليقر الأمور فى ألمانـــيا، حيـــث وجد نفسه مسوقا إلى السير فى نفس الدرب الذى اختطه دون تدبر أســـلافه. فـــأقدم علـــى منح الأمراء العلمانيين امتيازات Statutum in favorem Principum (١٢٣١ – ١٢٣٢) حققـــت لهـــم ما كان قد أعطاه لأمراء الاكليروس منذ أثنتى عشرة سنة خلت، فأضحت لهم السيادة كاملة على إجراءات التقاضى فى أقالـــيمهم، وحق إقامة دور سك النقود، واستخدام الطرق والمجارى المائية، واتخاذ الإجـــراءات الـــتى تكفل إغلاق أبواب المدن فى وجه الاقنان الهاربين. بل أن تلك الامتـــيازات قضـــت بـــأن كل القوانين الإدارية الجديدة والضرائب المستحدثة، لا يصـــبح لهـــا الصفة الشرعية إلا بعد استشارة الأمراء العلمانيين أو الكنسيين لهذه الأقالـــيم [٩١] وهكـــذا فـــإن هـــذه الامتيازات التى منحت الآن للأمراء العلمانيين، وقرينـــتها الـــتى ســـبق إغداقهـــا على الاكليروسيين، أدت إلى إتمام كمال التفسخ السياســـى للنســـق الاقطـــاعى فى ألمانيا، وبصفة قانونية. وبهذا ذهب مع الريح سلطان الملك الألمانى.

ويعلـــق المؤرخ الألمانى فردريش هير F. Heer على ذلك، بالنعى على ما ذهـــب إلـــيه الإمـــبراطور فـــردريك الـــثانى معتبرا إياه أستاذ لتوماس الأكوينى Thomas Aquinas فـــى شكه المزمن وريبته تجاه المدن [٩٢]، ففقد فردريك الثانى بذلـــك نصـــيرا قويـــا كان من الممكن أن يقدم له يد العون كاملة فى صراعه ضد الـــبابوية وحلفائهـــا الأمراء فى داخل ألمانيا. ولما لم يكن هنرى الابن راضيا عن

---

(91) Statute of Frderik II in vor of the princes, 1231 – 1232.

(92) Heer, the Medievel history, p. 71.

وانظر أيضا:

Otto freiheer, constitutional Reorganization and reform under the Hohepstaufen, p. 211.

هــذا المــنهج، فقد أقدم على التحالف مع مدن العصبة اللومباردية والمدن الألمانية الــتى وقفــت إلـــى جواره، وأعلن الثورة فى ألمانيا، مما دفع أباه إلى القدوم فى زيارته الأخيرة إلى ألمانيا عام ١٢٣٥، ليخمد هذه الثورة وليقبض على ابنه وينفيه إلى أبوليا Apulia ليظل هناك فى سجنه حتى يأتيه الموت سنة ١٢٤٢ (٩٣).

هكــذا أمست الصورة العامة لألمانيا فى منتصف القرن الثالث عشر حالكة الســواد، فالإمــبراطور مشغول عن بلده بمملكته فى صقلية، والبابوية تسعى حثيثا لــتدمر كل شئ فى صقلية وألمانيا على السواء، وأمراء الدين والدنيا حققوا كل ما تصبو إليه نفوسهم وشهوة السلطان فى صدورهم، وانفصلت بوهيميا لتصبح مملكة مســتقلة، وأتحــد الفرســان التــيوتون مع فرسان ليفونيا Livonia واستولوا على شــواطئ البحر البلطى لتزداد سطوتهم ضد التاج، وإزداد نمو المدن الألمانية مثل ورمــز وميــنز وكولونى وبازل مما قوض دعائم السلطة المركزية. وصدق على الإمــبراطورية الألمانــية ملاحظة المندوب البابوى همبرت Humbert فى مجمع لــيون المنعقد سنة ١٢٧٤ "أنها أمست إلى الضياع quasi ad nihilum لقد أضاع الأباطــرة الألمــان سلطانهم فى ألمانيا بتدخلهم المستمر فى إيطاليا، فأصبحوا كمن يبيع رخيصا ليشترى غاليا (٩٤).

علـــى هذا النحو، فإن انتهاء حكم أسرة الهوهنشتاوفن بإعدام كونرادينو عام ١٢٦٨م- كمــا أســلفنا - أو حتى بوفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠م، يحدد خاتمة حقبة معينة فى تاريخ ألمانيا، فقد ولى الآن زمان الملوك الأقوياء بها وأقبل عصر أمــراء الإقطـــاع. لقد حقق النظام الإقطاعى فى ألمانيا آنذاك انتصارا باهرا، أو

---

(٩٣) يختلف المؤرخون حول وفاته، فيعتقد بعض أنه ضاق ذرعا بعمليات المراقبة المستمرة التى فرضت عليه، فألقى بنفسه من اعلى فمات منتحرا، بينما يرجح آخرون أن اباه قد حرض على قتله، ويدللون على صدق دعواهم بما أقدم عليه القسيس فى عظته عند دفنه حين قرأ آية الكتاب المقدس "ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه" (تكوين ٢٢/١٠). للمزيــد مــن التفاصيــل انظــر:

Scott, op. Cit. p. 288.

(94) Mundy, Europe in the high Middle Ages, pp. 368 – 370.

بعبارة أخرى، لقد فشل الألمان فى التغلب على مشكلة الوحدة السياسية. وكان الاقتناع الثابت لدى المؤرخين الألمان أن السبب الرئيسى فى إخفاق ملوك ألمانيا فى ذلك، هو ضياع جهدهم وطاقاتهم وموارد بلادهم، بل ودماء الألمان أنفسهم جريا وراء أحلام بعيدة المنال عن السيادة على إيطاليا وعالمية الإمبراطورية (٩٥)، وارتسمت علامات الندم على أقلامهم وهم يلومون على ملوك ألمانيا، مبينين أنهم لو قصروا جهدهم على ألمانيا وحدها لحالوا دون تفسخها على هذا النحو ولأمكن تحقيق الاتحاد الألمانى الذى تأخر إلى القرن التاسع عشر قبل ذلك بسبعة قرون أو ربما خمسة على الأقل (٩٦). فلقد ظل ملوك ألمانيا لفترة طويلة بعد تأكد فشل سياسة الأوتويين تجاه الإمبراطورية، يرفضون بعناد الإقرار بفشل هذه السياسة. وبدا لهم جوهريا وجود نوع من الوحدة السياسية، شأن عالم المسيحية عقيديا. ولكن لا ألمانيا ولا إيطاليا غدت إحداهما قوية، إذ أضاع الأباطرة جهودهم عبثا فى حملات عسكرية متتابعة إلى إيطاليا، بدلا من بناء مملكة قوية فوق أراضيهم، وابتعدت الدولتان قصيا عن حسن الإدارة ومركزية السلطة التى تمتعت بهما غيرهما من دول الغرب الأوروبى (٩٧) فبينما كان أشهر معاصرى فردريك الثانى، وهما لويس التاسع ملك فرنسا، وهنرى الثالث ملك انجلترا، أقل منه كفاءة ومقدرة وثقافة، إلا أن كلا منهما ترك دولة تتحو إلى المستقبل، وليست ظلا لماض فقط، بعد أن اهتمت حكومتاهما باحتياجات شعبيهما (٩٨).

لقد حاول ملوك ألمانيا على امتداد قرنين ونصف من الزمان اقتفاء خطى شارلمان أو منافسته، ولكن قليلا منهم هو الذى كان يصلح حتى كى يكون فقط خليفة لأوتو الأول. فمن أجل الإمبراطورية نسى كثير من الأباطرة خلفاء أوتو أنهم ألمان، وفى طريق نضالهم من أجل الإمبراطورية، فشلوا فى تأمين حتى

(95) Thompson & Johnsson, op. Cit., p. 430.

(96) Ibid , 430 – 431.

(97) Strayer & Munro, op. Cit., p. 153.

(98) Ibid. 353.

دوقـيـة (٩٩) بل ليس من المبالغة فى شئ القول أنه لم يكن هناك فى حقيقة الأمر ملـوك لألمانـيا، بـل كـانوا يعـرفون بـالملك الرومانى Rex Romanorum والإمـبراطور الرومانى Imperator Romanorum وليس هناك – على حد تعبير هـنرى بيرين – كلمات لوصف ألمانيا إلا القول أنها ذابت فى الإمبراطورية، بعد أن أهلـك ملوكهـا قواهـم فى تبنى السياسة الإمبراطورية. حقيقة لقد كانوا جميعا ألمانـا، لكـنهم لـم يضعوا أبدا سياسة ألمانية، وكانوا بصفة مستمرة غارقين فى إيطاليا. لقد قدر عليهم أن تتقطع أنفاسهم فى ملاحقة سياستهم التى وضعوها. ومن ثـم أمست ألمانيا ضحية الإمبراطورية (١٠٠) فقد خرجت فى نهاية الأمر ضعيفة إذا مـا قورنـت بانجلترا أو فرنسا، فبينما عمل ملوك الأخيرتين على تركيز سلطتهم المركـزية وتقوية نفوذهم والحد من سلطان الأمراء، وزيادة مساحة أراضى التاج، كان ملوك ألمانيا على العكس من ذلك تماما، إذ حاولوا فرض سيطرتهم وسلطانهم علـى مناطق يختلف أهلوها لسانا وحضارة وأهواء، ودخلوا فى صراع مع المدن اللومباردية والنورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية وظلوا طيلة قرنين هدفا لعداوة لا تـنقطع وتدخل مستمر فى شئونهم من جانب البابوية. وحتى فى هذه الأخيرة كان حـظ الملك الألمانى أسوأ بكثير من قرينيه فى فرنسا وانجلترا، فوليم الفاتح تحدى جـريجورى السـابع، ووليم الأحمر قاوم أنسلم، أما هنرى الرابع وبربار وسا فكانا علـيهما أن يتصارعا مع بابوات يجمعون فى شخصياتهم هلدبراند وأنسلم معا. هذا بالإضـافة إلى أن الكنيسة الألمانية كانت شيئا مخيفا من جراء ممتلكاتها الواسعة، والـتى أغدقهـا عليها الملوك الألمان أنفسهم، بحيث لا يجاريها مطلقا قريناتها فى الدول الأوروبية الأخرى (١٠١).

---

(99) Pirenne, op. cit., p. 140.

(100) Bryce, op. cit., p. 213.

وللمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين وليم الفاتح والبابا جريجورى السابع، انظر Douglas, Wiliam the conqueror, pp. 340 – 341.

وعن وليم الأحمر وانسلم انظر Barlow, op. cit., pp. 156 – 158.

(101) Strayer & Munro, op. Cit., p. 147.

ومـــن الغريب أن هذه النهاية التى آلت إليها كل من انجلترا وفرنسا وألمانيا، إذ خرجــت الأولـــى مـــن النظام الإقطاعى بملكية "دستورية" إذا صح هذا التعبير آنـــذاك، وآل الأمـــر فى الثانية إلى ملكية مستبدة، بينما ودعت ألمانيا دنيا العصور الوســطى ممزقة شر ممزق. نقول أن هذه النهايات لا تتفق مع ماجرى عليه الأمر مـــثلا بعـــد أنهـــيار إمبراطورية شارلمان، فقد كانت ألمانيا أسعد حظا منهما، ففى فرنســا مـــثلا دخلت البلاد فى حرب أهلية لمدة قرن بين أفراد البيت الكارولنجى وأمـــراء بـــاريس، فـــى الوقـــت الذى أقدم فيه الأمراء الألمان على اختيار مليكهم أرنولـــف الحفيد غير الشرعى للويس الألمانى سنة ٨٨٧م، وكونراد دوق فرنكونيا بعـــد وفاة لويس الطفل ٩١١م. ورغم أن هذا أدى إلى إحياء التقليد الجرمانى القديم الخـــاص بحقهـــم فـــى اختيار الزعيم، وقاد إلى تقوية نفوذ النبلاء وأضعاف سلطة الملكـــية علـــى المـــدى الطويل، إلا أن النتيجة المباشرة كانت إعطاء ألمانيا حاكما قويـــــا [١٠٢] وتمثل ذلك بصفة خاصة فى القرنين التاسع والعاشر، وبشكل أساسى زمـــن أوتـــو الأول وســـميه الثانى، بل وأيضا حتى عهد فردريك بربا روسا، إذا اســـتثنينا فـــترة الـــتدخل البابوى السافر فى شئون ألمانيا علىٰ عهود هنرى الرابع ولوثـــر وكونـــراد، فقـــد كانت الملكية الألمانية تقوم فى هذه الفترة على هيراركية عمادهـــا الموظفـــون والدوقات والكونتات والأساقفة ومقدمو الأديرة، يعينهم الملك ويدينـــون لـــه بالولاء، ولكن الأمر أنتهى إلى ملكية تستمد قوتها من مجموعة من الأفصال الإقطاعيين، من غير ذوى الأصول النبيلة، علمانيين وإكليروسيين [١٠٣].

وإلـــى جانـــب هـــذه النـــتائج المدمـــرة الـــتى أفرزها الصراع بين البابا والإمـــبراطور مـــن ناحية، وهذا والأمراء من الثانية كانت هناك كارثة ثقافية هى فقدان ألمانيا للزعامة الفكرية فى غرب أوروبا .. ففى سنة ١٠٥٠م كانت الاديرة

---

(102) Ch. Brooke, Europe in the Central M. Ages, p. 157.

(103) Cantor, op. cit., pp. 303 – 304. De Wulf, Philosophy and Civilzation in the Middle Ages, pp, 281 – 283.

الألمانية مراكز للتعليم والفن كما كانت مدارس اللاهوت والقانون الكنسي الألمانية لا تـبارى فـي أى مكـان آخـر فـي أوروبـا. غير أن الحرب الأهلية الطويلة والمـنازعات الشرسة بين الكنيسة والدولة استنزفت طاقة الكنيسة الألمانية وحولت اتجاهها، بحيث أصـبح الاكليروس مثابرا على تأليف المقالات عن العلاقة بين الدولـة والكنيسـة، وتجاهلوا التقدم الهائل فى الفلسفة والقانون والأدب والفن الذى كـان يجـرى خلال الفترة نفسها غرب الراين وجنوب الألب. وهكذا تخلفت الحياة الفكـرية فـي ألمانيا عن عصرها، ثم ما لبث أن باتت متأخرة وعتيقة (١٠٤). بينما عكف العلماء الفرنسيون والإيطاليون على خلق مؤسسة جديدة للفكر الراقى والتعليم العالى، وهى المؤسسة التى قدر لها أن تلعب الدور الرئيسى فى الحياة الفكرية فى العصـور الوسـطى العالـية. فى الوقت الذى لم تقم فيه فى ألمانيا جامعة من هذا الـنوع قـبل القرن الرابع عشر (١٠٥) بل أن فردريك الثانى نفسه عندما أقدم على إنشـاء جامعة، أقامها فى نابولى ولم ينشئها فى ألمانيا. لقد تخلف الألمان ثقافيا كما تخلفـوا سياسيا خلال النزاع على التقليد العلمانى والسيادة العلمانية وأنغماسهم فى المشكلة الإيطالية، ولم يستعيدوا مكانتهم أبدا على الأقل خلال العصور الوسطى.

وهكـذا يمكن القول أن ألمانيا منذ نهاية القرن الثانى عشر لم تعد تلعب إلا دورا تافها لا قيمة له على الإطلاق فى السياسة الأوروبية، رغم أنها تحتل مساحة شاسـعة جدا على الخريطة الأوروبية، حيث امتدت من المستعمرات الألمانية على الألـب الأدنى حتى نهر نيمن Niemen بحيث جاورت البحر من ناحية والصقالبة مـن ناحية أخرى فى روسيا وبولندا (١٠٦) بل إن بعض المؤرخين يذهبون إلى أبعد

(104) Cantor, op. cit., pp. 303 – 304.

De Wulf, Philosophy and Civilzation in the Middle Ages, pp, 281 – 283.

(105) Cantor, op. cit., p. 304.

(106) Pirenne, op. cit., p. 331.

مـن ذلك عندما يعتبرون سنة ١٠٥٦ عندما توفى هنرى الثالث، العام الذى لم تعد فيه ألمانيا الحقيقة الرئيسية فى التاريخ الأوروبى (١٠٧).

لقـد كانـت إيطالـيا جرحا داميا فى جسم ألمانيا، ظل ينزف طيلة العصور الوسـطى حـتى أعياد ذلك الجسد، فأمسى شاحبا إلى ذبول، وتكاثفت عليه مباضع الجراحيـن تحـاول أن تجد له طبيبا شافيا وعلاجا ناجعا، لكن الداء قد تأصل فى مباضع الجراحين أنفسهم، أعنى أباطرة ألمانيا - الذين استمرءوا .. رغم - الفشل الـذى لاحقهـم ــ لعـبة التدخل فى المشكلة الإيطالية، فساقوا دولتهم إلى التفكك والانحلال الذى لم تبرأ منه، وإيطاليا هى الأخرى إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

(107) Strayer & Munro, op. cit., p. 161.

الفصل الرابع

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب

وصفت ألمانيا في القرن السابع عشر؛ بأنها "فوضى شاءتها العناية الإلهية"! وما ذلك القول عن إدراك الدراسين لتاريخ ألمانيا ببعيد ولا غلواء فيه ولا غرابة؛ فقد تشكلت ألمانيا آنذاك مما يزيد عن ثلاثمائة دويلة وكيان سياسي!.

فعلى الحدود الغربية عند الراين لا نجد إلا أطلالا لولايات كانت تعد في الماضي هامة، مثل بادن وورتمبرج .. أما الألزاس واللورين فقد وقعتا في قبضة الفرنسيين منذ أواخر القرن ذاك. على حين تبدت الفوضى بعينها في الولايات الكنسية الواقعة على الراين أو بالقرب منه، حيث كان رجال الاكليروس يمارسون حكما يفتقر تمامًا إلى الكفاية والاقتدار، ويفسح الطريق في يسر وسهولة أمام ضربات الجيران الأقوياء بينما كان الشرق يبدو متماسكًا وعلى قدر من القوة، متمثلاً في هانوفر وسكسونيا، وإلى الجنوب عند أعالي الدانوب توجد بافاريا، الشديدة التمسك بكاثوليكيتها، والتي تملكتها الغيرة الشديدة من جارتها الشمالية القوية، بروسيا.

على هذا النحو كانت ألمانيا – أو بتعبير أدق – ما يسمى ألمانيا في القرن السابع عشر، وباتت كذلك أيضًا على امتداد القرن الثامن عشر، خليطًا غريبًا يجمع بين دول كبرى ودويلات صغرى، علمانية وكنسية، حرة واستبدادية، ولم يكن ثمة فوق هذا الخليط المتلاطم سلطة فعالة على الإطلاق؛ فالإمبراطور كان اسمًا كبيرًا فحسب، والإمبراطورية كانت كيانًا شرفيًا، لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الأمور، ذلك أن السلطة الحقيقية لم تكن تمثل في الإمبرطورية ككل، وإنما في أجزائها المختلفة، وفي حكام الدويلات التي تتكون منها الإمبراطورية، مثل النمسا وبروسيا وبافاريا وهانوفر وسكسونيا وغيرها وهكذا كانت ألمانيا في مجموعها

وفـــى أجزائها، تعانى من التفسخ السياسى، وتعجز بل وربما ترغب عن إبداء أية مقاومـــة جديـــة فعالة تجاه نوايا جارتها القوية الطامعة .. فرنسا حتى نعتها فولتير بســـخريته اللاذعـــة بأنها "ليست إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة" وإن كان ما يعنينا هنا الآن فقط الشق الأول من هذا النعت "الثلاثى" أعنى الإمبراطورية.

غـــير أن الـــذى يدعـــو للعجـــب والإعجاب فى الوقت نفسه، أنه رغم هذه الفوضـــى السياســـية الضـــارية أطنابها فى ألمانيا، إلا أن النصف الثانى من القرن الثامـــن عشر، شاهد ازدهارًا رائعًا للفكر والفن الألمانيين؛ فقد ظهرت منذ منتصف القـــرن حـــركة بعث قومى عظيمة فى هذين المجالين، كان المساهمون الرئيسيون فـــيها "لسنج" Lessing و "جوته" Goethe و "شيلر" و "كانت" Kant وفى الموسيقى رفـــع خلفـــاء "بـــاخ" الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم "هايدن" و موازرت و "بيتهوفـــن" رأس البلاد التى تتحدث الألمانية عاليا فى أوروبا ولا شك أن ما أبدعه هـــؤلاء المفكـــرون والفـــنانون يقف على النقيض من الضعف السياسى للدويلات الألمانية فى تلك الفترة.

وفى آخر سنى القرن الثامن عشر، فى أعقاب الحرب التى نشبت بين فرنسا الـــثورة، وألمانيا، وانتهت بهزيمة الأخيرة وانسحاب كل من بروسيا والنمسا وعقد صلحين منفردين فى عامى ١٧٩٥، ١٧٩٧ على التوالى ثم فرض تسوية من جانب فرنســـا وحليفتها روسيا، أمليت فيها شروطهما وعقدتا المعاهدات مع كل دولة على حـــدة، وانتهى الأمر فى فبراير ١٨٠٣ بقبول الريشستاغ الألمانى لهذه التسوية التى غـــيرت إلـــى حد كبير وجه الخريطة الألمانية؛ فقد اختفت من الوجود مائتا واثنتا عشـــر دويلـــة ابتلعـــتها جاراتها الكبيرة وتوارى تمامًا معظم فرسان الإمبراطور وجميع المدن الإمبراطورية عدا ست منها، وأزيلت الولايات الكنسية باستثناء مينز، وإن كان قد بقى الفرسان التيوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت.

لـــم يمض على ذلك أكثر من ثلاث سنوات، حتى أقدم الإمبراطور الفرنسى نابليون، والذى كان قد بلغ أوج مجده آنذاك، على اتخاذ قرار من جانبه بقيام اتحاد

الراين، ودعا حكام ألمانيا لإعلان انضمامهم أو رفضهم فى غضون أربع وعشرين ساعة.

وكان هذا التنظيم يقوم على أساس إنشاء اتحاد من بعض الدول Confederation لا قيام دولة اتحادية وفى السادس من أغسطس ١٨٠٦ أعلن الإمبراطور فرنسوا الأول تخليه عن اللقب الإمبراطورى القديم، فانتهت بذلك الإمبراطورية الألمانية، أو ما ذاع فى التاريخ باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة!.

غير أن هذا الاتحاد الممسوخ، الذى قصد به أساسًا فرض الحماية الفرنسية على ألمانيا، لم يقدر له أن يعمر طويلاً، إذ سرعان ما انحل بزوال سلطان نابليون، ولم يكن "الاتحاد" الذى رسمه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بأحسن حظًا من قرينه، وإن كان العدد الإجمالى للدويلات الألمانية الداخلة فى هذا "الاتحاد" الأخير بعبارة أدق، هذا "المجمع" أو "الديت" Diet قد هبط إلى تسع وثلاثين، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها، وأن تمنع وحدها أجازة وتنفيذ لكل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدى، وباختصار لم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة فى هذا "الديت" ولا شك كانت العلة الكبرى لهذه المحنة ناجمة عن اختلاف الألمان أنفسهم فيما بينهم فى رسم خطة إنشائية لمستقبل بلادهم. فالبعض منهم يصبو إلى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا، والبعض الآخر يرمى إلى دولة ألمانية تدين بالولاء للتاج النمساوى وثالث يروم اتحادا تعاهديًا تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الصغرى، أن تكون فرقًا متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها. وهكذا لاحت ألمانيا كأنها تتحرك وتسير فى ضباب فلسفى، أو كما وصفها المؤرخ الفرنسى ميشليه Michelet بأنها "آسية أوروبا"!.

ولا شك كانت فرنسا والنمسا هما أكثر الدول الأوروبية إفادة من هذا الوضع المتردى فى ألمانيا؛ الأولى ضمنت عدم قيام دولة قوية على حدودها الشرقية، والثانية اطمأنت إلى سيادتها على هذه المنطقة، وكان هذا مما آذى مشاعر الألمان؛

خاصـــة وأن النمســا لــم تكن من قبل سوى دوقية أوستريا Austria التي تشكلت بصـــورة رســمية فــي منتصف القرن الثاني عشر على يد فردريك بربار وسا[1] Frederick Barbarossa وكــان هــذا دافعــا لبروسيا، ذات الطبيعة الاسبرطية، العســكرية، والتي وجدت في التآلف بين فرنسا والنمسا اعتداء على حقوق كانت تدعــيها بالــزعامة، كــي تتحين الفرصة السانحة لتأكيد زعامتها تلك، وساعدتها الظروف بتولي بسمارك Bismarck منصب المستشارية فيها.

وعبر أحداث طويلة وجهود مضنية بذلها الرجل، ولا مكان هنا لذكرها، كان يهدف بها أساسًا إلى توحيد ألمانيا بزعامة بروسيا، خاض حربين حاسمتين الأولى ضــد النمســا فــي عام ١٨٦٦ تمكن على أثرها في العام التالي من توحيد شمالي ألمانــيا، والثانــية ســنة ١٨٧٠ ضــد فرنسا، وهي التي ذاعت شهرتها بالحرب الســبعينية، تمخضــت عن قيام الاتحاد الألماني، أو الإمبراطورية الألمانية، وعلى الــرغم مــن ذلك، فــإن الذي يعنينا، أنه رغم وجود أناس عديدين رأوا أن الوقت مناســب لإقامة دولة مركزية قوية في ألمانيا فإن بسمارك لم يكن واحدا منهم! فقد كان يردد دائمًا "أننا لا نروم أن تنضم إلينا بافاريا هي غير راضية، بل نبتغي دولة تنضــم إلينا بملء اختيارها وحريتها" ويدرك أن هذه "للذاتية" المتمثلة بوضوح في الدويــلات الألمانــية تضرب في الأرض بجذورها وصولا إلى العصور الوسطى وعــبر عــن ذلك صراحة بقوله: "أن السلطة المطلقة للأمراء كانت اكتسابًا جذرياً تحقق على حساب الدولة ووحدتها"[2].

ومن هنا كان سلوكه تجاه الدول الألمانية في الجنوب بعد الحرب السبعينية؛ لكــي يجعلها تقبل على الاتحاد وهي راضية وفيما يتعلق ببافاريا بصفة خاصة كان علــى لســتعداد أن يمنحها حقوقًا واسعة كالهيمنة على جيشها أيام السلم، واسماع صوتها في الشئون الخارجية، وتخويلها نظامًا مستقلاً للبريد والتلغراف. وهذه كلها

(1) Thompson and Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 394.

(2) Mayer, The historical foundations of the German Constitution, p. 30

تمثل بشيء من التفاوت بمقتضى التطور التاريخي، حقوق الأمراء الألمان في العصور الوسطى وليس ثمة ما هو أدل على حكمته ونفاذ بصيرته من أن ملك بافاريا رضى أن يضع بنفسه التاج الإمبراطوري على مفرق وليم الأول ملك بروسيا في حفل تتويجه إمبراطورًا على ألمانيا وإن يكن الدستور الألماني الجديد الذي صدر في عام ١٨٧٣ قد جاء مؤكدا "الذاتية" أو روح "الانفصالية" الكامنة في الأرض الألمانية، بل لقد دعى رئيس الاتحاد أو الإمبراطور القيصر الألماني وليس قيصر ألمانيا وتلك لها مغزاها العميق الدال على حقيقة الاتحاد ولم يكن "القيصر" يستمد سلطته من كونه "رئيسًا للاتحاد الألماني"، بل من كونه ملكًا على بروسيا لقد كان الأمر – على حد تعبير المؤرخين: جرانت Grant وتمبرلى Temperley "أشبه بشرذمة من الحيوانات المنتظمة في سرب الصيد يتصدرها جميعًا ذئب رمادي ضخم هو بروسيا يجرى في أعقابه أبناء آوى من أمثال بافاريا وسكسونيا وفرتمبرج ويسير في ركابه خمسة وثلاثون حيوانًا أصغر، تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة".

بل إن الحال حتى ثلاثينيات القرن العشرين، لم تختلف كثيرًا عنها في القرون التي سبقتها إلى قلب العصور الوسطى، عندما علت من جديد نغمة "الانفصالية" بين الفيدراليين وأنصار الدولة الموحدة، وانصبت الاتهامات على رأس مؤسس الاتحاد الألماني في القرن التاسع عشر وعلى بروسيا. مما دفع الزعيم النازي هتلر أن يكتب في كتابه "كفاحي" مدافعا عن سلفه بسمارك، مؤكدا أن الرجل كان يعلم يقينا حقيقة النزعات الانفصالية في دويلات ألمانيا ودويلاتها آنذاك، وأنه "أحل هذه الحقائق محلها من التقدير، فجعل تمثيل دول الاتحاد في مجلس "البوندسرات" متناسبًا وأهمية كل منها، ولزم جانب الحكمة والاعتدال في تعزيز سلطة الاتحاد على حساب الدويلات التي يتألف منها، فما أخذ منها إلا ما كان الاتحاد بحاجة ماسة إليه، وحرص في الوقت نفسه على احترام العادات والتقاليد المحلية .. لقد آثر المستشار الحديدي مداراة الدويلات الألمانية تاركًا للزمن أن

يكمل ما بدأه هو؛ لأن الطفرة غير مأمونة العواقب، فدلل بهذا النهج القويم على بعد نظره وسلامة منطقه"(٣).

والباحث فى تاريخ ألمانيا عبر هذه القرون الطوال من ماضيها إلى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين يجد نفسه مواجهاً بعلامة استفهام كبيرة .. كيف وصل الحال بألمانيا حتى أوليات هذا القرن إلى تلك الحالة من الاعتزاز بـ"الذاتية" أو حتى "الانفصالية"، والتى صدق عليها قول المؤرخ طومسون: "أن ألفا من السنين ويزيد قد شهد محاولات جادة أخرى لإضعاف ولاء الألمانى تجاه نزعته القبلية فالبافارى أو السكسونى كان يميل دائمًا إلى اعتبار نفسه هكذا على أن تدعوه ببساطة ألمانيا"(٤).

والذى يزيد الأمر حيرة أنه فى الوقت الذى بدت فيه فرنسا وبريطانيا فى القرن العاشر الميلادى ملكيات مهلهلة، كانت ألمانيا تشكل أقوى دولة أوروبية آنذاك، لكن ما لبث أن تبدل الحال، فما أن وافى القرن الثالث عشر، حتى خرجت فرنسا من تجربتها الإقطاعية ملكية قوية، الملك فيها صاحب السلطة المطلقة. بينما أفلح النظام فى إنجلترا، والمنقول من أرض القارة بصورة منتقاة على يد وليم الفاتح النورمانى وخلفائه الأنجويين فى إخراج ملكية قوية مقيدة، أو بتعبير حديث..

---

(٣) للوقوف عل تفاصيل هذه الأحداث، والحال التى آلت إليه ألمانيا عبر هذه القرون من الثامن عشر حتى العشرين، والتى عرضنا لها فى هذه الصفحات السالفة فى إيجاز شديد، كنتيجة حتمية، ومقدمة طبيعية لألمانيا العصور الوسطى، يمكن الرجوع إلى هذه الكتب:

بول هازار، الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر، جزءان ترجمة محمد غلاب، القاهرة ١٩٥٨-١٩٥٩؛ بيير رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥-١٩١٤، ترجمة جلال يحيى - القاهرة بدون تاريخ؛ جرانت وتمبرلى، تاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين، جزءان: الجزء الأول ترجمة بهاء فهمى، القاهرة بدون تاريخ؛ فيشر، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠ - القاهرة ١٩٥٨؛ هتلر، كفاحى، ترجمة لويس الحاج - بيروت ١٩٦٨؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣. ومن الجدير بالذكر أن مجموعة من فلاحى بافاريا شاركت بحماس فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وهم يعتقدون أنهم ذاهبون لحرب أعدائهم القدامى. البروسيين! راجع :

Thompson and Johnson, op. Cit., p.353.

(4) Thompson and Johnson, op. Cit., 353.

دستورية منذ صدر العهد الأعظم فى عام ١٢١٥ هذا على حين أمست ألمانية ملكية ممزقة، تتقاذف سفينتها أنواء طموحات أمراء الإقطاع من العلمانيين والاكليروسيين على السواء، هذا على الرغم من أن السمات العامة للنظام الإقطاعى الأوروبى فى العصور الوسطى كانت واحدة، متمثلة فى انحلال السلطة المركزية لحساب السلطات المحلية، من جميع النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية(٥).

هذه التساؤلات التى تطرح نفسها الآن، تدفعنا إلى أن نعود بفكرنا إلى ذلك التاريخ البعيد، وعلى وجه التحديد عام ٩١١عندما انتهت سلالة البيت الكارولنجى الحاكم فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية الكارولنجية ألمانيا، بوفاة لويس الطفل هنا وجد الأمراء الألمان أمام اختيارين لا ثالث لهما، أما الالتجاء إلى فرع الأسرة الآخر فى فرنسا، وأما العودة إلى التقليد الجرمانى القبلى القديم باختيار مليكهم، ولما كان الملوك من أسرة شارلمان، لم يحققوا لألمانيا خلال نصف القرن الأخير أو يزيد، الحماية ضد أعدائها الخارجيين، الذين استباحوها من الشمال والشرق(٦)،

---

(٥) للمزيد من التفاصيل من السمات الإقطاعية للمجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى يمكن الرجوع إلى الكتب التالية :

H. Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 58-66;

G. A. Hodgett, A Social and economic history of Medieval Europe, pp.24-35;

F. Ganchof, Feudalism Hong Kong 1976;

Stephenson, Mediaval History, pp. 199-241; P. Vinogradoff, Feudalism, (in C.M.H. Vol. III, pp. 458-484)

وله أيضًا بالاشتراك مع الأستاذ كوبلاند، الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا، ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٨ وللأستاذ كوبلاند كذلك. الفنية والإقطاعية (مقال فى تاريخ العالم الذى أشرف على نشره السير جون، هامرتن، المجلد الخامس، ص٣-٢٢؛ اسحق عبيد: الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع، بيروت ١٩٧٥؛ سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جـ٢ ص٤٣-٨٨؛ إبراهيم العدوى: المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى، ص١١١-١٢٦. أما عن النظام الإقطاعى فى إنجلترا فيمكن الرجوع إلى:

F. Barlow, The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London 1974; D. Douglas, William the conqueror, London, 1969.

(6) Barraclough, The Origins of Modern Germany, pp.15-19.

فقد آثروا أتباع الطريق الأخير، ورغبوا فى أن يختاروا أوتو Otto دوق سكسونيا القوى ملكًا عليهم، غير أن الرجل اعتذر لتقديم به، ورشح لهم قرينة كونراد Conrad دوق فرنكونيا Franconia فتم اختياره بلا معارضة. فأصبح كونراد الأول بذلك أول ملك ألمانى، جرى تنصيبه بأيدى الأمراء(٧).

هذه الحادثة تمثل نقطة فاصلة فى تاريخ ألمانيا، فالملك الجديد لم يكن بمقدوره ادعاء أنه ينحدر من الأسرة الكارولنجية، ولم يكن باستطاعته إنكار أنه تم رفعه على العرش الألمانى بيد أقران له، لا يقلون عنه مكانه أو مرتبة .. بتعبير آخر، هم الذين صنعوه ملكًا، من هذا المنطلق وبمقتضى هذه الخلفية وراء كل من الجانبين تحددت العلاقة الجديدة بين الملك والأمراء فى ألمانيا ورسمت الخطوط الغائرة فى جبهة التاريخ الألمانى تمثل صراعًا مريرًا بين هؤلاء وبينه، بتعبير أدق.. بين الملك بحرصه ودفاعه المستميت فى سبيل إقرار حقه فى تعيين خليفته على العرش من بين أبنائه أو أفراد أسرته، أى جعل الملكية وراثية، يستمد منها بمقتضى حق الإرث سلطانه وقوته، والأمراء باستمساكهم بكل صلابة وعناد بحقهم فى اختيار الملك من واقع ممارستهم له الآن (٩١١)، وامتدادًا لتقليد جرمانى قبلى كان لدى الأجداد قائمًا، وحرصًا على تحقيق ذواتهم ومطامحهم.

ومن ثم لم يكن غريبًا أن يطفو ذلك على السطح منذ الوهلة الأولى لممارسة هذه التجربة؛ إذ راح كونراد على الفور يبذل قصارى جهده لتثبيت سلطانه كملك على الأدواق، وتدعيم نفوذه فى الداخل، لكن الخطأ الذى ارتكبه كونراد، أنه وضع هذا الهدف نصب عينيه دون أن يسلك الدرب الصحيح بلوغًا إلى تحقيقه، فبدلاً من قيادة الجهود الألمانية بنجاح ضد المجيار والصقالبة والدانيين، ترك كل دوقية تتعامل مع الغزاة بطريقتها الخاصة(٨)، ما دامت فرنكونيا بعيدة عن متناول أيديهم فبدا فى أعين الأدواق كما لو كان حاكمًا لدوقية وليس ملكًا(٩). بل أن مغامراته

(7) Schmediler, Franconia's place in the Structure of Medieval Germany, p.80.

(8) Scott, Medieval Europe, p.61.

(9) Brooke, A hsitory of Europe, p.21; C.M.H. III,. P.69.

الخارجية وجهت أساسًا لقهر اللورين لسلطانه، وحتى هذه فقد فشل فيها(١٠). وزاد الأمر سوءًا، أنه بغية توطيد سلطانه، اعتمد بصفة أساسية على الكنيسة يدفعه إلى ذلك ما ارتآه في نفسه وعلاقاته المطردة سوءًا مع الأمراء فهو باعتباره دوقاً لفرنكونيا لا يستطيع أن يمد سلطانه – كعلمانى – خارج حدود دوقيته في ظل هذه الظروف التى تحيط به، أما باعتماده على رجال الاكليروس يصبح ممكنًا ممارسة سلطة أوسع نسبيًا عبر ألمانيا. ومن هنا ألقى بحظه كله دفعة واحدة فى كف الكنيسة ممثلة فى أساقفة مينز Mainz وكونستانس Constance وسالزبورج Salzburg.. خاصة وأن الأخيرين على الأقل كانا فى عداء مع دوقى منطقتيهما.

ولما كان العاقل، على حد تعبير المؤرخ سكوت M. Scott هو الذى يتأكد من أنه لن يستطيع أن يستغنى عن عون أولئك الذين هو نفسه لهم بالتاج الذى يضعه على مفرقه، فقد كان طبيعيًا فشل سياسة كونراد الأول فشلاً ذريعًا، تلك التى لم يجن من ورائها إلا سخط الأمراء العلمانيين الذين وضعوا أنفسهم على هذا النحو منذ البداية فى مواجهة التاج، إلى الحد الذى دفع أوتو دوق سكسونيا الذى لعب الدور الأساسى فى اختيار كونراد ملكًا، إلى التخلى عنه وهجر جانبه بل وتحديه، وفعل الأدواق الآخرون مثل فعله، ووجهوا طاقاتهم لتدعيم نفوذهم المحلى فى دوقياتهم، وإثبات ذواتهم وسلطانهم بين أناسهم الذين يحكمونهم، وتحويل ولاء هؤلاء إليهم شخصيًا، فراحوا بذلك يبنون حول شخصياتهم نوعًا من الهيراركية وما أن وافى عام ٩١٨ حتى أصبحوا قوة يحسب حسابها فى دوقياتهم، وأضحت هذه تشبه ممالك صغيرة، وأمسى كونراد قبل أن يوافيه أجله فى العام نفسه، ملكًا إسميًا فقط، بل حتى دوقًا فاشلاً لفرنكونيا ذاتها(١١). ولكنه كان يدرك أن خير من يضمن لسياسته النجاح فى مواجهة تحديات الأمراء خصمه اللدود هنرى دوق سكسونيا، ولذا جاءت آخر كلماته وهو على فراش الموت: "أن مستقبل المملكة معلق بالسكسون"(١٢)، ولهذا أيضًا جاءت توصيته باختيار هنرى خلفا له، وللمرة الثانية

(10) Scott, op. Cit., p.61.
(11) Barraclough, op, cit., p.22; Scott, op. Cit., p.63.
(12) C.M.H. Vol. III, p.174.

خلال جيل واحد، مارس الأمراء تقليدهم الجرماني باختيار الملك، وعلى الرغم من أنــه لم يشترك في اختيار هنري غير أمراء سكسونيا وفرنكونيا، ألا أن هنري بذل جهــودًا مضنية عبر جولات من الصراع والمفاوضات لفرض سلطان الملكية على الأدواق الآخرين(١٣).

وعلــى هــذه الصورة بدت الملكية الألمانية – كما جاء على لسان المؤرخ جيســبرخت Giesebrecht اتحادًا فيدراليًا من ولايات متعددة، قاد إليه ذلك المفهوم الفــرنجي عــن الملكية، والفكرة الجرمانية القديمة عن الاتحاد الحر، والتي من خــلال الاتحاد "القبلي" لكل منها، أدت إلى علاقات تدعيم سيادة أسرة بعينها، بحيث يمكن أن نسمي ذلك فيدراليًا وأصبحت المشكلة قائمة في التساؤل حول.. هل يؤدي ذلك إلى أن يقود التنظيم الجرماني إلى إقامة نظام فيدرالي حقيقي؟ أو إحياء الملكية الفرنجــية؟ وهــذا بــالفعل مــا تبدى لهنري الأول، بحيث تمكن بشئ من العنف والإدراك الواقعــي، أن يحقــق كســبًا معينًا من أجل سيادة دوقيته، تاركًا المستقبل لشأنه(١٤).

هكــذا .. وعلى امتداد ثلاثة قرون قادمة، شهدت ألمانيا صراعًا طويلاً بين ســلطان التاج وسلطات الأمراء، خفيًا حينًا، سافرًا أحايين كثيرة، كل يسعى لتدعيم نفــوذه، وتأكيد ادعاءاته، في ملكية وراثية شأن الممالك الأوروبية الأخرى خاصة فــي إنجلــترا وفرنســا، أو ملكــية انتخابية، الملك فيها ليس إلا الأول بين أقرانه Primus inter pares، ممــا طــبع تــاريخ ألمانيا كله حتى سنيها المعاصرة بهذه الــنزعة "الانفصــالية" العمــيقة الجذور في تربتها أرضًا وسكانًا ولا شك أن هناك عوامــل مــتعددة، متباينة تكاتفت كلها لتعمل سويًا على تعميق هذا الاتجاه "القبلي" أو"الانفصالي" بين الدوقيات الألمانية.

---

(١٣) قــاد هنري الأول حملة لاكراه أرنولف دوق بافاريا على الخضوع له، ولم تخضع له اللورين إلا في عام ٩٢٥. راجع : C.M.H. Vol. III, p.179-180.

(14) Joachimsen, The investiture contest and the German constitution, p.97.

يتساءل الجغرافيون .. ما هى ألمانيا؟ ويجيبون .. هى كما يعرفها القوميون الألمـــان "وطن الألمان" Deutchland وهذا الوطن لم يتحد فى دولة واحدة إلا منذ عــام ١٨٧١ وهو يتسع ليشمل غربا الألزاس واللورين، ويمتد شرقًا ليحاذى ساحل البحر البلطى فالسهل الألمانى جزء من سهل أوروبى أعظم يمتد عبر شرق أوروبا فبولــندة فألمانيا حتى هولندا، وكذلك المرتفعات الهرسينية جزء من إقليم جيولوجى أكــبر وهكذا إذ أن النطاقات الطبيعية فى وسط أوروبا نطاقات شرقية غربية، بينما ألمانـــيا تقطـــع هذه النطاقات من الشمال إلى الجنوب وأبسط التقاسيم التضاريسية لألمانـــيا تنحصــــر فـــى إقليمين .. القسم الشمالى السهلى المنبسط، والقسم الجنوبى المرتفع، المكون من هضاب قديمة وأحواض داخلية وإذا رسم خط متعرج من آخن فـــى الغرب إلى هانوفر وليبزج وجورلتز على نهر نيسى Neisse فإنه يفصل بين هذيـــن القســـمين التضاريسيين لألمانيا فشمال هذا الخط تمتد السهول الشمالية التى تعتـــبر جزءًا من السهل الأوروبى الأعظم، مموج السطح، ينحدر انحدارا تدريجيًا نحو بحر الشمال، ولا يزيد ارتفاع الأرض فيه عن سبعمائة قدم، بينما يزيد ارتفاع الجـــزء الجنوبى عن هذا القدر. بل أن القسم الشمالى السهل ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقســام رئيســية؛ غـــرب نهر الب Elbe وهو سهل صغير تنحدر أنهاره نحو بحر الشـــمال، وشرق نهر الب وهو أكثر اتساعًا وينقسم بدوره إلى عدة أقسام صغرى، وتجرى أنهار نحو البحر البلطى، ثم منطقة انتقالية بين السهل والجبل، متداخلة فى الإقلـــيم الجنوبى لألمانيا، الذى تجرى أنهاره هو الآخر نحو الشرق أو الغرب[١٥]. يضـــاف إلى هذا عامل على جانب كبير من الأهمية، هو عدم وجود حدود طبيعية منـــيعة تحيط بالوطن الألمانى الأصلى، ومن ثم لم تظهر فكرة الحدود الطبيعية فى ألمانـــيا، لأن ألمانيا لم تقترن فى ذهن الألمانى، منذ القرون الأولى للميلاد، بوطن معيـــن ذى حـــدود طبيعية، هذا على عكس الحال فى فرنسا تمامًا[١٦]. وتلك نقطة

---

(١٥) للمزيد من التفاصيل عن هذه النواحى – انظر: دولت صادق، جغرافية العالم، دراسة إقليمية، الجزء الأول، ص٤٧٤–٤٨٥.

(١٦) دولت صادق ومحمد السيد غلاب، الجغرافية السياسية، ص٢٤٠–٢٤١.

جديرة بالأهمية يوليها أصحاب النظريات السياسية اهتمامًا خاصًا، ويعتبرونها ركنًا أساسيًا من أركان قيام الدولة(١٧).

هـذه الطبيعة الجغرافية المتفاوتة، واختفاء الحدود الطبيعية، فرضت نفسها علـى الألمـان بصورة واضحة، فى التنافر الظاهر بين سكان هذه المناطق وتلك، وسـاعد علـى التـباعد جريان الأنهار من القلب إلى الأطراف هنا وهناك، فجذب الـناس بتجارتهم من المركز، الذى لم يكن له وجود أصلاً، كجزيرة فرنسا Ile de France وبـاريس فى وسطها إلى الأطراف، كل يسعى بتجارته حسب تيار النهر. وكـان هـذا عاملاً هامًا فى ازدياد هوة "الانفصالية" فى ألمانيا. فإذا أضفنا إلى ذلك عنصـرًا آخر خاصًا بالتكوين البشرى، أدركنا مدى عمق هذه النزعة. فبينما كان اندماج العناصر السكانية يسير فى فرنسا بصورة سريعة جدًا، كان فى ألمانيا على العكس من ذلك، حيث كانت القبائل المنفصلة عن بعضها قد بقيت لها قوتها وكيانها كوحدات عرقية قوية(١٨)، وحيث كان الاتجاه القبلى فى ألمانيا قويًا يتمثل فى إقامة وحدات سياسية ألمانية على أساس قبلى(١٩)؛ ذلك أن ألمانيا مع نهاية القرن العاشر، كانـت مقسـمة إلى خمس دوقيات كبيرة؛ لوثارنجيا، سكسونيا، بافاريا، فرنكونيا، وسـوابيا، تـتفق حدود الأربع الأخيرة تمامًا مع تجمعات القبائل الجرمانية القديمة: السكسـون والبافاريين والفرنجة والألیمانى وراحت هذه السلالات الجرمانية تدعم قوتهـا داخل أراضيها التى تملكتها، وحتى داخل نطاق الإمبراطورية الكارولنجية بصـورة لا تعـرف الملـل. وبينما كانت سكسونيا تحتل فى الشمال بصفة دائمة، مركـزًا مؤثـرًا وحـيويًا فـى الحياة السياسية الانفصالية، كان هناك فى الجنوب

---

(١٧) عـبد الحمـيد متولى، الوجيز فى النظريات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية، ص١٢٤-١٢٨؛ محمد كامل ليلة، النظم السياسية، ص١٩-٤٠ وأيضًا : هارولد لاسكى، أصول السياسة، الجزء الأول ص٥-٣٩ ومـن الجديـر بالملاحظـة أن النظرية الألمانية من الدولة التى تأثرت إلى حد كبير جدًا بـالواقع الألمـانى، حيث ترى أن العبرة فى قيام الدولة هى وجود حكومة تملك سلطة إصدار أوامر ملـزمة فـى قدر معين من الشئون المتصلة بنظام الحكم، ولو لو تكن لها السيادة بالمعنى المطلق فى تلك الشئون كافة وهى نظرية لم تلق أى قبول انظر، محمد كامل ليله، المرجع السابق، ص٤١-٤٢.

(18) Mayer, op. cit., p.8 .

(19) Strayer and Munro. The Middle Ages, p.148.

مركـزان كبـيران همـا سوابيا وبافاريا اللتان خضعتا لمملكة الفرنجة بعد مقاومة عنيفة، ولكنهما مع ذلك بقيتا كيانين مستقلين ولا نجد تعبيرًا أدق وصفًا لحالة التنافر بين هذين العنصرين، أفضل مما يذكره المؤرخ الألماني "شميدلر" Schmeidler (٢٠) فـي قولـه: "قلمـا تجـد بيـن قبيلتين ألمانيتين من الكراهية، ما تجده السوابيين والبافاريين. لقـد راح العـداء بينهما يزداد نموا واضطرادا، ويتمثل في مظاهر واضـحة أبـرزها العداء بين الولفيين والهوهنشتاوفن Hohenstaufens فمع نهاية القـرن الحـادى عشر كان الولفيون هم البافاريين، والهوهنشتاوفن هم السوابيين، وخلـف هذا العداء الأسرى كان يكمن العداء الموروث بين الشعبين وكانت إيطاليا مادة دسمة للشجار بينهما بصفة دائمة.

ولقد حاول شارلمان تذويب هذه العصبية القبلية، غير أن نجاحه كان محدودًا ومؤقتًا، لم يلبث أن ضاع بوفاته ولما كانت فترة النجاح تلك قصيرة شاحبة، لدرجة لـم يكـن ممكنًا معها قهر الشعور القبلى، فقد ازداد هذا الشعور رسوخًا من جراء الضـعف الذى كان عليه خلفاؤه، والذين شغلوا أنفسهم بمشروعات تتسم بالأنانية، وهجروا بالتالى سياسته، ولما بدا عجزهم عن التصدى للهجمات الخارجية واضحًا، أصـبح الجو مهيأ لظهور قوى جديدة تتولى مهمة رد هذه الاعتداءات(٢١). بل لعله ممـا يلفت النظر أن الحكام الكارولنجيين أنفسهم، خلفاء شارلمان، ساعدوا بصورة مباشـرة علـى تعمـيق النزعات القبلية. ففى عام ٨٦٩ قسم لويس الألمانى جيشه بصورة تحمل طابع التفسخ الواضح، فوجه الثورنجيين لحرب الصرب، والبافاريين ضد مورافيا، والسوابيين والفرنكونيين تحت قيادته، ولما كان السكسون قد انشغلوا بالدفاع عن أراضيهم ضد الصقالبة، فقد تحرروا على يد لويس الألمانى من الالتزام بالمشـاركة فـى حملاتـه العسكرية وكان هذا دافعًا لهم كى يركزوا كل جهودهم لحماية الحدود الشرقية(٢٢).

---

(20) Schmeidler, Francia's place in the structure of Medieval Germany, pp.74-5.
(21) Thatcher and McNeal, 8 Source book for Mediaeval history, pp.69-71.
(22) Barraclough, op. Cit., p.19 .

ونتيجة لظروف الغزو هذه التي تعرضت لها ألمانيا، واعتماد الدوقيات على قواها الخاصة في هذا المجال، جاءت نشأة الأدواق نشأة عسكرية، حيث اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلفة أو الأفخاذ Stems كما كان يطلق عليها، بزعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق من الناحية الإدارية، وحولوه إلى لقب دال على التفوق الاجتماعي ابان الفترة الكارولنجية، خاصة في فترة الضعف التي شهدها عهد لودفيج Ludwig الطفل، وقد لقي هذا الاغتصاب للقب "دوق" قبولا حسنًا، حيث نظر الناس في كل دوقية إلى هذا "الدوق" باعتباره ممثلاً لوحدتهم القبلية[٢٣]. ففي سكسونيا برزت عائلة "ليودولف" Liudolfinger والتي منها انحدر ملوك ألمانيا السكسون فيما بعد، باعتبار أفرادها القادة العسكريين للحدود الشرقية Duces orientalium Saxonum وفي بافاريا جاءت العائلة الحاكمة من ليوتبولد Liutpold الذي قتل في إحدى المعارك ضد المجيار، وخلفه ابنه أرنولف الذي قرن لقبه بـ "العناية الإلهية" Dei providentia dux أما سوابيا فقد حمل زعيم الأسرة الحاكمة فيها من البداية لقد دوق رائيتيا dux Raetianorum يعني حماة ممرات الألب السويسرية على حين احتلت عائلة كونراديين الزعامة في فرنكونيا بعد الصراع الداخلي الذي دار بينها وبين عائلة بيين، وانتهى بتحطيم الأخيرين عام ٩٠٦، وليصبح زعيمها أول ملك لألمانيا[٢٤].

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعتبر حجر الزاوية في السياسة الاستقلالية للأمراء الألمان في مواجهة الملكية، فحقوق المقاطعات الخاصة لم تأت من جانب سلطة حكومية مركزية، بل جاءت ملكيتها نتاجًا ملحيًا خالصًا وبالتالي فإن النبلاء الألمان حققوا لأنفسهم السيادة على ضياعهم وممتلكاتهم، ليس عن طريق الحصول

---

(٢٣) كانتور، التاريخ الوسيط ترجمة قاسم عبده قاسم الجزء الأول، ص٣٥٥ وانظر أيضاً:
Thatcher and McNeal, op. Cit., pp. 69-71

(٢٤) للمزيد من التفاصيل عن النشأة العسكرية للدوقات الألمانية، يمكن الرجوع إلى:
Z. N. Brooke, op. Cit., p.7 وأيضا Schmeidler, op. Cit., p.79 وكذلك Barraclough, op. Cit., p.19 ودكتور نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، ص ٤٤٨-٤٥١.

عليها من التاج بل بمجهودهم الخاص واعتمادهم على العصبية القبلية[٢٥]. من هنا يمكن تفسير غيرتهم على هذه الحقوق، ومن هنا أيضًا تتضح الحقيقة القائلة بأن النبالة الألمانية كانت دائمًا متمردة، بل ومتآمرة فى عهود الملوك الأقوياء، على حين تظل على ولائها إزاء ملك ضعيف! ويعود ذلك فى المقام الأول إلى أن زعماء الجرمان المبكرين كانوا يقودون شعوبًا تتكون أساسًا من الأحرار، ونسبيًا من أرقاء لا يرتبطون مباشرة بالحاكم، بل يخضعون للسادة المباشرين، وأثناء فترات الاضطراب التى صاحبت حركات الهجرة التى استمرت قرابة القرون الأربعة، راحت طبقة الأحرار تتناقص[٢٦]، فلما خضعت الأراضى الألمانية للفرنجة، ولم يكن هذا الخضوع قد حدث دفعة واحدة، بل على فترات متباعدة، ولقى الفرنجة زمن شارلمان مقاومة عنيدة وتحديًا لسياسة الضم هذه خاصة من جانب السكسون[٢٧]، كان ينظر إلى كل فرد يمتلك أرضًا يؤدى عنها ضريبة، باعتباره حرًا، ويمنح كل الحقوق التى تخول للمواطن الحر ومن بين هؤلاء ظهرت طبقة أرستقراطية وعائلات ثرية راحت تزداد تباعدا عن الأحرار الذين لم تكن ملكياتهم تتعدى مساحات صغيرة محدودة[٢٨].

وبمرور الزمن أصبح هؤلاء الأحرار يشكلون جماعات الخدمة العسكرية، بينما الآخرون يكونون الكونتات أو القادة ولما كانت الملكيات الزراعية لهؤلاء واسعة ومبعثرة فى أنحاء كثيرة من ألمانيا، بل وربما أحيانًا عبر الحدود فى فرنسا أو إيطاليا، أصبحت هذه الطبقة الأرستقراطية هى المهيأة لممارسة الوظائف العامة، فأضحت الكونتيات والأسقفيات والأديرة فى أيديهم، والقيادة فى الحرب[٢٩].

---

(25) Bryce, The holy Roman Empire, pp. 121-122.

(26) Freiherr V. Dungern, Constitutional reorganization and reform, pp. 204-20

(٢٧) ليس هناك شعب من الشعوب قاوم الغزو الفرنجى والاندماج فى الإمبراطورية الفرنجية، كما فعل السكسون تحت قيادة زعيمهم الأشهر فيدوكيندWidukind وكان من نتيجة حروب شارلمان التى استمرت من ٧٧٢ حتى ٨٠٤ فناء جيل بأكمله، ولم تنته إلا بعد أن أكره عدد كبير من السكسون مع أسرهم على ترك سكسونيا والاستقرار فى الأقاليم الفرنجية. انظر

Barraclough, op. Cit., p.8.

(28) Freitherr V. Dungern, op. Cit., p.205.

(29) Ibid, p. 206

حقـيقة أن الكونتات على عهد شارلمان، كانوا موظفين ملكيين، يمكن-على الأقـل مـن الناحية النظرية- تغييرهم بيد الإمبراطور، حتى إذا جاء القرن العاشر الميلادى، كان خلفاء هؤلاء الكونتات يحكمون ألمانيا باعتبارهم أدواقًا، يتمتع الدوق مـنهم داخـل حـدود دوقيـته بسلطان يفوق سلطة الملك، وأصبح منصبه وراثيًا، وبالتالى أصبح من المهام الصعبة على الملك إحلال غيره محله(٣٠). ويعبر المؤرخ الألمـانى مايـر Mayer عن هذه الحال بقوله؛ أن الدوقيات الألمانية لم تكن تعتبر لشاغلها وظائف استمدت سلطتها من التاج، بل وحدات تعود إلى أصول مستقلة(٣١) وأخـذ استقلال الدوقيات يزداد بفعل التقاليد والعادات القبلية المختلفة فى كل دوقية عـن الأخـرى، بـل وحـتى الأهداف وراح هؤلاء الأدواق ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم حماة غيورين على هذه الادعاءات والاختلافات(٣٢) وليس أدل على ذلك مـن أنـه فى أثناء فترة الحرب الأهلية التى دارت بين الأخوة الأعداء أبناء لويس الـتقى، ما بين عامى ٨٣٢-٨٤٠، لم تكن ألمانيا موحدة فى اتجاهاتها؛ فبينما كانت بافاريـا وحدها تؤيد لويس الابن، تأرجحت سكسونيا وثورنجيا وسوابيا وفرنكونيا فـى مواقفهـا، وإن ظلت على ولائها للويس الأب التقى. فلما مات هذا بقى الأمر معـتقدًا خلال الحرب الأهلية الثانية ففى سكسونيا مثلاً، ونتيجة لصراعات طبقية، اختلفـت الأهواء؛ فالأرستقراطية النبيلة أيدت لويس الألمانى (الابن)؛ لأن الأغلبية العظمـى المكونـة من الأحرار أيدت لوثر! لم تكن هناك إذن وحدة فى الهدف فى ألمانيا إبان هذه الحرب الأهلية التى انتهت بمعاهدة فردان Verdun عام ٨٤٣، ولا حـتى بعـد أن خضعت كلها للويس الألمانى بمقتضى المعاهدة لقد اعتمد أولا على بافاريا، وبعد عام ٨٥٢ لم يقدم هو أو أحد من خلفائه على أن تطأ قدمه سكسونيا!.

وعلـى عكـس ما كان عليه الحال فى فرنسا، خلت ألمانيا من وجود جهاز إدارى بهـا، فلقـد كان كونتات الفرنجة هنا مجرد نواب عن الملك، وكان هذا فى

(30) Scott, op. Cit., p.60

(31) Mayer, op. Cit., pp.15-16, 27.

(32) Davis, A history of Medieval Europe, pp. 210-211.

حـد ذاته يعد الشكل الأول من أشكال النظام الإدارى فى ألمانيا، كما أن الظروف الـتى عينوا فيها كانت تختلف تمامًا فى سكسونيا وبافاريا مثلاً عنها بالنسبة للجزء الغربى من الإمبراطورية الكارولنجية، نعنى فرنسا.

لقـد كان الكونت فى ألمانيا لا يعدو كونه مبعوثًا ملكيًا عين ليفرض ويؤكد الحكم الفرنجى فوق شعب مهزوم، ينحصر واجبه الأساسى فى تحقيق رغبات سيده الملك الفرنجى ومن ثم كان عمله فى المقام الأول سياسيًا ولم يكن إداريًا [٣٣] وكان وجـود الملك فى غالة بعيدا عن ألمانيا، التى لم يكن بها -كما أسلفنا- سوى نوابه، عـاملاً أساسـيًا فى ضعف سلطان الحكومة المركزية بها، بله عدم اعتياد الألمان الخضـوع لحكم مركزى مباشر، ومن هنا يمكن القول أنه لم يمكن هناك فى ألمانيا ميراث لحكومة ملكية يمكن الاعتماد عليه وهكذا فإنه تحت سطح الوحدة الظاهرية التى تكونت بقيام الإمبراطورية الكارولنجية، فإن كل إقليم من أقاليم الإمبراطورية كـان يحـتفظ بحـياته الخاصـة وتاريخه ومشاكله وخصائصه الجغرافية، فغدت الإمبراطورية على هذا النحو دولة غير متجانسة مع تقاليدها السياسية.

ويعـود ذلك فى المقام الأول إلى أنه فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا إحدى ولايات الإمبراطورية الرومانية، لم تكن ألمانيا كذلك. ولذا فإن النظام السياسى فى الأولى، لم ينمو مستقلاً من التربة الفرنسية، بل فرض على أرضها بأيدى الرومان، فلمـا غزا الفرنجة غالة، ووجد كونتات الفرنجة أنفسهم وسط نظام إدارى رومانى قـائم بـالفعل، كـان قد أضحى أمرًا طبيعيًا راسخًا خلال خمسة قرون من الحكم الـرومانى، فوجهته الطبقة الحاكمة الجديدة حسبما تقضى مصالحها[٣٤]. وظل نظام الحكومة الرومانية، والمبادئ الأساسية للجهاز الإدارى للدولة، على حالهما دون أن يتعرضـا للتخريب، وبقيت للقانون الرومانى هيبته، وأصبحت له صلاحيته لسكان الغـال – الـرومان Gallo– Roman ، كما بقى النظام الضرائبى للدولة حيًا فى

---

(33) Barraclough, op. Cit., pp. 8-9

(34) Mayer, op. Cit., p.5.

أسسه ومبادئه بل وحتى وقت متأخر، إلى القرن العاشر عندما كانت تجبى ضريبة الدانييــن[٣٥]. Danegeld خلاصـــة القول أن مفهوم الوحدة السياسية للدولة، الذى تمـــثل فى هذا النموذج الرومانى، لم يدمر فى فرنسا، وأثبتت النظم الرومانية أنها الأسس الحية للدولة الفرنسية فى العصور الوسطى بل والأزمنة الحديثة. أما ألمانيا فلـــم ينضو منها تحت السيادة الرومانية إلا جزء ضئيل، ولم تمارس الإمبراطورية فـــيها عملية التوحيد التى طبقتها فى غالة. وحتى عندما خضعت المناطق الألمانية لإمبراطورية الفرنجة، لم يحدث ذلك دفعة واحدة، بل على فترات، كما أسلفنا، ولم يجـــد الفـــرنجة ميراثًا إداريًا لدى هذه القبائل ورثوه عن الرومان، وكان عليهم أن يـــتعاملوا – عندما أخضعوا سكسونيا مثلاً – ما أناس لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الحكومة الملكية ،ولا يعرفون شيئا مطلقا عن النظام الادارى الرومانى ولم يكونـــوا قد تحولوا حتى ذلك الوقت إلى المسيحية [٣٦] .ولذا فان الكنيسة هنا لم تكن تمثل الحفيظ على التقاليد الرومانية كما كان علية الحال فى فرنسا؛ ذلك أن البعثات الـــتى قدمـــت إلى الأراضى الألمانية، جاءتها من مملكة الفرنجة، وكانت الكنائس والأديـــرة الكبـــيرة الـــتى شيدها بونيفاس Boniface وأتباعه، بمثابة الطلائع التى مهـــدت للتوســـع الكارولـــنجى بعد أن قام الرهبان بتنصير الناس، وتأسيس مراكز التعلـــيم والحضـــارة، فأوجدوا بذلك الكنيسة الألمانية التى عرفت بهذا طريقها إلى الوجـــود قبل أن توجد أية زعامة ملكية ألمانية فعالة وهى بهذه الصورة تعد عملاً فرنجيًا وليست ميراثًا رومانيًا[٣٧].

كانـــت ألمانـــيا إذن أرضًا تم غزوها من جانب الفرنجة، وطبقت فيها النظم الفرنجـــية، فـــالدوق فى أية دوقية ألمانية لم يكن خليفة للمحافظ الرومانى، كما كان

---

(٣٥) للمزيد من التفاصيل عن النظم الرومانية فى غالة الفرنجة، راجع البحث القيم الذى كتبه الأستاذ Ch. Pfister تحـــت عـــنوان Gaul under the Merovingian Franks., C.M.H., Vol. II, pp. 133-158 وأيضًا، موس، ميلاد العصور الوسطى، ص٣١٩-٣٢٢.

(36) Barraclough, op.cit.,p. 7.

(٣٧) كانتور، التاريخ الوسيط، ص٣٥٩.

عليه الحال فى فرنسا، بل خليفة الموظف الفرنجى. وحتى هذه لم يكتب لها السيادة هناك. وبالتالى فإن النظرية عن الدولة، لم تكن الأساس الذى قامت عليه الحكومة الألمانية[٣٨] وباختصار .. فإن الوحدات الألمانية المستقلة، والتى لعبت دورًا معينًا فى المهام الحكومية، ولم تستمد سلطاتها من التاج، بقيت منذ البداية عنصرًا أساسيًا فى الحياة العامة. وساعد على ذلك أن النظام المبعوثين الملكيين الفرنجى لم يكن من الميسور أن يحقق أى نجاح فى أى من بافاريا وسوابيا وسكسونيا. وسرعان ما هوى وفقد رؤساء البلاط أهميتهم منذ بولكير القرن التاسع. كما أنه لم يكن هناك نظام ضريبى فى ألمانيا، حتى قبل نهاية العصور الوسطى. يضاف إلى هذا كله أن التشريعات الكنسية والزمنية كلها توقفت فى ألمانيا بعد تقسيم الإمبراطورية الفرنجية مباشرة[٣٩].

وفى دولة لم يكن النظام السياسى فيها ثابتًا، ولا الإدارة فيها معروفة، يصبح الارتباط والولاء الشخصى أهم العناصر فى إدارتها وحياتها السياسية، ومن ثم اعتمد الحكام على أشخاص بعينهم، وركنوا إلى ولائهم، بالإضافة إلى اعتمادهم على مساحات واسعة من الأراضى تحت تصرفهم يبنون عليها سلطانهم الملكى، دون أن ينجحوا أو حتى يحاولوا إقامة جهاز إدارى كامل يمكن أن ينجز حقيقة مشروعاتهم وكان هذا يعنى بالتالى فقدان التاج الألمانى للدعامة الأساسية التى يرتكز عليها الأمراء أنفسهم؛ ففى خلال الفترة الممتدة من عام ٨٧٠ حتى عام ٩١٨ كانت أراضى التاج قد تم اغتصابها، بالإضافة إلى أن ما تبقى منها كان مبعثرًا فى مختلف الدوقيات الألمانية[٤٠]. وكان هذا على عكس الحال فى فرنسا

---

(38) Mayer, op. Cit., p.7.

(39) Ibid. p.8; Pirenne, A history of Europe, p.319

(٤٠) يمكن احصاء ما تبقى من هذه الضياع الملكية عند اعتلاء الأسرة السكسونية العرش، على النحو التالى؛ ٨٣ فى فرنكونيا، ٥٠ فى سوابيا، ٢١ فى بافاريا، ١٢ فى اللورين، ٥ فى كل من سكسونيا وفريزيا. راجع Barraclough, op. Cit., p. 31

وانظر أيضا Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp.8,113

وكذلك Hodgett, op. Cit., p.24

فرغم أن النظام الإقطاعي كان سائدًا فيها، ضاربًا بجذوره في تربتها، إلا أن الملك كانت له أراضيه الخاصة، وأصبح منذ القرن الثاني عشر قادرًا على أن يسترد الامتيازات التي منحت من قبل لأقصاله، وأن يتخذ عاصمة مستقرة لملكه، تتركز فيها الإدارات الحكومية، وتتجه إليها كل الأنظار.

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعد على جانب كبير من الأهمية فتغير موطن الأسرة الحاكمة في ألمانيا من دوقية إلى أخرى كان كفيلا أن يتبعه بالتالي التغير الكامل في كل مرافق الدولة وأجهزتها سعيًا وراء الملك من دوقية إلى أخرى، فإذا كان الملك من سكسونيا، شأن هنري الأول والأوتويين، شكلت كل من سكسونيا وفرنكونيا قاعدة حكمهم، وصخرة قوية في الشمال، ووقفت مثلاً كل من بافاريا وسوابيا بينهما وبين سيادة الملك في إيطاليا وإذا كانت قوة الملك في بافاريا، شأن هنري الثاني، كان قادرًا على عزل سوابيا المعادية دائمًا عن كل من بوهيميا وسكسونيا.

أما إذا كان الملك سوابيا، مثل أسرة الهوهنشتاوفن، ارتبطت أراضيه بفرنكونيا وامتدت تجاه ثورنجيا حتى تصل إلى الألب، مكونة حاجزًا بين بافاريا وبوهيميا من ناحية سكسونيا من ناحية أخرى[41]؛ ذلك أنه لم تكن هناك عاصمة ثابتة لألمانيا، ولا مركزًا مستقرًا للحكومة حقيقة كانت للملوك قصورهم، لكنها لم تكن لهم مستقرًا ومقامًا، فحيثما وجد الملك توجد الحكومة[42]. بل إن المشكلة لم تكن قاصرة فقط على عدم وجود مركز جغرافي يمكن الوصول إليه من هذا الخليط الهائل من الأقاليم، بل أن ألمانيا افتقدت أيضًا أي شئ يمكن اعتباره مركزًا روحيًا تتجه إليه الأنظار ويعتبر قبلة الألمان[43].

(41) للمزيد من التفاصيل عن الصراعات بين هذه الدوقيات، أنظر:

Schmeidler, op. Cit., pp. 82-93

(42) Brooke, op. Cit., p. 20. وأيضًا Pirenne, A history of Europe, p.320

وراجع أيضًا : D. Waley, Later Medieval Europe, pp.73-74

(43) Joachimsen, op. Cit., p.99

ولمـا كـان وجـود عاصـمة دائمة يؤدى بصورة طبيعية إلى قيام حكومة مركـزية، علـى غرار باريس، كان من البديهى أن يتصدى الأمراء الألمان لأية محاولـة فـى هذا السبيل، لأنهم يعلمون يقينًا مدى تأثير ذلك فى الحد من نفوذهم وسـلطانهم ومن هنا نفهم مغزى لإجهاض المحاولة الجريئة التى أقدم عليها هنرى الـرابع، بهـدف تقويـة سلطة التاج وتدعيم نفوذ الملك، باتخاذ سكسونيا وبداخلها جوتسلر Goslar عاصمة له، وبنى من حولها القلاع العسكرية فى منطقة مرتفعات هارتـز Harz متمـثلاً فـى ذلك آل كابيه الذين اتخذوا عاصمة ملكهم فى جزيرة فرنسـا[٤٤] إلا أن سياسـة كهذه كان لابد أن تقابل بالاحتجاج من جانب السكسون والثورنجيين، الذين كانوا أقل الشعوب الألمانية اندماجًا فى الدولة الألمانية[٤٥]. فإذا علمـنا أن هذه المنطقة كانت غنية بمناجم الفضة التى عثر عليها زمن أوتو الأول، وأن ذلـك يعـنى إعطـاء الملـك الألمانى مصدرًا للدخل مستقرًا بعيدًا عن تحكم الأمـراء، أدركنا الأسباب البعيدة للعداء السافر تجاه سياسة هنرى الرابع من جانب السكسون[٤٦].

لا ريـب إذن فـى أن الأمـور التى عرضنا لها على هذا النحو، ترسم لنا صـورة واضـحة عـن الأحـوال العامة فى ألمانيا إبان تلك الفترة من العصور الوسـطى، وتبين الدوافع الحقيقية التى حدت بالأمراء الألمان إلى التمسك بحقوقهم الموروثـة بحكـم النظام الجرمانى القبلى، والمكتسبة بمقتضى الضعف الذى انتاب الملكـية فى ألمانيا خلال القرن التاسع، والغزوات الخارجية الشرسة التى تعرضت لهـا، والتى تحققت من خلالها سلطتهم المتزايدة داخل دوقياتهم، مما استتبع بالتالى حرصـهم الشديد على أن تكون سلطة الملك مجردة من أى سلطان يمكن أن ينقص ولـو قليلاً من امتيازاتهم الواسعة، ولن يتأتى هذا إلا إذا استمرت الملكية الألمانية انتخابـية بأيدى الأمراء، بعيدة عن إقرار مبدأ وراثة العرش. لقد كان اختيار الملك

(44) Ibid, pp.110-111; Freitherr V. Dungern, op. Cit., p.211

(45) Thompson and Johnson, op. Cit., pp. 374-375.

(46) Barraclough, op. cit., pp.83-84.

بالنســبة للأمــراء – على حد قول بروك Brooke – حقًا أساسيًا بصفة دائمة، ولم يســمح أبدًا أصحاب مبدأ الاختيار هؤلاء، بالاعتراف بحق الإرث كما جرى التقليد في فرنسا(٤٧). ومن الجدير بالذكر أن أساسيات عدد من الملوك الألمان في الداخل، والظــروف والمشــكلات الخارجــية التي تورطوا فيها جميعًا في الخارج، أعني المشــكلة الإيطالية، كانت من العوامل الهامة التي عمقت مبدأ الانتخاب في الملكية الألمانية، وجعلت حق وراثة العرش مع أخريات القرن الثاني عشر نسيا منسيًا.

فالاختيار الذي تم عام ٩١١ وجاء بكونراد إلى العرش كأول ملك ألماني، ثم الاختيار الثاني الذي حدث سنة ٩١٨ وثبت ما ارتآه الملك الراحل من خلافة هنري الأول السكســوني له، كانا لابد أن يضعفا من البداية مبدأ الوراثة في الحكم، وهو الشــئ الــذي كان مطلوبًا آنذاك للاستقرار الداخلي في العصور الوسطى غير أن هــنري الأول الصــياد تمكن بسياسته الداخلية، وجهوده الخارجية التصدي للمجيار والدانييــن، مــن تثبيت دعائم نفوذه، والتمكين لأسرته في حكم ألمانيا. واتضح ذلك جلــيًا عــندما أقــدم هــنري، وقد حضرته الوفاة – على دعوة الأمراء والناس في ارفــورت Erfurt للتصديق على تعيين ابنه أوتو Otto خلفا له. ولم يلبث أن تدعم هــذا ثانــية باختــيار الأمراء الحر بعد وفاة هنري، ومباركة الاكليروس، وموافقة الــناس وقــد تــم ذلــك في آخن Aachen، حيث اجتمع الأدواق وكبار الكونتات والفرســان الذين أقسموا يمين الولاء له، ثم قام رئيس أساقفة مينز، وأخذ بيده وقاده إلــى صــحن الكنيســة مخاطبًا الناس على هذا النحو: "أقدم لكم أوتو الذي اختير Electum مــن قــبل الله، وعين بواسطة هنري، السيد الراحل للمملكة domino rerum وأصبح الآن ملكًا بيد كل الأمراء، فإذا كان هذا الاختيار Electio يسركم، فلتعلــنوا رضــاكم بــأن يــرفع كل منكم يده اليمنى"(٤٨). هكذا – وعلى حد تعبير بــاركلاف– نجــح أوتو الأول عن طريق إرادة أبيه، وإرادة الله بحقوق الوراثة،

---

(47) Brooke, op. ct., p.19; Waley, op. cit., p.73

(48) Widukind, History of the Saxons, in A Source book for Medieval history, by Thatcher and McNeal, pp.72-75

وبحـــق الانـــتخاب، وبالحق الإلهى، نجح فى استخدام كل تأكيد رمزى ودينى كان مـــتاحًا فـــى ذلك القرن(٤٩). وبدا للجميع ساعتها أن مبدأ الوراثة قد أخذ يستقر فى الأرض الألمانـــية على حساب مبدأ الانتخاب أو بتعبير آخر، تدعيم سلطان الملكية فوق سلطة الأمراء.

ولا شك أن السياسة التى اتبعها أوتو الأول أثناء عملية اختياره ملكًا، وبعدها تفصـــح عن نيات الملك الألمانى الجديد تجاه الأمراء؛ فاختياره آخن بصفة خاصة لـــتجرى فـــيها عملية تنصيبه، توحى بأن العاهل الجديد يترسم خطى سلفه العظيم شارل. كما أن الوليمة التى أعقبت مراسم التتويج، على الصورة التى جرت بها(٥٠) وإن كانـــت عـــند الأمراء لا تعدو امتدادًا للتقليد الجرمانى القديم، إلا أنها لدى أوتو كانت تعنى حقيقتها لا رمزها فقط، أى اعتبار الأمراء "خدامًا ملكيين"، تابعين تبعية مطلقـــة للـــتاج. وقد ظهر ذلك واضحًا بعد عامين فقط؛ إذ أن ابرهارد Eberhard دوق بافاريـــا، والـــذى كان قد خلف أباه أرنولف منذ عام ٩٣٥ وحصل على ولاء البافاريين(٥١) رفض دعوة التاج له بالحضور اعتمادًا على هاتين الدعامتين: التعيين بحـــق الإرث عن أبيه، وولاء دوقيته فكانت إجابة أوتو على ذلك، العزل ولم يعط بافاريـــا لأحـــد مـــن أبـــناء أرنولف الآخرين، بل أعطاها لعمهم برتولد الكارنثى Berthold of Carinthia الـــذى تعهـــد أمام الملك بعدم تعيين أى أسقف أو كونت، وأصـــبحت أراضـــى التاج فى بافاريا تابعة مباشرة للتاج وعين إلى جانب الدوق، رئـــيس بلاط يراقب تصرفاته داخل الدوقية وكانت دلالة العزل الهامة القضاء على الاعـــتقاد الســـائد بحـــق الإرث فى الدوقية للأبناء(٥٢) وهو الحق الذى كان يناضل الملـــوك من أجله لجعله المبدأ الوحيد فى اعتلاء عرش الملكية الألمانية. ولم يضع

---

(49) Barraclough, The origins of Modern Germany, p.73

(٥٠) للمزيد من التفاصيل عن المراسم والصورة التى جرت بها هذه الوليمة، راجع :
Widukind, Loc cit.

(٥١) عن سياسة أرنولف البافارى المستقلة، وانتزاعه يمين الولاء لابنه من البافاريين، راجع :
Heinrich Mitteis, Feudalism and the German constitution, pp. 236-237

(52) Barraclough, op. Cit., p.28.

أوتو وقتًا، فخطا خطوة واسعة عام ٩٦١ عندما تغاضى عن مسألة اشراك الأمراء فـي اختيار الملك الجديد، وأقدم على تعيين ابنه وسميه حاكمًا شريكًا. يضاف إلى هـذا كلـه اعـتماد أوتو والأسرة السكسونية من بعد، اعتمادًا كاملاً على الكنيسة ورجـال الاكلـيروس فـي معظم أمور الدولة، كقوة منافسة لتحطيم نفوذ الأمراء العلمانيين، بعـد الـثورات وحركات التمرد التى نشبت ضد أوتو الأول، وكانت أخطـرها بين عامى ٩٥٣-٩٥٥ واستهدفت اغتياله. وتلك التى واجهت أوتو الثانى وهنرى الثانى، حتى غدت الكنيسة الألمانية هيئة دنيوية.

ومهمـا يكـن من أمر، فإن الجهود التى كللت بالنجاح فى مواجهة المجيار، والاسـتقرار الداخلـى الـذى تحقـق، كان عاملاً رئيسيًا فى أن يظل مبدأ الوراثة محـترمًا ومرعيًا على امتداد أربعة أجيال متعاقبة، ابتداء بأوتو الأول وحتى هنرى الثانى (٩٧٣-١٠٢٤) وحتى عندما لم يكن هناك وريث شرعى مباشر للعرش، كما حـدث عـند وفاة أوتو الثالث دون أن يعقب خلفا، أقدم الأمراء على اختيار هنرى الـثانى، احـترامًا للأسرة التى قدمت كل ما مقدورها لرفعة ألمانيا، باعتبار هنرى أحـد أفراد البيت السكسونى. بل إن ما حدث بعد ذلك عقب ارتحال هنرى هذا عن الدنـيا، يبيـن مـدى نجـاح الأسرة السكسونية فى تعزيز مبدأ الوراثة فى اعتلاء العـرش؛ ذلك أنه فى عام ١٠٢٤ كان المتنازعان على العرش يدعيان انحدارهما من سلالة ابنة أوتو الأول، ليوتجارد Liutgard وقد فاز كونراد (الثانى) لأن أرملة هـنرى الـثانى، كونيجوند Kunigunde سلمته الأشعرة الإمبراطورية عقب وفاة زوجها، فعد ذلك تعيينًا له باعتباره أفضل المرشحين.

هكذا بدا عام ١٠٢٤ أن المواجهة بين مبدأى الوراثة والانتخاب، قد حسمت فـى هـذه الجولة لصالح الوراثة، وأن النزعة الإقليمية لدى الأمراء، والتى كانت واضـحة تمامًـا خـلال القرن التاسع والعقود الأولى من القرن العاشر، قد أخذت تخـبو، وأن النظرية التيوتونية عن الاختيار، قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النسـيان خاصـة وأن سنوات القرن الحادى عشر- إذ استثنينا فترة الحرب الأهلية علـى عهـد هـنرى الرابع (١٠٧٧-١٠٨١) - والعقدين الأولين من القرن الثانى

عشـــر، شهدت استقرار مبدأ الوراثة بصورة بدت ثابتة، بعد أن أمكن كونراد الثانى لابنه هنرى الثالث، وهذا لوريثه-الطفل-هنرى الرابع، وهذا لابنه هنرى الخامس.

وقد اتضح منذ الوهلة الأولى لاعتلاء كونراد الثانى العرش، تصميم الأسرة الســـالية الفرنكونـــية علـــى ترســـيخ جـــذور مبدأ الوراثة، جريا على سنة الأسرة السكسونية، وتدعيمًا لسلطان التاج على الأمراء ففى عام ١٠٢٦، ولم يمض على اعـــتلاء كونـــراد العـــرش سوى عامين فقط، أقدم فى أوجزبرج Augsburg على تعييـــن ابـــنه هنرى (الثالث) ذى التسع سنوات، وريثًا له، ووافق الأمراء على ذلك وفـــى عام ١٠٢٨ تم تتويجه ملكًا فى أكس لاشابل Aix-La-Chapelle وهى السنة الـــتى أعقبـــت تـــتويج كونـــراد نفسه إمبراطورًا فى روما(٥٣). وهكذا يعلن الملك إمبراطورًا، وما أن يصل إلى العرش الإمبراطورى حتى يعين ملكًا جديدًا خلفا له، مما يوحى بأن الأمر لم يكن فقط مجرد استمرارية، ولكن تثبيتًا للحقوق التاريخية الملكـــية بـــل أن هـــذا الحـــق امتد إلى الإمبراطورية ذاتها؛ فمنذ عهد كونراد هذا اتضـــحت الحقـــيقة القائلـــة بأن الملك الألمانى هو بحكم الواقع ipso facto حاكم إيطاليا، وذهبت مع الريح حقوق الناخبين اللمبارد، ومنذ عام ١٠٥٤ ظهر مصطلح Rex Romanorum in imperatorem promovendus الـــذى يعـــنى أن الملـــك الألمانى، وإن لم يكن قد تلقى بعد التاج الإمبراطورى فى روما، إلا أنه بالطبع يعد "ملـــك الـــرومان" Rex Romanorum بحقـــوق ثابتة لا يمكن انتهاكها فى وراثة الإمـــبراطورية، حتى أن أحد فقهاء القانون فى القرن الحادى عشر، عبر عن ذلك بقولـــه: "إن من تم اختياره من جانب الأمراء، يصبح إمبراطورًا حقًا، حتى قبل أن يثبت البابا هذا الاختيار"(٥٤).

وانطلاقًـــا مـــن السياسة العامة التى اتبعتها الأسرة الفرنكونية، والتى وضع خطوطهـــا العريضـــة كونراد الثانى، أقدم هذا الملك على وقف استنزاف أراضى الـــتاج وذلك بعد اتباع السياسة التى درج عليها أسلافه بتقديم هذه الأراضى هبات

---

(53) C.M.H., Vol. III, p. 269.
(54) Barraclough, op. Cit., pp. 73-74.

إلـــى الكنيســـة، بـــل أنفقها لضرب كبرياء طبقة كبار النبلاء، وذلك بالاعتماد على النبالة الدنيا، أو صغار النبلاء الذين أغدق عليهم هباته، ليصنع بهذا الإجراء قاعدة عريضة من الموالين والأتباع.

وتمـــثل ذلـــك بصـــورة واضـــحة فـــى اعـــترافه بحق هؤلاء فى توريق إقطاعـــاتهم(٥٥). وتجســـد هذا بصورة عملية فى مواجهة للثورة التى أشعلها ارنست Ernst دوق ســـوابيا، فقـــد تحـــالف الملك مع الكونتات ضد الدوق(٥٦). ولا شك أن اعتماد كونراد على النبالة الدنيا ضد الاستقراطية النبيلة، مسألة تثير الاهتمام؛ لأنها تشـــير الوهلة الأولى إلى العداء الاجتماعى الآخذ فى الظهور خلال القرن الحادى عشـــر، غـــير أن خطورة هذا الأمر تعود إلى أنه إذا كان كونراد قد استطاع بذلك تقويـــة ســـلطانه فى الداخل، واضعاف شوكة الأدواق وكبار الأمراء؛ فإن هذا كان أمـــرًا مؤقـــتًا؛ لأنـــه أدى بسياســـته هذه على المدى الطويل إلى تفتيت ألمانيا إلى إقطاعات صغيرة.

وتمشيًا مع هذا الاتجاه، وخروجًا عن الخط الذى رسمه الاوتويون بالاعتماد الكـــامل علـــى رجال الاكليروس، سعى كونراد وخلفاؤه الفرنكونيون إلى الاعتماد علـــى طـــبقة جديـــدة لا تمت إلى النبالة بصلة، وجعلوا منهم الموظفين الإداريين والفرســـان المسلحين، وهذه الطبقة عرفت باسم ministeriales وليس لها نظير فى المجـــتمعات الإقطاعـــية الأخـــرى فى فرنسا أو إنجلترا(٥٧). وأصبحت هذه الطبقة الجديـــدة تعتمد بصورة أساسية على التاج فى وظائفها ودخولها وإذا كانوا يشبهون الأقصـــال فـــى أنهـــم ينالون مكافآتهم بمنحهم الأراضى والمراتب، إلا أنهم كانوا يفـــتقدون الحـــرية الشخصية للفصل الإقطاعى ولا يمكنهم ادعاء نفس الامتيازات الخاصـــة بـــتلك الطـــبقة. وكان هدف الفرنكونيين من ذلك واضحًا، وهو أن هذه

---

(55) Thompson & Johnson, op. Cit., p.372.

(٥٦) عـــندما طلب الدوق من الكونتات مناصرته ضد الملك أجابوه بأن طاعتهم له مرهونة بطاعته للملك، قائلين: "نحن أحرار، والحارس الأعلى لحريتنا هو مليكنا وإمبراطورنا، فإذا هجرنا فقدنا حريتنا".

(٥٧) للمزيد من التفاصيل عن أصل هذه الطبقة ووجودها فى ألمانيا، راجع:

Davis, op. Cit., pp.334-33

الطبقة من "محدثي النعمة" أقل خطرًا من النبلاء وأسهل انقيادًا، لاعتمادهم أو ارتباطهم المباشر بالملك وقد جعل كونراد الثاني منهم العمود الفقرى لجهازه الإدارى الجديد، ولم يكن هنرى الرابع من بعد بأقل منه استنادًا إليهم، حتى أن الشكوى التى سرت آنذاك ضده من أنه يحيط نفسه بمجموعة من ذوى الأصول المتضعة Vilissimi et infimi hominess وأنه يسمع فقط لنصائح مستشاريه من طبقات متدنية، ويزدرى آراء الأمراء ذوى الأصول النبيلة، كانت تعبر عن الواقع "الإدارى" الجديد باعتماد الفرنكونيين على هؤلاء "الموظفين" ministeriales دون غيرهم.

ولم يحاول كونراد الثانى أن يعهد بالدوقيات الشاغرة إلى الأسرات المحلية، بل وضعها جميعًا فى يد ابنه هنرى، حتى إذا جاءت كونراد رسل الموت لتوفاه، كان هنرى يسيطر بالفعل على كل الدوقيات الألمانية عدا اللورين وسكسونيا. فلما أصبح هنرى الثالث هذا ملكا عام ١٠٣٩ حرص على بسط سلطانه على كل الدوقيات، فعهد بسكسونيا إلى رئيس أساقفة بريمن Bremen، أدالبرت Adalbert عام ١٠٤٣، بهدف إضعاف جانب عائلة بيلونج Billonger ولما كان رئيس الأساقفة مواليًا للتاج، فقد تحول العداء بينه وبين أدواق سكسونيا إلى عداء هؤلاء الأخيرين للملك وإن كان هنرى قد تمكن من إخماد الثورات بها، وأمضى فيها خمس سنوات يحاول تدعيم نفوذ الملكية وتقوية سلطانها هناك. اما اللورين فقد تعرضت للتقسيم بين ولدى جوتزيلو Gozilo بعد وفاته سنة ١٠٤٤ إلا أن وفاة هنرى المفاجئة سنة ١٠٥٦ عصفت بمشروعاته هذه جميعها خاصة وأن وريثه كان طفلاً صغيرًا إلا أن الملك الجديد هنرى الرابع، بعد أن باشر مهام سلطاته، بذل جهودًا كبيرة فى إتمام خطط أسلافه الفرنكونيين فى إقامة دولة ألمانية قوية.

عمد هنرى إلى استعادة كل حقوق الملكية وامتيازاتها التى تم اغتصابها على أيدى الأمراء، العلمانيين والاكليروسيين على السواء، إبان الفترة التى كان يعانى فيها غض العمر وسن القصور، ولو أخذنا سكسونيا مثالاً واحدًا فقط، لعلمنا أنه خلال هذه الفترة، أقدم فلاحوها على استغلال ممتلكات التاج من الغابات والمراعى

جهــارا، فقطعــوا أخشابها، ورعوا أنعامهم، وأورثوها أبناءهم وكان الاتجاه الذى انــتواه فيما يختص بإعادة تأكيد امتيازات التاج فوق الأراضى، وتحريم الاستغلال الخاص لها، وتخصيص إنتاجها لدخل الملك، وبيع التصاريح الخاصة بالانتفاع بها سواء فى قطع الأخشاب أو الرعى أو إقامة الطواحين كل هذا بدا لأعين السكسون طغيانًا جائرًا. وفوق هذا وذلك، فإنه ضمانًا لإخماد الثورات التى يمكن أن يقوم بها أهــالى هــذه المناطق، فإن هنرى وقد ترسم فى ذلك خطى أبيه، أقام فى أراضى التاج فى سكسونيا وثورنجيا عددًا من القلاع، شحنها بالمخلصين له من السوابيين، الذيــن حظوا بمقت السكسون وكراهيتهم باعتبارهم دخلاء يعملون فى خدمة ملك، عــد عندهم طاغية. وما أن و افى عام ١٠٧٣ حتى كان هنرى الرابع قد سار فى هذه السياسة شوطًا بعيدًا، فقد بذلك السكسون إلى حافة الثورة(٥٨).

وقــد ألقى المؤرخ الألمانى هانز هيرش Hans Hirsh الضوء على محاولة أخــرى قــام به هنرى الرابع، دفعت الأمراء دفعًا إلى عدم التردد فى الإحاطة به، عــندما اشــتدت حمى الصراع بين الإمبراطور والبابوية، فقد سعى إلى أن يكون القضــاء الجنائى، أهم الحقوق العامة، مستندًا إلى السلطة الملكية. بمعنى أن تكون الإدانــة مــن الملك نفسه، وبهذه الصورة يمكن نقلها إلى سلطان الدولة، وكان هذا يعــنى فى حالة تمامه، التدخل المباشر فى حقوق وامتيازات النبالة الألمانية، وهى مــن أهم الحقوق التى كانوا يمارسونها(٥٩). ويبدو أن هنرى الرابع كان متأثرًا فى هــذه الناحية، بما أقدم عليه ويبو Wipo مستشار كونراد الثانى والذى امتدحه بأنه واهب السلام العام Pacis ubique dator ومعلم ابنه هنرى الثالث، من تقديم اقتراح إلــى هــنرى الثالث ينصحه فيه بأن يصدر مرسومًا عند تعيينه إمبراطورًا، يجبر النبلاء الألمان على إرسال أبنائهم إلى المدارس لتدريبهم هناك على احترام القانون.

---

(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن سياسة هنرى الرابع الداخلية هذه راجع:
Strayer & Munro, op. Cit., pp.207-208; Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, pp. 181-184; Thompson & Johnson, op. Cit., pp.374-375
(59) Mayer, op. Cit., pp.27-28.

فالإيطاليون – على حد قوله – يدرسون منذ زمان بعيد، القانون مما جعل من روما سيدة العالم(٦٠) وبهذا وضع ويبو يده على مواطن الضعف في الملكية الألمانية زمن الأوتوويين والفرنكونيين. فقد كانت السلطات التشريعية والقضائية من أهم جوانب السيادة التي يتمتع بها الأدواق في دوقياتهم. وكان اقتراح ويبو يمثل المعارضة القائمة من جانب التاج ضد اتجاهات الأمراء العلمانيين، الذين تجنبوا دومًا أي قانون مكتوب كلما أمكنهم ذلك، وراحوا يؤكدون في تثقيف بنيهم على الخلال الفروسية والخلقية، والتي تقابلنا في الملاحم البطولية(٦١). هذه الآراء المتباينة تكشف بوضوح من العداء الكامن والقائم بين الأحزاب المتصارعة خلال إرساء النظم الملكية الألمانية. إبان تلك الفترة، لأن إيجاد قانون مكتوب، وهيكل ثابت، لن يخدم فقط قضية القانون في ألمانيا، بل سيدعم بالتالي مركز الملكية الألمانية داخل ألمانيا(٦٢).

كانت البدايات كلها على هذا النحو تشير إلى أن الملكية الألمانية، راحت تأخذ طريقها إلى الاستقرار، وأن ألمانيا ستغدو قوة كبيرة في أوروبا العصور الوسطى، وأن مبدأ الوراثة قد حقق نجاحًا بعيدًا في التجربة الألمانية متفوقًا على منافسه الخطير، والكامن في نفوس الألمان، وهو مبدأ الانتخاب للجالس على العرش. وبدا أن هنري الرابع سوف يوضع في عداد أقوى ملوك أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، هنري الثاني ملك إنجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا. لكن الظروف التي وجد هنري نفسه محاطًا بها، أضاعت جهوده وجهود أسرته وأسلافه عبثًا، وذهبت مع الصمت الرهيب محاولات الأسرة السكسونية والفرنكونية، وحتى أسرة الهوهنشتاوفن Hihenstaufen في إقامة دولة ألمانية موحده، على رأسها ملك قوي، يدعمه حق طبيعي تقليدي في وراثة العرش، دون تدخل من جانب الأمراء.

---

(60) Joachimsen, op. Cit., 103

(61) Id.

(62) Ibid., p. 104

ذلــك أن هــنرى كان معاصرًا لواحد من أقوى بابوات العصور الوسطى، جــريجورى الســابع، الــذى تجســدت فــيه كل مبادئ نظرية السمو البابوى منذ جلازيــوس الأول Gelasius فــى نهايــة القرن الخامس، وحتى حركة الإصلاح الكلونــى علــى المبادئ الجريجورية، والتى استهدفت فى النهاية وجود إمبراطور واحد هو البابا[٦٣].

ولا شــك أن هذا لا يتفق وسيادة الإمبراطور الألمانى الذى كان يرى وجهة نظــر مخالفة عن الإصلاح الكنسى[٦٤]. وقد حمى أتون الصراع بادئ الأمر حول مشــكلة التقلــيد العلمانى، فلما أسقطت إتفاقية وورمز عام ١١٢٣ هذا القناع، سعر لهيــب الجــدل بيــن البــابوية والإمبراطورية حول السيادة العالمية، وانعكس هذا الصراع بصورة مباشرة على سلطان الملك الألمانى فى ألمانيا ذاتها. وانتهى الأمر بتحطــيم الإمــبراطورية فى القرن الثالث عشر، وخروج ألمانيا دولة لا تحمل من حقيقتها إلا اسمها فقط دون أى معنى سياسى.

كانــت الكنيســة تميل دائمًا إلى تأييد مبدأ الانتخاب فى الملكية عن الوراثة؛ لأن ذلــك كان هو أيضًا نظامها الذى تقوم عليه، وقد رأينا أسقف مينز يباشر شيئًا مــن هــذا عند اختيار الملك الألمانى. ولكن الشئ المؤكد أنها كانت ترى فى ذلك تحقــيقًا لصالحها الخاص. وكان جريجورى السابع بصفة خاصة من أشد البابوات تحمســا لهــذا الاتجــاه، خاصة وقد رأى بعينى رأسه ما فعله الإمبراطور السابق هــنرى الثالــث مــن عزل ثلاثة من البابوات المرتشين والمارقين، وتعيين خمسة

---

(٦٣) للمزيد من التفاصيل عن آراء جريجورى السابع، راجع:

Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, pp.142-161;
Bryce, op. Cit., pp.156-158;
Ullmann, The growth of papal government in the Middle Ages pp.262-309;
Tout, The Empire and the Papacy, pp. 110-114, 124-136;
Dictatus papae, in Henderson, H.D., pp.366;
Barry, The papal Monarchy, pp. 190-227.

(٦٤) عن الصراع بين البابوية والإمبراطورية انظر الفصل الأول.

آخريـن علـى الـتوالى ممن توسم فيهم التمسك بإصلاح أحوال الكنيسة. وتفصح رسـائل جريجورى عن القاعدة التى بنى عليها بصفة أساسية هجومه على الحقوق الوراثـية للملـك، واعتـبر أن الأمراء يشكلون جماعة أو هيكلاً واحدًا، وهم لذلك يمـثلون المملكة وقد تحمس جريجورى جدًا لآرائه هذه، وقد رأى فيها عاملاً هامًا لتحقـيق فكـرته عن "صلاحية" idoneitas [65]. وقد اعتمد رجال القانون الكنسى بصـفة دائمة على عبارة وردت فى إحدى رسائل القديس جيروم Jerome يصف فـيها نظـام البيعة السكندرية، حيث يقوم اكليروسها باختيار واحد من بينهم ليكون أسقفًا، "كما يفعل الجيش بالنسبة للإمبراطور"[66].

كـان قرار الحرمان الذى أصدره البابا جريجورى السابع ضد الملك هنرى الـرابع فى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٦، إشارة البدء للأمراء كى يطرحوا وراء ظهورهـم تمامًـا، هذا التقليد الذى جرى على امتداد قرابة قرن ونصف من الزمان (٩٣٦-١٠٧٦)، أعنى احترام مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية، وأن يبعثوا مـن جديـد ذلـك التقليد الجرمانى القديم باختيار الملك، والذى مارسوه فى بواكير القـرن العاشـر المـيلادى. ولم يكن هذا سلوكًا عفويًا .. لكن التراكمات الطويلة الـناتجة عـن سياسة الأسرة السكسونية ثم الفرنكونية من بعد، والتى ابتغت تدعيم سلطان التاج وتأكيد الحق الوراثى فى العرش، ثم ما لجأ إليه كونراد الثانى وهنرى الـرابع بصـفة خاصة من الاعتماد على طبقات أخرى ذوى أصول غير معروفة، لخلق منافس قوى تجاه النبالة الأرستقراطية، ومحاولة إقامة عاصمة دائمة للمملكة فـى سكسـونيا، وتجـريد الأمراء ثانية من الامتيازات التى اغتصبوها إبان فترة قصـور هنرى الرابع. كل هذا يجعلهم يستشعرون خطورة الأمر إذا ما قدر للملك أن يحقق انتصاره على البابوية فى صراعهما حول مشكلة التقليد العلمانى.

---

(65) Joachimsen, op. Cit., pp.127-129.

(66) Mundy, Europe in the high Middle Ages, p.330

دفـــع قـــرار الحـــرمان ضد هنرى، بألمانيا إلى حالة من الفوضى العارمة، تمثلـــت فى تحطيم وحدة الكنيسة الألمانية، ودفعت بالأساقفة المرتعشين أن يهرولوا إلى البابا طالبين الصفح والغفران. وكان إضفاء صفة القداسة على الثورة الألمانية، عاملاً هامًا فى تشجيع مختلف العناصر، أفرادًا وجماعات على إظهار سخطها(٦٧)، وامـــتدت الـــثورة فى مختلف أنحاء ألمانيا بصورة واسعة، عجز معها هنرى عن التصـــدى لهـــا. وعقـــد الأمراء الألمان مؤتمرًا فى مدينة ترايبور Tribur حضره مندوبان عن البابا، اضطر هنرى على أثره أن يلعق كل ما قاله آنفًا فى حق البابا، ووعـــد بـــأن يـــرعى فـــى كـــل شـــئ الطاعة الواجبة للكرسى الرسولى والبابا جـــريجورى(٦٨). وكان عليه أن يمضى أيامه الآتية فى الدير حتى يأتيه عفو البابا. وأعلـــن الأمراء أنه إذا لم يتمكن هنرى، حتى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٧ مـــن أن يضـــع عـــن نفســـه قرار الحرمان الكنسى، فإنهم سوف يعلنون آنئذ عدم اعـــترافهم به كملك من بعد. ورتب الأمراء أمورهم على أن يعودوا للاجتماع ثانية فـــى فبراير فى مدينة أوجزبرج، حيث وجهوا الدعوة إلى البابا لرئاسة هذا المؤتمر المقـــترح، بحيث إذا ما تقرر عدم صلاحية هنرى الرابع للبقاء على عرشه، اختار المؤتمرون ملكًا بديلاً.

لا شك أن اغتباط جريجورى بهذه الأنباء كان يفوق كل وصف، فليس أحب إلـــى قلبه من أن يصبح وسيطًا وحكمًا فى الشئون الألمانية. فاتخذ سبيله على مهل إلـــى ألمانيا فى ديسمبر ١٠٧٦. وإذا كان هنرى قد فوت عليه هذه الفرصة، بسعيه هـــو إلـــيه، ولقائه المهين فى كانوسا Canossa فى يناير ١٠٧٧، وحصوله على العفو والمغفرة قبل الموعد الذى ضربه الأمراء، إلا أن ذلك كله لم يثن هؤلاء عن عـــزمهم، فاجتمعوا فى مارس من العام نفسه وقرروا عزل هنرى، بعد أن اتهموه بأنـــه خدعهـــم ولـــم يلـــتزم بالبقاء فى الدير حسب ما قرروه فى ترايبور من قبل، واختاروا ملكًا مضادًا هو رودلف Rudolph دوق سوابيا.

---

(67) Thompson & Johnson, op. Cit., p.283

(٦٨) انظر: Henry IV, Promise of the King to offer obedienne to the Pope

وأيضًا: Henry IV, edict Cancelling the Sentence against Gregory VII, (in Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp.384-385).

هكــذا عاد الأمراء من جديد إلى ممارسة التقليد الجرمانى القاضى باختيار الملك. والتقت مطامحهم وأطماعهم بالمصالح البابوية، حتى أن المؤرخ كريستوفر بروك Christopher Brooke يرى أنه كانت هناك خطة موضوعة بين جريجورى الســابع والأمراء، بعد أن أصبح واضحًا فى علم ١٠٧٦ لكل من البابا وعدد كبير مــن زعمــاء الكنيســة الألمانية، أن هنرى الرابع لم يعد على وفاق مع الأمراء، ولإضــفاء صــفة العدالة على خطتهم القاضية بعزل هنرى، عادوا إلى ما جاء فى الكـتاب المقدس، من أن صموئيل عين داود ملكًا بينما شاول كان ما يزال على قيد الحــياة. ويذكــر أن هذه الرؤية كانت مرضية جدًا بالنسبة لجريجورى، وهى التى ألهمــته مــن بعد نبوءته الشهيرة عام ١٠٨٠، بأن هنرى لن يلبث أن يموت، إبان صــراعه مــع رودلــف السوابى. أما بالنسبة للأمراء فقد كان من الصعب عليهم الاعــتماد فقــط علــى مــا جاء فى العهد القديم، وألا وضعوا أنفسهم تحت رحمة اكليروس عنيف لا يرحم، هو البابوية. ومن ثم أقدموا منفردين على اختيار رودلف دون مشــورة الــبابا[69]. ويدعم أولمان Ullmann هذا الرأى أيضًا حين يقول أن الأمــراء فوجــئوا بمــا أقدم عليه البابا فى كانوسا، من العفو عن هنرى دون أن يستشــيرهم فى هذا الأمر، ولما كانوا قد وجهوا بالأمر الواقع fait accompli فقد تصرفوا هم الآخرون بنفس الصورة عند اختيارهم لرودلف السوابى[70]. ولعل هذا هو الذى يفسر مغزى الرسالة التى بعث بها جريجورى السابع إلى الأمراء الألمان عقب اذلال كانوسا[71].

كــان طبيعيًا أن يفصح الأمراء عن نياتهم الحقيقية باختيار رودلف السوابى للعــرش الألمــانى، فهــم من ناحية أكدوا من جديد حقهم فى "اختيار" الملك، ومن الأخــرى ضــمنوا أن يحققوا من خلال الملك الجديد، الذى صنعته أيديهم، كل ما كــانوا يشكون من ضياعه على عهود هنرى الرابع وأسلافه، الفرنكونيين بخاصة.

---

(69) Brooke, Europe in the central Middle Ages, pp.154-283

(70) Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, p.119

(71) Gregory VII, Letter to the German princes giving an account of the inxident at Canossa, (in Brian Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 62-63.

ولـــذا كـــان رودلف ملكًا مفضلاً لدى الأمراء، فقد كان عليه قبل أن يتم اختياره أن يـــتعهد بإعادة حقوق هؤلاء الأمراء، وظهر هذا واضحًا خلال مرحلة المفاوضات الـــتى سبقت اختياره. وكانت الوعود التى قطعها على نفسه تكشف بوضوح-على حد قول المؤرخ الألمانى Mitteis- الاتجاه إلى منح رودلف مركز السيد الإقطاعى ولـــيس مركـــز الملك[٧٢]. ومن ثم كان أهم ما تمخضت عنه عملية اختيار رودلف الســـوابى، أن الملكـــية الألمانـــية-كما يراها الأمراء، يجب أن تبقى انتخابية، وأن يـــتولى إلـــى الظل مبدأ وراثة العرش. ولذا فقد كان حرص الأمراء باديًا على أن يتعهد لهم رودلف بعدم الإقدام على إحياء مبدأ وراثة العرش من جديد.

ونتـــيجة لحـــرب التقليد العلمانى، تحطمت محاولة الأسرة الفرنكونية لإقامة ملكية قوية، فقد ألقت البابوية بثقلها فى الميدان، واستغلت الأرستقراطية هذا النزاع لتدعـــيم مصـــلحتها ونفوذها، ولعبت الحروب الأهلية (١٠٧٧-١٠٨١) دورًا كبيرًا فى تمزيق وحدة ألمانيا، واستغلت فترة الثلاثين عامًا، الواقعة بين ١٠٧٦-١١٠٦، وهـــى الـــتى لـــم يكن فيها هناك من الناحية القانونية، ملك معترف به من الألمان جمـــيعًا، فـــى ممارسة سلطات متزايدة للأرستقراطية، وبدلاً من النظام الفرنكونى للحكومـــة، أقامت الأرستقراطية نظامًا يتفق ومصالحها هى، وأهملت تمامًا حقوق الملكـــية. وهكذا شهد المجتمع الألمانى تحولاً خطيرًا فى تركيبه الاجتماعى خاصة فـــى الفـــترة ما بين اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ واعتلاء فردريك الأول بربار وسا العـــرش عـــام ١١٥٣، بحيـــث يمكـــن القول أن ألمانيا تحولت بالفعل إلى مجتمع إقطاعى، بعد أن انتشرت القلاع فى كل مكان، واختفى الفلاحون الأحرار، وتحول النبلاء الصغار إلى فرسان وارتبطوا بالسادة بروابط الفصلية[٧٣].

وســـاعدت الحرب الأهلية فى ألمانيا على التمكين لهذه القوى الجديدة، وكان كـــل كســـب يحققه الأمراء، يعد بالتالى خسارة للتاج؛ ذلك أنه كان على الملوك أن يقدمـــوا باســـتمرار تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء لكسب تأييدهم، خاصة التأييد

---

(72) Heinrich Mitteis, Feudalism and German constitution, p.241.

(73) Barraclough, op. Cit., p.136.

العســكرى. وكان هذا يعنى اعترافًا متزايدًا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم، بما فيها سلطانهم على النبالة الدنيا، وحقهم فى الوراثة. وهكذا أصــبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب إلى ابنه وكذا الأراضى. وأمست فكرة إقامة دولة لها كيانها السياسى، خاصة الالتزام العكسرى تجاه الملك، أمــرًا عبــثًا[74]. كما أن الادعاءات الخاصة بالإمبراطورية أثرت إلى حد كبير فى كفــاءة ومقدرة الملكية الألمانية، بعد أن أغرق الملوك الألمان أنفسهم فى مشكلات إيطاليا، وتعددت سنوات غيابهم هناك بعيدًا عن ألمانيا، مما أعطى الفرصة للأمراء الألمان كى يمارسوا سلطانهم وسيادتهم بعيدًا عن أعين الملوك[75].

كــان اختيار رودلف السوابى إذن، نقطة البدء فى طريق اللاعودة إلى مبدأ وراثـــة العـــرش ثانية، وإذا حدث من بعد فلن يمثل إلا الاستثناء، كما سنرى زمن أسرة الهوهنشتاوفن. بل لقد استمر الهجوم على الملكية الوراثية عقب موت رودلف الســوابى ١٠٨٠، إذ لقـــى اقتراحًا بتعيين كونراد ابن هنرى الرابع بدلاً من أبيه، رفضًــا جامحًا من أوتو كونت نوردهيم Otto of Nordheim الذى قال: "لا أرى إلا عجــلا شاردًا يولد من ثور هائج؛ لذا فأنا لا أريد الابن ولا الأب!!"[76]. وكان تمــرد هــنرى الخامس ضد أبيه، وقبوله التاج وإعلان نفسه ملكًا بيد الأمراء عام ١١٠٥، يعــنى اعــترافًا منه بالسمات الأرستقراطية للمجتمع الألمانى، وبما وصل إلــيه ســلطان الأمراء. وباختصار، فإن حقوق الإرث الملكى والامتيازات التى لا تقــبل المناقشـــة بالنســـبة للملكية، قد انهارت تمامًا من جراء الصراع حول التقليد العلمــانى، والحرب الأهلية بين عامى ١٠٧٦-١١٠٦ وظهر ذلك واضحًا فيما قاله أســقف مينز، الذى طالما ادعى ومارس حق تنصيب الملك، وراح يناضل الآن من أجــل أن يجعل من نفسه "صانع الملوك"، كى يتحكم فى مصائر المملكة وأقدارها. قــال فـــى عـــام ١١٠٦ وهو يسلم الأشعرة الملكية إلى هنرى الخامس: "إذا لم تغد حاكمًا عادلاً، حاميًا لكنيسة الله، فإنه مصيبك حتمًا ما أصاب من قبل أباك!"[77].

---

(74) Brooke, op. Cit., p.506.

(٧٥) عن هذا الموضوع انظر الموضوع الفصل الثالث.

(76) Barraclough, op. Cit., p.15, n.1

(77) Ibid., pp. 153-154.

ولقد كان على هنرى الخامس أن يقدم بدوره التعهدات على نفسه والتى تخرج عن تلك التى أعطاها صاغرًا من قبل،رودلف فقد وعد هنرى السكسون حتى يحصل على ولائهم عام ١١٠٦، وعدا بأن كل فرد سوف يحظى بالعدالة at amnibus iustum indicium faciat. وفى عام ١١١٩ أحنى رأسه للعاصفة، وجدد وعوده فى عبارات محددة واضحة تجاه المملكة جميعًا. لقد كانت النتيجة الطبيعية للانتخاب، باختصار، الاعتراف بالحقوق المقررة لأمراء الإقطاع[٧٨].

ولو أن الأمور جرت على نحو طبيعى كما كانت تسير قبل عام ١٠٧٦، لوجدنا أن السابقتين اللتين جريتا فى عام ١٠٠٢ باختيار هنرى الثانى باعتباره وريثًا لأوتو الثالث، وعام ١٠٢٤ باختيار كونراد الثانى، لكونه مرشحًا من قبل زوجة الملك الراحل هذا، يمكن أن تشيرا إلى أن الأمراء سوف يقدمون الآن فى سنة ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس، على اختيار فردريك السوابى الهوهنشتاوفنى الوريث الشرعى لهنرى، والمرشح من قبله قبل وفاته. غير أن هذا أصبح الآن شيئًا مستحيلاً، إذ لو حدث لرأى فيه الأمراء عودة إلى مبدأ الوراثة، ولذا فقد عمدوا إلى اختيار لوثر Lothar دوق سكسونيا وكان أدالبرت رئيس أساقفة مينز، والعدو اللدود لهنرى الخامس، هو المحرك الأساسى وراء هذا الاختيار، فقد أغرى الناخبين بعدم احترام وصية هنرى الأخيرة، بالإضافة إلى أن لوثر كان معروفًا بعدائه الشديد لسلفه إبان حياته، ولم تكن لديه أية ادعاءات وراثية فى العرش[٧٩] ولذا كان يضع نصب عينيه أن امتلاكه للتاج راجع فقط إلى الانتخاب وحده. وشجع الأمراء على ذلك، أنه كان قد بلغ الخمسين من عمره، ولم يكن له وريث ذكر، ولم يبد عليه أى علامة من علامات الطموح فى تكوين أسرة ملكية أو التدخل

(78) Ibid., p.155

(٧٩) عن دور رئيس أساقفة مينز، راجع Adalbert, letter to the bishop of Bamberg, (in S.B.M.H., pp.167) أما لوثر فكان ابنًا لأحد صغار الكونتات فى سكسونيا، وإن كان قد حصل على حكمها سنة ١١٠٦ عن طريق انصهاره إلى أسرة بيللونج Billung راجع: Scott. Op. Cit., p. 116.

فـــى حقـــوق الأمـــراء وامتيازاتهم. لقد كان لوثر باختصار أحد أفراد تلك الطبقة الجديدة التى ظهرت نتيجة لحرب التقليد العلمانى(٨٠).

وطــيلة عهـــد لوثـــر (١١٢٥-١١٣٧) كان يتصرف بما لا يزيد عن كونه زعـــيمًا لجماعـــة النـــبلاء أكـــثر منه ملكًا ألمانيا. ولما وجه بعداء أصحاب الحق الشـــرعيين فى العرش، الهوهنشتاوفن، ركن إلى تدعيم نفسه بإقامة حزب قوى إلى جـــواره، دون أن يدخـــل فى اعتباره أنه حاكم لمملكة. فوزعت الأراضى الملكية لجذب الأنصار، وارتمى فى أحضان الكنيسة، وابتاع رضاها بما قدمه من تنازلات باهظـــة، وخســـرت الملكـــية الألمانية كل ما كانت قد حققته زمن هنرى الخامس بمقتضى اتفاقية وورمز عام ١١٢٢. لكن الخسارة الكبرى تمثلت فى تنازله للكنيسة عـــن أملاك الكونتيسة ماتيلدا، وقبوله بادعاءات البابوية عليها، وتلقيها من أنوسنت الـــثانى Innocent II إقطاعيًا بابويًا، فى مقابل حصوله على التاج الإمبراطورى سنة ١١٣٣!!(٨١).

وكان هنرى المتكبر Henry the Proud الولفى دوق بافاريا، من أكبر مؤيدى لوثـــر عـــند تتويجه ملكا، وتدعم التحالف بينهما عام ١١٢٧ بزواج هنرى من ابنه لوثـــر الوحـــيدة ووريثـــته، وجـــاء هـــذا الـــزواج فى نفس العام الذى حمل فيه الهوهنشـــتاوفن، الأعـــداء التقليديون للولفيين والملك، السلاح، وأقاموا ملكًا منافسًا، وظلت لهم اليد العليا حتى عام ١١٣٠، وإن كان التحالف بين لوثر وهنرى قد أدى إلى تحسن موقف الملك وانتصاره على خصومه عام ١١٣٥. وكان لابد أن يكافئ صـــهره علـــى حســـن صـــنيعه، فجعله ماركيزا لتوسكانيا وعهد إليه إدارة أملاك الكونتيسة ماتيلدا، مما جر على الملك غضب الكنيسة فى أخريات سنى حياته. وزاد المســـألة تعقيدًا فى ألمانيا، أن لوثر ضم إلى هنرى أيضًا دوقية تسكانيا، فغدا بذلك

---

(80) Davis, op. cit., p317.

(٨١) راجع: Lother, coronation Oath, 1133 وأيضًا الوثيقة الخاصة بمنح أراضى الكونتيسة ماتيلدا كإقطاع بابوى إلى لوثر Innocent II grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133 (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 169-171).

عـند وفـاة صهره أقوى المرشحين للعرش، بسيطرته على بافاريا وسكسونيا فى ألمانـيا، وتوسكانيا فى إيطاليا، وبتلقيه للأشعرة الملكية من لوثر الذى بعث بها إليه عندما حضرته الوفاة. كما أنه عن طريق زوجه جرترود Gertrude ورث ضياع لوثـر الخاصـة، الـتى تشمل أملاك أكبر عائلتين فى سكسونيا قديمًا، بينما توجد الأملاك الوسيعة لأسرته فى بافاريا تحت إدارة أخيه ولف Welf(٨٢).

أضحى من الممكن فى ظل هذه الظروف، قيام حكومة ألمانية مستقرة، وأن تغـدو الدولة الألمانية قوية. لكن شيئًا من هذا لم يحدث، لأن قيام ملكية ألمانية قوية لم يكن فى مصلحة أى من النبلاء أو الكنيسة. وكانت شخصية هنرى المتكبر، بلقبه الـذى اقترن باسمه، تنفر الأمراء والاكليروس من الإقدام على اختيار ملك لابد أن يصـبح "مـتعجرفًا" مزهوا بقوته. وهكذا تكرر من جديد ما حدث عام ١١٢٥ بعد وفـاة هـنرى الخامس، إذ ضرب بعرض الحائط آراء النفر القليل الذى كان ينادى بإعـادة مـبادئ الشـرعية والوراثـة، رغبة فى تقوية الملكية(٨٣)، ولعبت الدوافع الشخصـية دورهـا حاسـمًا، متمثلة فى المندوب البابوى الذى بعث به البابا على عجـل، ليعمل قدر طاقته فى ألمانيا لصرف التاج عن هنرى، ووقع اختيار الأمراء والمـندوب البابوى على كونراد الهوهنشتاوفنى دوق سوابيا، ليكون ملكًا. ولما كان منصـب رئيس أساقفة مينز شاغرا، بينما تم اختيار رئيس أساقفة كولون لتوه، فقد تـزعم أسقف ترير Trier أدالبرو Adalbro الدعوة لمنع وجود ملك قوى، يمكن أن ينقض كل التنازلات التى حصلت عليها الكنيسة من قبل على عهد لوثر(٨٤).

هكـذا أكد الأمراء خلال أقل من خمسة عشر عامًا، وعلى مرتين متتاليتين، حقهـم فـى انتخاب الملك، وتأكيد كون الملكية الألمانية انتخابية. ولكنهم فى الوقت ذاتـه حكمـوا عليها بأن تظل ضعيفة، ودفعوا بألمانيا إلى عداء إقطاعى مدمر بين الولفيين والهوهنشتاوفن(٨٥) زاده ضراما ضعف شخصية كونراد، ولجوئه إلى نفس

(٨٢) للمزيد من التفاصيل عن المركز المتميز، راجع: Brooke, op. Cit., p.278

(83) Barraclough, op. Cit., p.158.

(84) Brooke, op. Cit., pp.278-790.

(85) Scott, op. Cit., p. 119.

الأسـلوب الخاطئ، قصير النظر الذى سار عليه سلفه لوثر، فأقام إلى جانبه حزبًا مـناوئًا للولفيين، فعين ألبرت الدب Albert the Bear على سكسونيا، وليوبولد Leopold الأخ غـير الشقيق للملك، دوقا على بافاريا، بعد أن انتزعهما من هنرى المتكـبر. غـير أن ذلـك لم يؤد إلا إلى إشعال نيران الحرب الأهلية، فلما فشلت محاولاتـه، وانتصـر الحزب المؤيد لهنرى الأسد، ابن هنرى المتكبر ووريثه، لجأ إلى عملـية تغذيـة هـذه النيران، فحرض براندبرج ضد سكسونيا، واستريا (النمسا) ضد بافاريا. غير أن هذه السياسة كشفت إلى أى مدى أمست الملكية الألمانية إلى ضياع.

ولم يكن أمام الملك من طريق سوى استرضاء الأمراء، حتى أنه عند اعتلاء كونراد الثالث العرش، كانت كل الضياع قد أصبحت وراثية، بينما تحولت أراضى الـتاج إلـى رقـع مبعـثرة، خاصـة فى شمالى ألمانيا، سواء من حيث المساحة أوالامـتداد(٨٦). وفـى عـام ١١٢٥ حمل التغيير فى الأسرة الحاكمة إلى مزيد من التدمير لأراضى التاج، فقد ذهب جزء كبير منها إلى أسرة الهوهنشتاوفن، بمقتضى الظـن عـند هنرى الخامس بانتقال العرش إليها عن طريق فردريك السوابى الذى بعـث إلـيه هنرى بالأشعرة الملكية. ثم ازدادت المشكلة تعقيدًا عام ١١٣٨ بذهاب أراضـى الـتاج إلى هنرى المتكبر، بحكم الظن أيضًا بانتقال العرش إليه بعد وفاة لوثـر. حتى أن هنرى – كما أسلفنا – غدا بالأراضى الواقعة تحت سلطانه، أقوى مـن كونـراد الثالث نفسه عند اعتلاء العرش. ولا ريب أن ضعف الدعائم المادية للملكـية، مـع ازدياد وتقوية الحقوق الخاصة بالأمراء، يعد السمة الرئيسية للفترة الواقعـة ما بين عامى ١١٠٦ و ١١٥٢، حيث أصبح الملك يعد عند الأمراء الأول بيـن أقـرانه Primus inter pares (٨٧). ولقـد أصـاب أوتو الفريزى Otto of Freisign كاتب سيرة فردريك الأول Gesta Frederici عندما ذكر أن الملكية التى كانـت زمـن الفرنكونيين وراثية عملاً، أمست فى عام ١١٥٢ انتخابية تتم حسب رغـبات الأمـراء؛ ذلك أن العمد التى ارتكزت عليها الملكية الفرنكونية كانت قد ولـت، فالكنيسـة غدت إقطاعية، ولم يعد الأساقفة على ولائهم للتاج، والموظفون

(86) Bryce, op. Cit., p. 162.

(87) Barraclough, op. Cit., pp.159-162.

الملكيون الذين اعتمد عليهم هنرى الربع فى برنامجه، تأرجحت أهواؤهم بفعل عدم استمرارية الأسرة الحاكمة أو سياستها[٨٨].

وفى عام ١١٥٢ مات كونراد الثالث، وتغاضى الأمراء عمدا عن ابنه الأكبر، وتحولوا إلى اختيار ابن أخيه فردريك دوق سوابيا، ورغم أن الأمر بدا على هذا النحو يمثل تأرجحًا بين الوراثة والانتخاب، إلا أن الأمراء كانوا يدركون تمامًا، أن البديل لذلك هو الوقوع تحت سطوة زعيم البيت الولفى، الشخصية القوية الصارمة، هنرى الأسد. يضاف إلى ذلك أن الأمراء رأوا فى فردريك شخصية قد توقف نزيف الحروب الأهلية والصراعات الداخلية بين العائلات الأرستقراطية الكبيرة، فقد كان فردريك ودودا مع الولفيين، كما أن أمه جوديث Judith كانت أختا لهنرى المتكبر[٨٩]. لذا لم يلق اختيار فردريك برباروسا الهوهنشتاوفنى معارضة، كما حدث لسلفيه من قبل. وكان أول شئ أقدم عليه الملك الجديد إظهار حسن النية من جانبه تجاه الولفيين، فاعترف بحق هنرى الأسد فى الأراضى التى يسيطر عليها بالفعل عبر نهر الألب، وكذلك سكسونيا، ورد عليه دوقية بافاريا، وأقطع الولفيين أيضًا أراضى إمبراطورية فى توسكانيا فاستطاع بهذه العلاقات أن يجعل من الأمراء الألمان قوة إلى جانبه[٩٠].

غير أن هذه السياسة التى لجأ إليها فردريك بربا روسا فى أول عهده، لم تكن تنم عن شخصيته أو أهدافه الحقيقة، بل جاءت ترضية لخواطر الأمراء وتهدئة للأمور فى ألمانيا بعد فترة عصيبة، لعبت بها النزعات والأهواء الشخصية كثيرًا منذ حرمان هنرى الرابع حتى وفاة كونراد الثالث (١٠٧٦-١١٥٢). لقد كان فردريك يدرك تمامًا حقوقه الملكية ومدى سلطانه، شأن أى سيد إقطاعى، ولم يكن يدخر وسعًا فى سبيل تثبيت هذه الحقوق، ولذا فقد أضحى البلاط الملكى على عهده بتوالى السنين، شيئًا يثير الرهبة فى النفوس ويبعث على الاحترام. وكان زواجه من بياتريس Biatrice وريثة كونتية برجنديا، قد حمل إليه أرضًا جديدة وأفصالاً

(88) Ibid, p. 162
(89) Brooke, op. Cit., p.287.
(90) Thompson & Johnson, op. Cit., p.394.

تابعين[٩١] أما فيما يختص بالكنيسة، فإن فردريك، بعد التبعية والخضوع الذى كان قد أظهره كل من لوثر وكونراد تجاهها، عاد بصورة متطرفة إلى تلك السياسة التى انتهجها الأوتوويون من قبل. فأعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التى أعطيت للتاج بمقتضى اتفاقية وورمز ١١٢٢، وكان السبيل الذى انتهجه فى ذلك يدور حول استبدال الأساقفة المصلحين الذين يرغبون فى تركيز السلطة الكنسية فى يد روما، بغيرهم من الأساقفة السياسيين، من المدرسة الألمانية القديمة، والذين لم يهجروا جانبه مطلقًا، بما يتميزون به من العناد وكان من أبرز هذه الشخصيات ريناالد Rainald رئيس أساقفة كولون، وقد ظل حتى اليوم الأخير من حياته يعمل فى خدمة الدولة، ويستحث فردريك على الدفاع عن حقوقه إلى درجة ربما أبعد مما كان يسعى إليها فردريك نفسه. كما أنه وجد فى كريستيان رئيس أساقفة مينز، عقلاً متقدًا ونصيرًا غيورًا[٩٢].

وكان من بين الدعامات التى لجأ إليها فردريك لتدعيم نفوذه وأسرته، حرصه على أن يوجد إلى جواره إدارة تنفيذية تعمل بأمره، وأراضى واسعة للتاج وخاضعة له مباشرة، ورغبته فى تطبيق مبادئ القانون الإقطاعى، بجعل الهيراركية العسكرية Heerschild ونظام القيادة العسكرية مرتبطًا أيضًا بالتاج. وكان هذا يعنى مدخلاً طبيعيًا لمفهوم الوحدة Monistic للدولة فى ألمانيا[٩٣]. وهذا يستتبع بالتالى العودة إلى إقرار مبدأ الوراثة فى العرش، والذى كان قائمًا أيام الأسرتين السكسونية والفرنكونية. وهذا بدوره سوف يقود حتمًا مقضيًا إلى الصراع مع الأمراء والكنيسة جميعًا. وقد تهيأت الفرصة لفردريك بربابروسا فى عام ١١٨٠ عند تحطيمه لقوة خصمه هنرى الأسد، وكان الأخير قد استغل التفوق الضخم الذى حازه، بما أغدقه عليه فردريك فى البداية، فراح يطبق نظامًا عسكريًا صارمًا فى سكسونيا، واهتم بتأسيس المدن فى مناطق نفوذه مثل برونزويك Brunswick وميونخ Munich ويمارس سياسة خارجية مستقلة، فأصهر إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا وتزوج ابنته، وقام برحلة إلى الأراضى المقدسة، واستقبل رسل

(91) Ibid, p. 395
(92) Ibid. pp. 395-6 ; C.M.H. Vol. V, pp. 392-397.
(93) Mayer, op. Cit., pp.28-29.

الإمـــبراطور البيزنطى، الذى كان على عداء مع الملك الألمانى. فلما استشعر فى نفســه القــوة، رفــض الاشتراك فى الحملة الخامسة التى قام بها الإمبراطور إلى إيطالـــيا عام ١١٧٦، وكان لغيابه أثره الكبير فى هزيمة فردريك فى موقعة ليناتو Legnano، ومــا ترتب عليها من إعادة تكرار مشهد كانوسا ثانية فى البندقية، على يد البابا إسكندر الثالث. فلما عاد الملك إلى ألمانيا، راح يستجمع قواه وقوى الأمراء الحاقدين على هنرى الأسد، وتمكن من تحطيمه سنة ١١٨٠[٩٤].

غــير أن فردريك فوت على نفسه وأسرته فرصة إقامة ملكية ألمانية وراثية قويـــة، وذلك بالأسلوب الذى اتبعه بعد تدميره قوة خصمه؛ ذلك أن عقابه جرى فى إطار النظام الإقطاعى، باعتبار هنرى فصلاً إقطاعيًا متمردًا، أدين بمقتضى القانون أو الــنظم الإقطاعية، فجرد من ممتلكاته كعقوبة إقطاعية أيضًا. وبدلاً من ضم هذه الأراضـــى والممتلكات إلى التاج لتقويته، وزعت على صغار النبلاء الذين ساعدوه فـــى محاكمة هنرى والقضاء عليه. وكانت هذه سابقة خطيرة، بحيث لم يستطع أى ملـــك ألمانى فيما بعد أن يضم أراضى مصادرة لفصل متمرد إلى ملكية التاج، هذا على عكس ما حدث بعد ذلك بعشرين عامًا فى فرنسا، عندما أقدم فيليب أوغسطس بعد هزيمة جون ملك إنجلترا، على ضم نورماندى إلى أراضى أسرة كابيه[٩٥]. لكن الشـــئ الجدير بالذكر أن سياسة فردريك هذه بتوزيع ممتلكات هنرى الأسد، غيرت الخريطة السياسية والاجتماعية لألمانيا، وإذا كانت قد ضمنت له السيادة على ألمانيا طـــيلة عهـــده. بعدم وجود قوة كبيرة تماثل قوة هنرى الأسد، إلا أنها عملت على تفتيــت وحـــدة ألمانـــيا تمامًا؛ فقد اختفت أو كادت الدوقيات الكبيرة القوية، وحلت محلهـــا دوقيات صغيرة هزيلة، وأصبح لقب الدوق ومنصبه وليس له نفس البريق الـــذى كان من قبل، وظهرت نبالة جديدة لم تكن ضمن طبقة الأرستقراطية النبيلة مـــن العـــائلات العـــريقة. وترك ذلك آثاره السيئة على مستقبل ألمانيا فيما بعد .. وأثبت فردريك بذلك أنه لم يكن رجل سياسة من الطراز الأول[٩٦].

---

(٩٤) عن تفاصيل هذه الأحداث، راجع: Brooke, op. Cit., pp.51, 501-503.

(95) Barraclough, op. Cit., pp. 189, 193-4 Slesser, The Middle Ages in the West, p.113.

(96) Brooke, op. Cit., pp. 503-506; reiherr V. Dungern, op. Cit., p. 221Ganshof, Feudalism, pp. 160-161

ومع أن الحملات العسكرية المتتالية التي قادها فردريك إلى إيطاليا، قد أرهقت ألمانيا من أمرها عسرًا، إلا أن ما حصل عليه فردريك في النهاية بمقتضى نجاحه في زواج ابنه هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة عرش النورمان فى صقلية، عوضه كثيرًا عن جرح كبريائه أمام مدن العصبة اللومباردية فى شمالى إيطاليا، والبابوية. وضمان فردريك العرش الألماني من بعده لابنه هنرى السادس، يعد هو الآخر نجاحًا وإن كان مؤقتًا لمبدأ الوراثة؛ ذلك أن العمر القصير الذى أمضاه الملك الجديد على العرش (١١٩٠-١١٩٧)، وانشغاله المستمر بتثبيت دعائم ملكه فى صقلية وحروبه فى إيطاليا، وطفولة ابنه ووريثه، وضعف خلفه فيليب السوابى، والحرب الأهلية الضروس التى استمرت ستة عشر عامًا، كل هذا أتاح لقرون طويلة آتية بإمكانية قيام ملكية وراثية قوية فى ألمانيا.

لقد شهدت نهاية القرن الثانى عشر، وبواكير القرن الثالث عشر، قمة المأساة فى الصراع الطويل بين مبدأى الوراثة والانتخاب للعرش الملكى فى ألمانيا. وحسمت لصالح الانتخاب. ولعبت فيها البابوية دورًا أساسيًا إلى جانب الأمراء الألمان، إن لم يكن الدور كله. فقد كان يعنيها فى المقام الأول فرض سلطانها وسيادتها على ألمانيا فى إطار نضالها من أجل السيادة العالمية. ولقد كان أنوسنت الثالث - على حد تعبير باراكلاف[97] - على استعداد ليس فقط لتدمير السلام فى ألمانيا، بل لجعل دول أوروبا جميعها تعلن الحرب ضد بعضها بعضًا. هذا على الرغم مما كان يعلنه من أنه لا يريد بالإمبراطورية شرًا. لكن الإمبراطورية التى كان يعنيها، كانت شيئًا غير ذلك تمامًا. لقد كان يعنى إمبراطورية بمفهومه الخاص، وليست تلك الإمبراطورية التاريخية التى نهضت من وحل مشكلة التقليد العلمانى بفضل عبقرية الهوهنشتاوفن. كما أن امتداحه للوثر الثانى، يكشف عن أفكاره التى تعود بنا إلى جريجورى السابع، وهى تقوم على أساس أن يختار الملك بواسطة الأمراء، ولا يصح له ممارسة سلطاته إلا بعد أن يتم التمحيص الواجب من جانب الكرسى الرسولى، كى يحصل على الموافقة والتثبيت والرضى من قبل البابا.

(97) Barraclough, op. Cit., p. 207.

وهـذا هـو ما حدث تمامًا إبان الأزمة التى تفجرت بالموت المبكر لهنرى السادس، بينما ابنه ووريثه فردريك (الثانى) يحبو فى عمر الطفولة. لقد بذل هنرى قصـارى جهـده لإغـراء الأمراء الألمان لجعل العرش وراثيًا، بحيث يخلفه ابنه بصـورة تلقائـية إمـبراطورًا وملكـاً على صقلية. ونجح فى مارس ١١٩٦ من الحصـول علـى تأكـيد مـن جانب اثنين وخمسين أميرًا، اجتمعوا فى فيرزبرج Wursburg بقـبول مـبدأ الوراثة على العرش. ولكن لم يكن هناك تجربة سابقة يمكـن أن تكـون ضمانًا مؤكدًا على أن الأمراء سوف يلتزمون بما عاهدوا عليه هـنرى، إذا ما مات قبل أن يصل ابنه إلى سن الرشد(٩٨). وهنا يبدو الخلاف كبيرًا بين ما آلت إليه الملكية فى ألمانيا، وما كانت قد بلغته فى إنجلترا وفرنسا. فهنا كان الملوك قادرين على فرض هذا المبدأ بمقتضى التقليد الذى أصبح متوارثًا جيلاً بعد جيل. أما هنرى فقد اضطر إلى أن يشترى موافقتهم بمزيد من التنازلات، فاعترف لهـم بحق الوراثة كاملة فى إقطاعاتهم، وامتد ذلك ليشمل أيضًا الإناث والأصهار. أما بالنسبة لرجال الاكليروس، فقد منحهم حقوقًا مساوية لهذه فيما يتعلق بالتصرف فـى الوصية. لقد كانت أسرة الهوهنشتاوفن بدءًا بكونراد الثالث ثم فردريك الأول، فابـنه هنرى السادس، فابنه فردريك الثانى، تسعى حقيقة إلى تدعيم نفوذها كأسرة قوية، لكن الوسائل التى استخدمها التاج فى سبيل ذلك، استخدمها الأمراء أيضًا فى أراضيهم، وهى القواعد الأساسية فى سيادة الأمراء وازدياد نفوذهم(٩٩). وحتى هذه التـنازلات الـتى قدمها هنرى، لم ترض جميع الأحزاب، فعدد من الأمراء، ومن بينهم دوق النمسا، كانوا قد حققوا بالفعل هذه الحقوق الوراثية بامتيازات خاصة.

وتمثلت المصالح والدوافع الشخصية خير تمثيل فى موقف كل من البابا كلستين الثالـث Celestine ورئـيس أساقفة كولون. فهذا الأخير، شأن قرينه أسقف مينز(١٠٠)، كان يدعى حقًا قديمًا فى تتويج الملك المختار لألمانيا بيد الأمراء، رأى أن نجاح هنرى

(98) Waly, op. Cit., p.74; Scott, op. Cit., pp. 256-257.

(99) Freiherr V. Dungern, op. Cit., p.221.

(١٠٠) هـناك وثـيقة خاصة بأسقف مينز فى هذا الشأن تعود إلى سنة ١٢٩٨، وصادرة عن الملك ألبرت Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 276-277

فـــي ضـــمان العرش من بعد لابنه، يعنى تهديدًا لسلطانه. أما البابا والذى كان متفقًا مع أسـقفه أول الأمر، فقد أقدم على تتويج فردريك الثانى ملكًا، متخطيًا حق أسقف كولونى فـــي هـــذا السبيل، ضاربًا عرض الحائط بغضبه، وذلك عندما لوح له هارى باستعداده للخـــروج فى حملة صليبية، وبالدخل الذى كان يحصل عليه البابا بمقتضى الاتفاق بين ابيه فردريك الأول والبابا لوقا الثالث، من جميع كنائس الإمبراطورية بدلا من المناطق المتـــنازع عليها فى وسط إيطاليا[١٠١]، وهو الذى لابد أن يسيل له لعاب البابوية. ومع أن الـــبابا قد رفض مقترحات هنرى بإقامة ملكية وراثية، بعد أن رأى اشتداد المعارضة مـــن جانب الأمراء خاصة دوق اللورين، إلا أن هنرى سرعان ما اكتسب ثقة الأمراء، وزعامـــة ألمانـــيا عندما أعلن اعتزامه الخروج بالحملة الصليبية التى كان قد وعد بها، وبمـــزيد مـــن التنازلات، وافق الأمراء فى ٢٥ديسمبر ١١٩٦ على تعيين فردريك ابنه ملكـــا[١٠٢]. ومع أن هذا الذى تحقق لم يكن يمثل نجاحًا لكل مشروعات هنرى السادس، إلا أنـــه ضـــمن علـــى الأقل استمرارية الأسرة على العرش. وإن كانت هذه الأحداث كشـــفت بجـــلاء عن حقيقتين هامتين؛ قوة الأمراء وازدياد نفوذهم، وارتباط مصـــالحهم بالمصالح البابوية.

علـــى أن الشـــئ الذى يستلفت الانتباه حقًا، هو أن الأمراء الألمان كانوا فى حالـــة تعـــرض ألمانـــيا لخطـــر خارجى يهددها، يتناسون – إلى حين – خلافاتهم ونـــزعاتهم الشخصية، حتى وإن كانت مسألة ظاهرية. وقد تمثل ذلك عند الموافقة علـــى اختـــيار هنرى الأول الصياد، ثم الموافقة الإجماعية عند تعيين أوتو الأول ملكًا، كذلك الرضى العام الذى صحب اختيار فردريك الأول برباروسا. وقد تكرر نفـــس الشـــئ الآن بعد وفاة هنرى السادس المفاجئ والمبكر عام ١١٩٧، فالأمراء الذين يحملون راية الصليب فى الشرق، أعلنوا ولاءهم لفردريك الثانى. وفى صقلية أظهـــر مـــاركوارد Markward أمـــير انويلر Anweiler الحليف القوى والموالى لهـــنرى الســـادس، قـــوة كبيرة فى الدفاع عن الحقوق الألمانية فى صقلية[١٠٣]. أما

---

(١٠١) للمـــزيد من التفاصيل، راجع Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp.204-206.

(102) Barraclough, op. Cit., p.203.

(103) C.M.H., Vol. V, p.479, VI,12.

فيليب السوابى، أخو هنرى السادس، فقدم لتوه من توسكانيا وأعلن وقوفه إلى جانب فردريك، وأغرى زعماء سكسونيا وبافاريا باختياره وصيًا على العرش، حتى يبلغ فـــردريك سن الرشد[١٠٤]. وهكذا فإن حقوق الوراثة فى أسرة الهوهنشتاوفن، والتى تحداهــا الأمــراء عــام ١١٩٦، وهنرى السادس بعد حى، قد ارتضوها الآن سنة ١١٩٨ عـندما اخـتاروا رودلف السوابى ملكًا بعد أن أعطى المواثيق والضمانات بعدم المساس بحقوق فردريك الثانى ابن أخيه.

كـان مـن الممكـن جـدًا أن تفيق ألمانيا من صدمتها العنيفة بوفاة هنرى الســادس، وأن تسـتجمع قواهــا مــن جديــد فــى ظل ملكية موحدة كما أرادها الهوهنشـتاوفن، لكن عاملين هامين قلبا كل هذه الاحتمالات وبدداها، أولهما تدخل الـبابوية بصورة سافرة متمثلة فى شخصية أنوسنت الثالث الذى يعيد إلى الأذهان ذكرى سلفه جريجورى السابع، والذى وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش تحطيم أسرة الهوهنشتاوفن، وبالتالى تحطيم الإمبراطورية، لتتحقق للبابوية الســيادة العالمية الكاملة. وثانيهما التدخل الأجنبى فى شئون ألمانيا من جانب فرنسا وإنجلـترا، ولم يكن ذلك راجعًا لمصالح لهما فى ألمانيا ذاتها، بقدر ما كان انعكاسًا للصــراع الطويل بينهما حول الوضع القانونى لمنطقة نورماندى، بعد أن أصبحت مشكلة غاية فى التعقيد فى أعقاب فتح دوقها وليم لإنجلترا فى عام ١٠٦٦ وإعلان نفســه ملكًــا علــيها ودوقًــا لــنورماندى. ولما كانت عائلة الولفيين ترتبط برباط المصــاهرة مع البيت الإنجليزى الحاكم، منذ أصبهر هنرى الأسد إلى هنرى الثانى ملــك إنجلترا، بالإضافة إلى ما كان من أمر وقوع ريتشارد الأول ملك إنجلترا فى أســر هــنرى الســادس، فى طريق عودته من الأراضى المقدسة، واستمرار بقائه أسـيرًا طـيلة عاميــن. إزاء هــذا كـــان طبيعيًا أن تلقى فرنسا بثقلها إلى جانب الهوهنشـتاوفن حتى لا تدع لإنجلترا فرصة الانفراد بإحراز نصر سياسى لها عن طــريق أنصارها فى ألمانيا. إلا أن عاملاً ثالثًا كان له أكبر الأثر فى نجاح مسعى هذيــن العامليــن، ألا وهــو طفولــة الوريث الشرعى فردريك الثانى، مما أعطى

---

(104) C.M.H., Vol. V, pp. 45-46 .

الفرصـــة الســانحة للحزبيـــن الكبيريـــن فى ألمانيا، الولفيين والهوهنشتاوفن، أن يصـــطرعا حـــول العــرش، وعلـــى البابوية أولاً وأخيرًا تقع مسئولية هذه الفترة العصـــيبة من تاريخ ألمانيا، والتى كانت نقطة فاصلة فى تحويل مسارها التاريخى إلى دولة ممزقة الأشلاء مهلهلة، كما أرادتها البابوية! .

ولقد ظهر ذلك واضحًا من تلك اللهجة العنيفة والتوبيخ، الذى وجهه أنوسنت الثالث إلى كونراد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢٠٠، عندما حاول جاهدًا إيقاف نزيف الدم المتدفق فى ألمانيا من جراء التطاحن بين الأحزاب المتصارعة؛ لأن هذا يعنى – كمـــا أفصـــح البابا – أن تقف ألمانيا جبهة موحدة، وهذا يجرد البابوية من حجية الـــتدخل فـــى شـــئون الإمبراطورية(١٠٥). أما الأمر الثانى فيتمثل فى تلك الأوامر الـــبابوية الصـــــادرة إلى المندوب البابوى فى الغرب فى نفس العام، ببذل كل جهد لعـــرقلة إتمام الصلح الذى كانت المفاوضات تدور بشأنه بين فرنسا وإنجلترا، لأن إتمامـــه ســـوف يوقـــف تسابقهما على التدخل فى الشئون الألمانية، ويوقف بالتالى الفوضى الحادثة فى ألمانيا، ويجعلها تلتئم تحت سيادة الهوهنشتاوفن، أصحاب الحق الشرعى فى العرش، وهذا لا شك يؤلم البابوية! (١٠٦).

وكان عدد كبير جدًا من أمراء ألمانيا، ممن يمثلون الأرستقراطية النبيلة، قد اجـــتمعوا على اختيار فيليب السوابى، أخى هنرى السادس، ملكاً على ألمانيا عقب وفاة هنرى مباشرة، وتم تتويجه فى مينز فى الثامن من سبتمبر ١١٩٨. وفى مايو مـــن العـــالم الـــتالى، الـــتقوا فى سباير Speyer وكتبوا إلى البابا أنوسنت الثالث، يخـــبرونه أن اختيارهم للملك أمرًا لا رجعة فيه، وحق لا يمكن نقضه، ويوضحون لـــه أنهـــم ســـوف يظهـــرون فـــى روما قريبًا لاتمام الإجراءات الرسمية لتتويجه إمـــبراطورًا. وارتجع الأمر على أنوسنت الذى كان يرى فى هذا التصرف خروجًا على طاعته بمقتضى السلطة البابوية التى يدعيها الجالسون على الكرسى الرسولى فـــى روما، وحاول أن يوضح لهم اعترافه بحقهم فى اختيار الملك، لكنه ذكرهم أن

---

(105) Barraclough, op. Cit., p.207
(106) Id.

التاج الإمبراطورى يمنح من البابا وحده، وأنه فى حالة تنازع مرشحين على العرش، فإن المسألة تحتاج إلى تمحيص دقيق، وهذا يستدعى بعض الوقت. وكان هدف أنوسنت من ذلك واضحًا، كى يدفع كلا المرشحين لطلب عونه، وبالتالى تقديم تنازلات[١٠٧]. لكن اجتماع سباير فى جوهره أعاد إلى الأذهان من جديد، ذلك المفهوم القديم جدًا عن الإمبراطورية، والذى أحياه فردريك بربروسا، متحديًا لادعاءات البابوية، معلنًا – كما أسلفنا – أن من يتم اختياره من جانب الأمراء، يصبح إمبراطورًا شرعيًا، حتى قبل أن يحصل على موافقة البابا[١٠٨].

وفى مقابل فيليب السوابى، اجتمع عدد قليل من أنصار البيت الولفى، واختاروا أوتو الرابع دوق برنسويك، ابن هنرى الأسد، ملكًا منافسًا، وتوجوه فى آخن فى الثانى عشر من يوليه ١١٩٨. ولعبت الرشوة التى قدمها ملك إنجلترا للأمراء الألمان فى الشمال الغربى دورًا كبيرًا فى هذا الاختيار، حتى غدا الأمراء– كما وصفهم باراكلاف – مجرد جنود مرتزقة من كثرة ما دفع لهم من فرنسا وإنجلترا[١٠٩]. وقد حمل هذا الترشيح معه نذر شر مستطير بالنسبة لألمانيا، فقد أفقدها لأمد بعيد امتد حتى القرن التاسع عشر، أملها فى دولة موحدة. وكان أوتو غريبًا عن الأرض الألمانية، إذ لم ير أرض آبائه من قبل؛ فقد ولد فى نورماندى، ونشأ فى بلاط إنجلترا، وأعلن ايرلا على يورك ١١٩٠، وكونتا لبواتو Poitou فى ١١٩٦. وصفه أحد المعاصرين بأنه كان "غطريسًا غبيًا"[١١٠]. ولما كان لا يملك أى حق أو سند شرعى يؤهله لاعتلاء العرش، فقد أعلن على الفور قبوله لكل شروط البابا ونظريات البابوية فى السيادة.

ودون أن نخوض فى تفاصيل الصراع الداخلى والحرب الأهلية التى استمرت ما بين عامى ١١٩٨ و ١٢١٤ أى ستة عشر عاماً [١١١]، فإن ما يعنينا

(107) Stephenson, op. Cit., p. 406.

(١٠٨) راجع: Barraclough, op. Cit., p.210

(109) Barraclough, op. Cit., p.210.

(110) Slesser, The Middle Ages in the West, p.128.

(١١١) تراجع تفاصيل هذه الأحداث فى الفصل الأول.

منها تلك الوثيقة الهامة، التى سجلها على نفسه البابا انوسنت الثالث والتى تفصح دون أدنى ريب عن أهداف البابوية ومصالحها ومطامعها فى ألمانيا، وتشجيعها لاستمرار هذه الحرب الأهلية الطاحنة، وإصرارها على أن تظل الملكية الألمانية انتخابية وليست وراثية، حتى تتاح لها الفرصة للتدخل فى شئونها.

والوثيقة خاصة بقرار المفاضلة بين المرشحين الثلاثة، فيليب السوابى، وأوتو الرابع، وفردريك الثانى (١١٢)، وصدرت عن البابا سنة ١٢٠١، أى بعد ثلاث سنوات من الانتظار والترقب من جانب الأحزاب المختلفة، والتعمد من جانب البابا. وقد جاء فى ديباجتها أن من مهام البابا النظر فى توفير الأمان والخيرية للإمبراطورية، وإنه "مادام الأمر قد انعقد باختيار ثلاثة ملوك من جانب الأحزاب المختلفة ... فإن أمورا ثلاثة أيضاً لابد أن توضع فى الاعتبار عند المفاضلة بينهم، وهى الشرعية والصلاحية وأسلوب الاختيار". وراح أنوسنت يطبقها على المرشحين واحداً بعد الآخر، واعترف صراحة بأن "الشاب – يعنى فردريك الثانى – ليس هناك أى سبب قانونى للاعتراض على انتخابه، لأنه قد حظى من قبل بالإيمان التى أخذها أبوه على الأمراء ... وإن الأمراء قد صدروا عن ذلك بمحض اختيارهم .. ليس من الحق إذن معارضته". ورغم هذا الاعتراف الصريح، إلا أنه رفض تأييده، "لأن الأمراء عندما اختاروا للإمبراطورية شخصاً لا يصلح لها ولا لأى منصب آخر، لأنه لم يكن قد تجاوز من العمر عامين ... ولما كان لا يمكن حكم الإمبراطورية عن طريق وصى على العرش، أو نائب، ولما الكنيسة لا ترغب ولا تقدر على أن تمارس رعايتها دون إمبراطور، لذا كان من الضرورى اختيار شخص آخر".

أما فيما يتعلق بفيليب السوابى، "فلا يبدو أن هناك أيضاً من الناحية الشرعية، والقانونية ما يعترض اختياره"، حيث اختاره عدد كبير من الأمراء، من ذوى المرتبة الرفعية، وهكذا "فإن اختياره يبدو شرعياً ... ولكن دون اختياره

(112) Innocent III, The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201, (in Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 220 – 227).

عقـبات ... فهـو قـد حـرم كنسيا لأنه استولى على أراضى القديس بطرس فى توسـكانيا ودمـرها ورفـض المصالحة". لكن أهم ما فى الأمر هنا قول انوسنت الثالـث؛ "وليكن واضحاً أيضاً، أنه ربما يكون من اللائق أن نعترض على اختياره، لأنـه باعـتلائه العرش، سوف يرث الأخ أخاه، كما ورث ابن من قبل أباه، عندما سـلم فـردريك الأمر إلى ابنه هنرى السادس، سوف تنحو إلى أن تصبح وراثية، وبالتالى سوف تغدو المفسدة قانوناً بحكم طول العادة!!".

وهـذا هو بيت القصيد فى القضية كلها .. فالبابوية لا يعنيها قرار الحرمان هذا. فقد كان بمقدورها أن تضعه عن كاهل من حملته إياه، ولا تقيم وزناً للشرعية أو الصلاحية أو أسلوب الاختيار، وهى القواعد الثلاث التى وضعها بنفسه أنوسنت فى البداية معياراً للمفاضلة. وهذا يتضح على الفور من حديثه عن أوتو الرابع حين يقـول: "أنـه يبدو للوهلة الأولى أنه ليس من اللائق قانوناً الوقوف إلى جانبه، لأنه اختـير علـى يد نفر قليل، كما أن حزبه قليل وضعيف" (١١٣) . ومع ذلك فهو يؤيد اختياره ويعتبره أفضل المرشحين الثلاثة، ويعلنه ملكاً على ألمانيا.

كـان هـذا القرار من جانب أنوسنت الثالث، ضربة قاضية وجهت إلى مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية، وانتصاراً ساحقاً لمبدأ الانتخاب. لكن الضحية فى حلبة الصـراع كانـت ألمانـيا ذاتها التى حرمت قيام دولة قوية موحدة، حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، على النحو الذى عرضنا له فى مقدمة بحثنا؛ ذلك أن البابوية لم تقـف عـند حـد إصدار القرار، بل مارست التدخل العلنى السافر، وراحت تنقل تأيـيدها – دون مراعاة لأية مبادئ – من فريق إلى آخر حسبما تقتضى مصالحها. فهـا هـى تؤيد أوتو الرابع، فيقدم لها تنازلات مهينة على حساب الملكية الألمانية، حـتى إذا أحسـت أن قضـيته أمست خاسرة، وإن كفة فيليب هى الراجحة، قلبت لحلـيفها الأول وصنيعها ظهر المجن، وأعطت خصمها الهوهنشتاوفنى كل تأييدها، وحصـلت منه بالتالى على تنازلات أشد مهانة (١١٤) . حتى إذا اختطفه الموت غيلة

---

(١١٣) كان عدد الأمراء الذين اختاروا فيليب السوابى، ٢٦ أميراً، بينما أيد أوتو ستة أمراء فقط. راجع Slesser, op. cit., p. 129.

(114) Philip of Suabia, Concession to Innocent III, 1203, in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 228-230.

عـام ١٢٠٨، والـتف الأمراء حول أوتو الرابع ثانية، بعد أن سئموا هذه الحرب الطويلة، أعلنت من جديد وقوفها إلى جواره، لكنها سرعان ما سعرت لهيب الحرب ضـده عندما رأت فيه هوهنشتاوفى السياسة، رغم أصله الولفى، وأنه يسعى لإقامة ألمانـيا قويـة مـرة أخـرى. وعادت تستدعي ذلك "الشاب" – كما يصفه البابا – فـردريك، الذى نبذته مكانا قصياً، وأعلنته ملكاً، ولم يتوان فردريك هو الآخر عن تقديـم المـزيد مـن التنازلات الأقصى مهانة (١١٥). وخلال هذا كله كانت فرنسا وانجلـترا تستبقان من أجل تحقيق نصر سياسى فى ألمانيا، يحقق بالتالى كسبا فى نورمـاندى، حـتى تمكنت القوات الفرنسية المناصرة لفردريك، من إنزال هزيمة قاسـية عـند بوفـان Bouvines سنة ١٢١٤ بالقوات الإنجليزية الولفية المشتركة، أضـحت فرنسا على أثرها، أكبر قوة سياسية فى أوروبا، بينما انحطت ألمانيا إلى السفح تضمد من نفسها الجراح!.

ورغـم أن فردريك الثانى (١٢١٢ – ١٢٥٠) بعث قوة أسرة الهوهنشتاوفن ثانية، ونفخ فى روح ألمانيا من جديد، إلا أن عهده كان بريقاً خاطفاً سرعان ما خبا فـى الظـلام، فقد ناصبته البابوية العداء السافر حتى مات. واضطر هو فى سبيل ضـمان تأييد الأمراء، إلى إعطائهم الكثير من الامتيازات والتنازلات على حساب الـتاج الألمـانى (١١٦)، فلما مات عام ١٢٥٠، مات معه كل أمل فى دولة ألمانية قوية، وتولت البابوية الإجهاض على مبدأ الوراثة تماماً، بعد أن سددت له الضربة القاضـية مـن قـبل، وغرقت ألمانيا فى بحر من الفوضى، استمرت ثمانية عشر عامـاً (١٢٥٠-١٢٦٨)، رشـحت البابوية خلالها ملوكاً لألمانيا، ليسوا من بينها على الإطلاق، ريتشارد ايرل كورنول Richard of Cornwall والفونسو العاشر ملك قشتالة Alfonso X of Castile وحتى تطمئن البابوية إلى أن مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانـية قد أدخل القبر، سيق الصبى الصغير كونرادينو Conadino حفيد فردريك الثانى، وآخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن، إلى نابولى، حيث أعدم بموافقة البابوية!.

---

(115) Frederick II, Promise to Innocent III, 1213; Promise to resign Sicily 1216, (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 230 – 233).

(116) Fredrick II, Statute in favor of the princes, 1231 – 1232; Concessions to the ecclesiastical princes, 1220 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 238-240, 233 – 36).

ولعـل خـير مـثال يوضـح لنا الحال التى ترددت فيها ألمانيا آنذاك، أقدم الأمراء فى عام ١٢٧٣ على اختيار رودلف الهابسبورجى Rudolf o Habsburg إذ رأى فـيه الأمراء شخصاً ينتمى إلى عائلة لا تستطيع أن تطاولهم قوة. حقيقة كانت للهابسـبرج أراضيهم فى الألزاس، وأعالى الراين. ولم تكن هناك دلائل تشير إلى مسـتقبل مـا لهـذه الأسـرة. لقد كان رودلف يعتمد على الأمراء بصورة جعلتهم يظفرون منه بوعود قاطعة، بأنه لن يقدم على التصرف فى أى جزء من أراضيه، هـبة، دون موافقـتهم (١١٧). ولدينا وثيقة دامغة على هذه الناحية، جاءت على قلم رئـيس أساقفة مينز، تقول: "وارنر Werner رئيس أساقفة مينز بفضل الله ... لما كـنا نرغب فى أن نكون مطيعين ومتفقين مع سيدنا الجليل، رودلف، الملك، فأنا قد أعطيـناه بصـورة تامـة وصريحة موافقتنا على أن يهب كإقطاع قرى لنكرشايم Lenkersheim وايرلـباخ Erlebach وبـروك Brucke وكل متعلقاتها إلى فردريك حاكم نورنبرج Nurnberg حينما رغب فى ذلك" (١١٨).

لقـد كان الانتخاب فى الفترة المبكرة، محط اهتمام كبار النبلاء، باعتبارهم ممثلـين للدوقات الألمانية، وإن كانت قد جاءت فترات معينة، حولت فيها الوراثة، مسـألة الانتخاب إلى مسألة نظرية فقط. فلما توفى هنرى السادس، ودست البابوية فـى ألمانـيا أنفها وذراعيها وقدميها، أصبح الانتخاب حقيقة واقعة، وتخلفت ألمانيا عن انجلترا وفرنسا سبعة قرون سويا.

(117) Waley, op cit., pp. 76 – 78.

(118) Werner, Electoral letter of Consent, 1282 (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 265 – 266

وراجع أيضاً وثيقة اختيار هنرى السابع اختيار هنرى السابع سنة ١٣٠٨ ليتضح مدى دور الأمراء فى ذلك Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 277-278

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأصلية

- Adalbert, Archbishop of Mainz: Letter to the bishop of Bamberg.

- Adrian IV (Pope 1154 – 1159):

    - Teaty of Adrian IV and Wiliam of Sicily, 1156.
    - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1157.
    - Letter of Adrian IV to Frederick I, 1158.
    - William of Sicily, King: Treay of Amalfi. 1156.

- Albert, German King:

    - The archbishop of Mainz is confirmed as archchancellor of Germany, 1298
    - Frederick II, Emperor : Promise to Innocent III, 1213
    - Frederick Promise to resign Sicily, 1216.
    - Frederick Concessions to the ecclesiastical princes, 1220.
    - Frederick Statue in favor of the princes, 1213-1232.
    - Gregory VII, Pope : Dictatus papae.

- Ambrosius, Sermo contra Auxentium: Nicene X 2, 430-435 (=PL.XVI 1007-1018). – Ad Theodosium Augustum. Ep. XL: Nicene X 2, 440-445.

- Anna Komnena, Alexiad, translated E.R.A. Sweter, Penguin book 1969.

- Augustinus, De Civitate Die, Eng. trans. M. Dods, Edinburgh, 1949.

- Athanasius, Epistola de Synodis Arimini in Italia et Seleuciaie in Isauria celebratis: Nicene IV 2, 451-480 (=PG. XXVI) 681-793)- Historia Arianorum as Monachos: Nicene IV 2, 270-302 (=PG XXV 696-796).

- Concordat of Worms, 1122.

-Conrad III, (Emperor 1138-1152): Letter of Conrad III to the Greek (Byzantine) Emperor John Comnenus, 1142.

-Donatio Constantini.

- Edict cancelling the sentence against Gregory VII.

-Einhard, Vita Caroli, Eng. trans. Lewis Thrope, Penguin Book, 1969.

-Eugenius III, Pope, Letter to king Louis VII of France.

-Eusebius, Vita Constantini: Nicene I 2, 473-580 (= PG. XX 905-1232).

-Frederick I Barbarossa, (Emperor 1152-1190): Letter of Frederick I to Eugene III, 1152.

-Manifestyo of Frederick I, 1157.

-The Peace of Contance, 1183

- Frederick I and Eugene III (Pope 1153-1154): Traty of Constance 1153.

-Gelasius, Pope, Letter to Anastsius.

- Gregory I, Letter to Maurice.

- Gregory II, Pope, Letter to Leo III.

-Gregory VII (Pope 1073-1085): Letter of Gregory VII to Henry IV, 1075.

- to the princes wishing to reconquest Spain, 1073

-Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa, 1077.

-to Solmon, King of Hangary 1074.

-Calls for Crusade 1074.

-Sumons Christians to repentance and describs the crusade as a test imposed by god, 1187.

-accords the Church's protection to Crusader Hinco of Zerotjn 1187.

-Letter to Wratislav, duke of Bohemia 1073.
-Letter to Sancho, King of Argon 1074.
-Letter to Solomon, King of Hungary 1074.
-Letter to Demetrius, King of Russia 1075.

-Gregory VIII, Pope, Sumons christians to repentance and describs the crusade as a test imposed by God, 1187.
-Accords the chruch's protection to the crusader Hinco of Zerotjn 1187.

-Gregory IX, Pope, Excommunication of Frederick II 1239.

-Gregory IX and Frederick II, Emperor; Papal Charges and Imperial defence1238.

- Guiscard, R., The oaths of Robert Guiscard to Nicholas II 1059.

- Henry III, Emperor, The emperor deposes and Creats Popes 1048.

- Henry IV, Emperor: Promise of King to offer obedience to the Pope.

- Henry VII, German King: Declaration of the election of Henry VII 1308.

- Henry, Emperor, The deposition of Gregory VII 1076.

-Hosius, Bishop, Epistola ad contantium Augustum (in Athanasius, historia Arianorum 44).

- Innocent II, Pope: Innocent III grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133.

- Innocent III, Pope : Letter to the Archbishop of Ravenna 1198.
  - Letter to the King of Armenia 1199.
  - Letter to the Prefect Acerbus and the nobles of Tuscan 1198.
  - Sermon on the Consecration.
  - Beging the taxation of the church for the crusades 1199.
  - Sermon on consecration of a pope.
  - Decision in regard to the disputed election.
  - Grants the of king to the duke of Pohemia 1204.

- The decision of the desputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201.
- Innocent IV (Pope 1243-1245): Sentence of deposition of Frederick II promulgated by Innocent IV in the general Council of Lyons 1245.
- John IX, Pope; enactment of a Roman Synod 893.
- Justinianus, Emperor, Novellae, translated into French by M. Berenger.
- Karl the Great, Emperor, Letter to Leo III.
- Lactantius, De mortibus persecutorum: Ante Nicene VIII 301-322 (=PL.VII 2, 189-276).
- Leo III, Pope: The oath of Leo III before Karl Great.
- Leo VIII, Pope: Leo VIII grants the emperor the right to choose the Pope and invest all bishops 963.
- Letter from the church at Rome to the Emperor at Constantinople, asking him to Confiem the election of their bishop.
- Letter from the church at Rome to the Exarch at Ravenna, asking him to Confirm the election of their bishop.
- Liudprand (Bishop of Cremona): Report of his embassy to Constantinople, 968.
- Nicene and Post Nicene Fathers of the Christian Church, ed. by Philip Schaff & Henry Wace, Michigan 1891 et Sqq.
- Nicholas II (Pope 1059-1061): Papal election decree of Nicholas II, 1059
- Socrates, Historia Ecclesiastica: Nicene II 2, 1-1178 (=PG. LXVII 29-842).
- Philip of Suabia, German King: Concessions to Innocent III, 1203.
- TREATY of SAN GERMANO, 1230.
- URBAN II, Pope, -to all the faithful in Flanders, 1095.
  - to this partisans in Bologna, 1096.
  - to the religious of the Congregation of Vallombrosa, 1096.

- Werner, Archbishop of Mainz: Electoral "letter of Consent". 1282.
- Widukind, History of the Saxons (in. S.B.M.H)

وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية:

- Bettenson (H.), Documents of the Christian Church, London 1956.
- Brand (CH.), Byzantium Confronts the West, Harvard university press, 1968.
- Brook (CH.) Europe in the central Middle Ages, 962-1154, London 1966.
-Cantor (N.), Medieval history: the life and death of a civilization, New York, 1966.

وقد قام الدكتور قاسم عبده قاسم بترجمة هذا الكتاب فى جزءين، صدر الأول منهما عن دار المعارف فى عام ١٩٨١، والثانى تحت الطبع. وقد تفضل مشكوراً بإطلاعى على النسخة الخطية لترجمة الجزء الثانى.

- Cantor (N.), The Medieval wold 300-1300, London 1968.

ثانياً: المراجع الأوربية

- Barry (W.), The Papal Monarchy, from st. Gregory the Great to Boniface VIII, New York 1906.
-Barraclough (G.), Mediaeval Germany, 911 – 1250; essays by German Historians, translated and ed. By Barraclough, Oxford 1948.
- Barraclough (G.), The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947.
-Barlow (F.), The feudal Kingdom of Englan, 1042 – 1216, London, 1974.

Bettenson, (H.), Documents of the Christian Church, London, 1956.

Brackman, (A.), The Beginning of the National State in Medieval Germany and the Norman Monarchies, (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 281-299), Oxford, 1948.

Brooke (ch), Europe in the Central Middle Ages, 962-1154, London, 1966.

- Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.

- Bryce (J), The Holy Roman Empire, London 1950.

-Care, (R.), and Coulson, (H.), A Source Book for Medieval Economic History, New York, 1965.

-Cambridge, Medieval History, 8 Vols. Planned by J.B. Bury, Cambridge 1962. Vols. II, III, V, VI.

- Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, from Constantine to St. Louis, London, 1957.

-De Wulf, (M.), Philosophy and Civilization in the Middle Ages, New York, 1953.

-Douglas (D.C.), Wiilliam the Conqueror, London 1969.

-Freiherer (O.), Constitutional Reorgnization and Reform under the Hohenstaugen, trans. from German by Barraclough, in Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233). Oxford 1948.

- Ganchof (F.), Feudalism, Hong Kong, 1976.

-Haskins (Ch.), The Normans in the European History, New York, 1966.

-Heer, (F.), The Medieval World, Europe 1100-1350, translated from German by Barraclough (in Medieval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford, 1948.

-Hinderson, (E.), Select Historical documents of the Middle Ages, London, 1923.

-Hodgett (G.A.), A Social and Economic History of Medieval Europe, London, 1972

- Holmes (W.G.), The Age of Justinian and Theodora, London, 1912. 2 Vols.

--Hyed, (J.), Socitey and Politics in Medieval Italy, the Evolution of the Civil Life, 1000-1350, London, 1973.

-Joachimsen (p.), The investiture contest and the German Constitutions, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.

-Jones, (A.), Later Roman Empire, Oxford, 1964. 2 Vols.

- Kantorowicz, (E.), Frederick the Second, London, 1931.

-Mayer (Th.), The historical foundations of the German Constitution, trans. From German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 1-34), Oxford 1948.

- Mitteis (H.), Feudalism and the German Constitution, trans from German by Barraclough, in (Mediaeval Germany, vol II, pp. 235-279) Oxford, 1948.

- Mundy (J.H.), Europe in the high Middle Ages, 1150-1309, London, 1973.

- Ozmet, (S.), The Age of Reform, 1250-1550, London, 1980.

-Paoluci, (H.), The Political Writings of St. Augustine, Indiana, 1962.

-Pfister (ch.), Gaul under the Merovingian Franks, in (C.M.H.) Vol. II, pp. 133-158.

- Pirenne (H.), A history of Europe, London, 1951.

-Pirenne (H.), Economic and social History of Medieval Europe, London, 1972.

-Pounds (N.), An Economic History of Medieval Europe, London, 1974.

-Riley-Smith, The Crusades, Idea and Reality, 1095-1274, Documents of Medieval History, London, 1981.

-Runciman, (S.), A History of the Crusades, London, 1965. 3 Vols.

-Scott (W.), Medieval Europe, London, 1975.

-Setton, (K.), A History of the Crusades, Philadelphia, 1955-1989. 6 Vols.

- Southern, (R.), Western Society and the Church in the Middle Ages, Penguin Book, 1978.

-Schmeidler (B.), Franconia's place in the structure of Mediaeval Germany, trans. form German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 71-94). Oxford 1948.

- Slesser (H.), The Middle Ages in the West, London.

- Stephenson (C.), Mediaeval History, New York, 1962.

-Strayer (J) & Munro (O.), The Middle Ages, 395-1500, New York, 1970.

-Thatcher, (O.), and McNeal, (E.), A Source Book of Medieval History, New York.

-Thompson (J.W) & Johnson (E.N.), An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York, 1966.

- Tierney (B.), The Crisis of Church and state, 1050-1300, USA, 1964.

- Tout (T.F.), The Empir and the Papacy, London, 1924.

-Ullmann (W.), The growth of Papal government, in the Middle Ages, London, 1955.

-Ullmann (W.), Law and Politics in the Middle Ages, London, 1975.

-Ullmann (W.), A Short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.

-Vasiliev, (A.), History of the Byzantine Empire, Madison, 1964. 2 Vols.

-Vinogradoff (P.), Feudalism, in (C.M.H. Vol. III, pp. 458-484).

-Waley (D.), Later Medieval Europe, form St. Louis to Luther, London, 1976.

ثالثاً: المصادر و المراجع العربية والمعربة

- إبراهيم العدوى، المجتمع الأروبى فى العصور الوسطى ــ القاهرة ١٩١٦.

-أسحق عبيد، الفرسان والأقنان فى مجتمع الإقطاع ــ بيــروت ١٩٧٥ .

-أســحق عبــيد : الدولــة البيزنطية فى عصر باليولوغوس، منشورات جامعة بنغازى، طبعة بيروت بدون تاريخ.

-أســحق عبيد: روما وبيزنطة، من قطعية فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين، القاهرة ١٩٧٠.

- جرانــت (أ.ج) وتمــبرلى (هــــ)، تــاريخ أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشــرين، جــزءان. الجزء الأول ترجمة الأستاذ بها، فهمى، القاهرة بدون تاريخ.

- جوانفــيل (ج) : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، المعروف بمذكــرات جوانفــيل، تــرجمة وتعليق دكتور حسن حبشى - القاهرة ١٩٦٨.

- جوزيــف نسيم يوسف : الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى ترجمة لبحثين للأستاذين. م. هارتمان، .ج. باراكلاف. القاهرة ١٩٧٠.

- جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر، هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور. القاهرة ١٩٦٩.

- جوزيــف نســيم يوســف: نشــأة الجامعــات فى العــصور الوســـطى، الإسكندرية ١٩٧١.

- دولــت صادق، جغرافية العالم، دراسة إقليمية. الجزء الأول. القاهرة ١٩٥٩ - الجغرافية السياسية. القاهرة ١٩٦٥.

- ديفــز (ر. هـــــ س): شارلمان، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى، القاهرة ١٩٥٩.

- رأفت عبد الحميد: الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثانى، القاهرة ١٩٨٣) ص ٨٣- ١٤٤.

- السمو البابوى بين النظرية والتطبيق، (مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥) ص ١٥٨-٢٢٥.

- الدولة والكنيسة - الجزء الثانى. القاهرة ١٩٨٢- المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية، بحث منضور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. العدد ٣٠.
- "الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب" بحث منشور فى المجلد الثانى من ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، ١٩٨٣.

- رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ - ١٩١٤. ترجمة دكتور جلال يحيى. القاهرة، بدون تاريخ.

- روبير الراهب: رواية روبير الراهب عن مجمع كليرمونت، ترجمة قاسم عبده قاسم فى كتابه "الحروب الصليبية، نصوص ووثائق"، القاهرة بدون تاريخ.

- زابوروف (ميخائيل)، الصليبيون فى الشرق، موسكو ١٩٨٦.

- سباين (ج.) : تطور الفكر السياسى، ترجمة حسن جلال العروسى ودكتور راشد البراوى فى خمسة أجزاء.القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٧١.

- سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩.
- الحركة الصليبية، جزءان، القاهرة ١٩٨٣.
- أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول: التاريخ السياسى القاهرة ١٩٥٨، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٦٣.

- عبد الحميد متولى، الوجيز فى النظرات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية. القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٥٩.

- فيشر (هـ) : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة ودكتور السيد الباز العرينى. القاهرة ١٩٦٦.

- فيشر (هـ)، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠. ترجمة دكتور أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع. القاهرة ١٩٥٨.

- كانتور (ن.) : التاريخ الوسيط، قصة حضارة، البداية والنهاية، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم فى جزءين القاهرة ١٩٨١، ١٩٨٣.

- كرامب (ج.)، جاكوب (إ.): تراث العصور الوسطى، جزءان ترجمة مجموعة من أساتذة الجامعة المصرية تحت إشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥.

- كوبلاند (ج. و) : الفتية والإقطاع، مقال فى "تاريخ العالم"، الذى أشرف على نشره السيرجون أ. هامرتن، المجلد الثانى، ص٣ – ٢٢. القاهرة ١٩٥٧.

- كوبلاند (ج. و) وفينوجرادوف (ب): الإقطاع والعصور الوسطى غرب أوروبا، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٨.

- لاسكى (هـ) : أصول السياسة، أربعة أجزاء، ترجمة محمود فتحى عمر. القاهرة بدون تاريخ.

- محمد كامل ليلة، النظم السياسية، القاهرة ١٩٦٣.

- محمد معروف الدواليبى: الوجيز فى الحقوق الرومانية وتاريخها جزءان. دمشق ١٩٦٣.

- هسى (ج. م): العالم البيزنطى. ترجمة دكتور رأفت عبد الحميد. القاهرة ١٩٨٢.

- محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة، القاهرة ١٩٨٥.

-موس (هـ)، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦٧.

- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا، لبنان، ١٩٦٧.

-هـاوزر (أ.) : الفـن والمجـتمع عبر التاريخ. جزءان. ترجمة دكتور فؤاد زكريا. القاهرة ١٩٧١.

- هتلـــــــــــــر، كفاحى، ترجمة لويس الحاج، بيروت ١٩٦٨.

-هسى (ج. م.) العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٤.

فهرس

رقم الصفحة	الموضوع

هذا الكتاب

لم يكن الفكر السياسى الرومانى يقبل مطلقاً وجود كيان مستقل عن سلطة الإمبراطور، أو بتعبير آخر دولة داخل الدولة.

فالإمبراطور هو الكاهن الأعظم، وهو صاحب السلطة المطلقة فى دولته؛ والكنيسة تنأى بنفسها عن هذا السلطان، وشعب الكنيسة يجل أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم؛ ورأس الكنيسة، أى البابا، يرى أنه ورث عن بطرس كل السلطات، فما يحله الأخير فى السماء يحله البابا على الأرض وما يربطه فى السماء يربطه البابا على الأرض، وعلى هذا فسلطة البابا الروحية تسمو على غيرها من السلطات العلمانية، وما كان للإمبراطور أن يرتضى هذا !! وأخذت البابوية تقلب بنظرها فى سماء أوربا، لتجد فى الفرنجة خير معين، واستدارت إلى الألمان لتجعل منها قريناً للفرنجة فى إخلاصهم وحرصهم على البابوية. ولكن سرعان ما اكتشفت أن الأباطرة الألمان كانوا يؤمنون بسمو السلطة العلمانية على السلطة البابوية .. ليبدأ الصدام بين الأيدلوچيا ال[illegible] فى الفكر البابوى والأيدلوچيا العلمانية ممثلة فى ال[illegible]